232 : Sh53yA
شاہ - (الخوری) شیوفانس
یسوع المسیح
MAR 21 885
APR 27 x512
MAR 29 X432
FEB 19 A1939

232=232
Sh 53 y A
MAY 16
APR 16 '56
MAR 4 '58
MAR 18 '60
APR 1 '60
APR 15 '60
SEP 4 '61
OCT 1 '61

يسوع الملك

ان هذه الصورة أُخذت عن الاصل الموجود عند سعادة الكونت نقولا دبانه في الاسكندرية

٢٦٩٦
ل ق ا زرق
232
Sh53yA
C.1

يسوع الملك

محاضرات القاها في كاتدرائية الروم الكاثوليك

بمصر القاهرة

الخوري ثيوفانس شاهين
من الاكليريوس البطريركي

39425

الحقوق محفوظة للمؤلف

مطبعة القديس بولس في خريصا
سنة ١٩٣١

LAURENTIAN UNIVERSITY LIBRARY SUDBURY

بطريركية
انطاكية والاسكندرية واورشليم وسائر المشرق
للروم الكاثوليك

سجل عدد
٤ ١٠٤٧

دمشق في ٢٠ ايلول سنة ١٩٣١

لحضرة الابن العزيز الخوري ثاوفانوس شار الجزيل الاحترام

سلام وبركة رسولية

ان المحاضرات الشائقة عن المسيح الملك التي ألّفتموها وعزمتم على نشرها قد طالعتها اللجنة الفاضلة المؤلفة من خيرة رجال الدين والعلم فوجدتها جديرة بكل مديح وثناء، وقد تلونا التقرير الجميل عنها فاعجبنا بمواضيعها السامية ومعانيها العالية وانشائها الراقي واسلوبها اللذيذ . فلم تكتفوا بالوعظ وخدمة النفوس بما نعهده فيكم من الغيرة والنشاط بل جمعتم تلك الارشادات بكتاب خاص وعرّفتم المؤمنين حياة مخلصنا الالهي واقواله واعماله وتعاليمه الالهية وانرتم الاذهان واضرمتم

القلوب حباً وشغفاً بالفادي العظيم . فانّا نشكر لكم جهودكم التي بذلتموها لتمجيد الله وخلاص النفوس ونأذن لكم في نشر تلك المحاضرات القيمة ونتمنى لها عظيم الرواج بما هي اهل له . وندعو لكم بدوام التوفيق مكررين عليكم البركة الرسولية

كيرلس الناسع

بطريرك انطاكية والاسكندية واورشليم
وسائر المشرق

محل الختم

المقدمة

إن السيّد المسيح عرّف الحياة الابدية فقال « وهذه هي الحياة الابدية أن يعرفوك انت الاله الحقيقي وحدك والذي أرسلته يسوع المسيح[1] » . فمن هذا الوصف يظهر جلياً ان السعادة هي في معرفة الله وكمالاته وفي معرفة ابنه الالهي مخلّص العالم . وإذ كنا حاولنا وصف هذا الابن الالهي في سلسلة محاضرات ألقيناها في كاتدرائية الروم الكاثوليك في القاهرة فصادفت إقبالاً وارتياحاً، رغب إلينا كثيرون من اعضاء جمعيّة النهضة الدينيّة وغيرهم في نشرها بالطبع تعميماً لفائدتها . فنبتدئ الان ملبّين جزءًا من هذا الطلب قياماً بالوكالة المسلّمة من السيد المسيح الى كلّ كاهن بأن يبشّر بالتعليم، ورغبةً في اضرام نار محبة المسيح في القلوب

وقد جعلنا عنوان هذه المحاضرات « يسوع الملك » لأنه يلخّص معنى المحاضرات كلها فهو يسوع ابن الله المتأنس ملكُ الدهور كلها . هوَ هو . أمس، واليوم، والى مُنتهى الدهر – هو الأول والآخر . هو الذي وعد الله به منذ خطئ آدم، وهو الذي ظهر بكامل الصفات الالهية، وهو الذي يأتي في آخر الازمان ليدين الأحياء والأموات . فالمسيح ملك الدهور لم يكن مجيئه على

---

(١) يوحنا ١٧ : ٣)

الارض فجائياً : بل انبأ عنه الأنبياء كلُّهم فرسموا ملامحه ووصفوا ظروف حياته قبل ان يجيء . ولأجله دعا الله الشعب الاسرائيلي دعوةً خاصة ليُحافظ على الوحي ويُعدّ العالم لمجيء الماسيّا المنتظَر . ولم يأتِ السيّد المسيح لفداء العالم الّا لمّا كمُل الزمان أي لما كملت النبوءات وتعاقبت الممالك المنبأ بها سائرةً نحو توحيد الشرائع واللغة ، وتخطيط الطرق ، وتسهيل المواصلات للتبشير بفادي البشر . كمل الزمان لما وصل العالم الى درجة من الانحطاط الادبيّ شعر معها الشعوب الوثنية والشعب الاسرائيلي بحاجة ماسّة الى مجيء مخلص يصلح الانسانية ، ويبدّد ظلام أضاليلها ، ويقوّم اعوجاج فاسدها ويقرّبها الى الله خالقها . ولما كمُل هذا الزمان ظهر ابن الله . فمارس أفعالاً الهية دلّت على انه إله ، وأتمّ أعمالاً بشرية برهنت أنه إنسان . فجمع بين الطبيعة الالهية والطبيعة البشرية في اقنوم ابن الله المتأنس

وافى ابن الله وعلّمنا تعاليمه الالهيّة وجعل نفسه لنا قدوة إلهية وأيّد أقواله بأفعال إلهية : بعجائب ونبوءات لا تصدر الا عن الله . وختم شهادته بنبوءة وأعجوبة قيامته من بين الاموات . فلم يبقَ ريب في الوهيته لكل من نظر الى الحقيقة خالياً من الاغراض . وافى السيد المسيح وفدى العالم بموته على الصليب وخطّ لنا مثال الكمال وأسّس كنيسة تواصل عملَه ، وبعد أن أتمّ هذا العمل صعد الى السماء . وبعد صعوده اليها لم يُهمِل كنيسته ، وهو الذي وعدها بان يبقى معها كلّ الايام الى منتهى

الدهر . فهو باقٍ حيًّا فيها : في رُسله وفي شهدائهِ وفي قديسيه وفي النفوس المحافظة على نعمته وفي خلفائه وخلفاء رسله الذين هم نور العالم وملح الارض . وهو لا يزال يعمل في تقديس النفوس بروحه القدوس، الى الساعة التي يظهر فيها ليدين الاحياء والاموات، فهو ملك الدهور، وهو هُو . أمس واليوم وإلى مُنتهى الدهر . له العزة والمجد إلى أبد الابدين . امين

صحة الاناجيل وسلامتها من التحريف

ظهر منذ عشرين قرناً انسانٌ في اورشليم وأعلن للعالم أنه إله . وأثبت قوله بقُدرة الهيّة بالمُعجزات والنبوءات، ومات مصلوباً مؤيداً هذه الشهادة . الا انه لم يستعمل وسيلة من الوسائل المألوفة لاستمالة الرأي العام اليه لا المال ولا السيف ولا الجاه العالمي . لا بل طلب من الناس ما تنفُر طبيعتهم منه، أي قهر الذات والتواضع والعفَّة وحُب الأعداء . ونراه مع ذلك سبى الانسانيَّة بحبِّه حتى آمنت به، وسجدت له، واستُشهد لأجله في العصور الأولى فضلاً عما تلاها ما ينيف على عشرة ملايين . فآمن به الشرق ثم الغرب وقد بلغ الآن عدد المؤمنين به من المسيحيين في العالم كلّه ما ينيف على ٧٠٠ مليون نفس، يُعَدّون من أرقى أُمم الارض، منهم نخبة من العلماء ورجال الخير، وكلّهم يُدعَون مسيحيّين باسمه ويؤمنون بألوهيته . واذا كان الدين المسيحي تقهقر في الشرق لعوامل لا محل لذكرها هنا، فهو لم يزل في انتشار مُستَمر في سائر أقطار العالم . فهل ما حمل المسيحيين على الايمان بالمسيح هو الصواب ؟ وهل هذا الإيمان هو فرض واجب على الجميع . هذا ما سنراه في سلسلة محاضرات فنبحث عن المسيح قبل مجيئه، وندرس شخصيَّته اثناء حياته على الارض، ثم نرى نتيجة هذه الأبحاث في نفوسنا . وقبل أن نخوض في عُباب هذه

الموضوعات نرى من الواجب أن نضع اساس مُحاضراتنا الآتية صِحَّة الأَناجيل وسلامتها من التحريف ونحن ناظرون الآن الى الانجيل من الوجهة العلميَّة ككتاب تأريخي، مستندين الى المبادئ التي لا يُنكرها العقلاء على اختلاف مُعتقدهم. فاذا ما اثبتنا تأريخ أَصل أَسفارنا وصدقها اتخذناها حجَّة لوجوب الايمان بما تعلِّمه

ان الاناجيل صحيحة سالمة من التحريف واثباتاً لذلك نستشهد (اولاً) باصحاب الاناجيل اي الكنيسة التي حافظت عليها (ثانياً) باعداء الاناجيل (ثالثاً) بكتبة الاناجيل

١ً – اصحاب الاناجيل

لم يجترئ احد من العلماء أَن يُنكر صحة الاناجيل وسلامتها من التحريف منذُ أَصبحت الديانة المسيحيَّة الديانة الرسميَّة في العالم. أَي منذ اوائل القرن الرابع لأَنها حقيقة تأريخية مُسلَّم بها ولا أَحد يشك فيها. فمن الحقائق التأريخيـة المسلّم بها أَنه في سنة ٣١٢ م قد أَمر قسطنطين أَول ملك مسيحيّ بمراجعة نصّ الاناجيل على أَقدم المخطوطات وبكتابة ٥٠ نسخة جميلة منها وُزّعت على خمسين كنيسة من أَهمّ كنائس العالم. وهـذا العمل ضمِن المحافظة على أَصل الانجيل. إذ لو حاولت احدى الكنائس أَقلّ تغيير فيـه لاعترَضتْ عليها الكنائس الأُخرى شرقاً وغرباً. وضمِن ايضاً صحة الانجيل وسلامته لانه نُقل عن أَقدم المخطوطات. على أَن هذا العمل لا يحلّ المشكل في صحة الاناجيل الّا الى القرن

الرابع . فهل كانت اناجيلنا الحاضرة الاربعة في القرنين الثالث والثاني بين أيدي الكنائس أَوَلم يلحقها في هذه المدَّة تزوير او تحريف ؟

يجوز لنا أن نقول بادئ ذي بدء أنّ ابنـاء الكنيسة التي صبرت على التضحية بنحو عشرة ملايين منهم في الاجيال الأولى وماتوا مدافعين عن ايمانهم، لا بل استُشهد كثيرون منهم مُدافعين عن الانجيل نفسه، فهؤلاء جميعاً لم يكونوا أغبياء وجبناء الى حدّ أن رأوا اناجيلهم تُحرَّف وهم ساكتون . ولكنا لا نكتفي بهذا البرهان بل بين أيدينا حُجج تُثبت أن كنائس الشرق والغرب، كنائس فلسطين وآسيا ومصر وأفريقية الشمالية و كنائس الغرب كلها، مُتفقة على هذه الاناجيل الاربعة وعلى حفظها صحيحة سالمة . فاذا برهنا على ذلك حقّ لنا ان نعتقد بصحَّة الاناجيل وبسلامتها

لا يسعنا الآن أن نذكر الكتبة المسيحيين كلهم في الاجيال الأولى ولا أن نذكر معظمهم لكثرتهم بل حسبنا ان نذكر شهوداً من الجيلين الثالث والثاني من أَهم من اشتهر في كنائس الشرق والغرب علماً وقداسةً . فهم يذكرون أن الاناجيل الاربعة لا غير، كانت مُعتبرة في الكنيسة . وقد تركوا لنا من استشهادهم بآيات الكتاب ما يكفي لإعادة الانجيـل بجملته فيما لو كانت مخطوطاته كلُّها ضاعت

فالكنيسة المصريّة تقدّم لنا في الجيل الثالث وأواخر الجيل

الثاني من سنة ١٨٥ الى سنة ٢٥٥ نابغة عصره، ونادرة زمانه، أوريجانس ولد في الاسكندرية وعلّم فيها وعاش أكثر أيامه في فلسطين وليس من كاتب أغزر منه مادّة لانه كان بوسعه أن يُملي على سبعة كتبة في موضوعات مختلفة في الوقت ذاته. ويعزى اليه على أقلّ تقدير ثمانمائة كتاب. فاوريجانس كان يعرف الاناجيل الاربعة ويعتقد انها صادقة وصادرة من الرسل وقد شهد مرارًا للاناجيل وعدد كاتبيها الاربعة وقال: «لقد تعلّمنا من الاقدمين أن الاناجيل أربعة وهي وحدها تُقبَل بلا جدال في انحاء كنيسة الله المنتشرة في كلّ مكان». وهو لم يكتفِ بأن يذكر أسماء الانجيليين - متى ومرقص ولوقا ويوحنا - ولا بأن يستشهد بنصوص كثيرة منها. بل أخذ على عاتقه أن فسّرها من أولها إلى آخرها حسب تأريخها وسياق حديثها. فكتب شرحاً للقديس متى في ٢٥ مجلداً، وشرحاً للقديس مرقس في ١٥ مجلداً، وآخر للقديس لوقا في خمسة مجلدات، وأخيراً شرح انجيل القديس يوحنا في ٣٩ مجلداً، ما عدا مواعظ كثيرة على كل انجيلي مما لم يترك لأحد مجالاً للريب بانه في أواسط الجيل الثالث سنة ٢٤٥ كانت الاناجيل الاربعة بين أيدي اوريجانس وبين أيدي معاصريه كالقديس اكليمنضوس الاسكندري وغريغوريوس العجائبي وكبريانوس وهيبوليتوس

ولكن هل كانت هذه الاناجيل اياها بنفسها في الجيل الثاني وهل كان الجيل الثاني يعتقد أنها حقيقية وصادقة؟ ان كل

من طالع تأريخ الكنيسة في ذاك العصر يعرف اسمي مولّفين شهيرين — الاول — وهو ترتوليانوس ممثل الكنائس الافريقية والثاني ايريناوس ممثل الكنائس الآسيوية والغالية . فترتوليانوس عاش من سنة ١٦٠ ـ ٢٤٠ وقد قيل عنه إنه بين اللاتين كاوريجانوس بين اليونان، أي امير الكتبة . فهذا الكاتب العجيب قد استشهد بالاناجيل نحواً من ألف مرة حتى أنّ أحد العلماء الطبيعيين الالمان (روس) ألّف كتاباً في أيّامنا سمّاه العهد الجديد في اعمال ترتوليانوس . وهو مُطابق كلّ المطابقة أناجيلنا . ويجدر بنا ان نُثبت هنا بما قاله في كتابه الى مرقيون الهرطوقي محامياً عن الاناجيل الاربعة ورافضاً سواها « ان السلطة التي تُثبت حقيقة أسفار لوقا (وهو الانجيل الذي كان يقبله مرقيون) هي ذاتها تُثبت حقيقة أسفار متى ومرقس ويوحنا » وقال له ايضاً « أنا أدّعي ان انجيلي حقيقيّ، ومرقيون يدّعي مُدّعاه في انجيله . — أنا اظن انجيله مزوّراً وهو يظن مثل ذلك بانجيلي . فمن يحكم بيننا إلّا شهادة الزمان والتأريخ؟ فالحقيقي هو الاقدم، والاقدم هو الذي كان في بدء البشارة، والذي كان في بدء البشارة هو الذي كتبه الرسل انفسهم، فعدّته الكنائس الرسوليّة سِفراً مقدّساً . أما سفر مرقيون فإمّا مجهول واماً محروم لانه هو ألّفه او أحد ذويه — النحل يصنع اقراص العسل والزنابير تحذو حذوه » . فترون ترتوليانوس في الجيل الثاني يعتقد ان الاناجيل صحيحة مستنداً الى قدميتها والى اعتقاد الكنائس الرسولية بها سفراً مقدساً

والكنائس الآسيوية والغاليَّة تفتخر بشاهد ثقة وهو القديس ايريناوس العالم الشهير تلميذ القديس بوليكربس، وُلد سنة ١٤٠ ومات في اضطهاد الامبراطور الروماني سبتيم ساويروس . وقد بلغ من استشهاده بالاناجيل الاربعة الى أنه أورد منها في تاليفه نحواً من ٤٠٠ نصّ ومما قاله « ان صحة الاناجيل الاربعة تضطرّ بمتانتها الهراطقة أنفسهم الى ان يشهدوا لها . وكلّ منهم يجهد نفسه ان يثبت رايه مستنداً إلى نصّها . والاناجيل المقدَّسة اربعة لا أكثر ولا أقلّ » . وهو يشبّه الاناجيل بتشابيه جميلة يقول « كما أنّ في الارض أرياحاً اربعاً تجول وتبثّ الصحة في الارض، هكذا في الكنيسة ايضاً اربع رياح الهية تجتاز فيها وتبثّ الحياة . وكما أن في تابوت العهد أربعة وجوه للشاروبيم تُرفرف عليه، هكذا أربعة شاروبيم جديدة تبثّ النور في الكنيسة » . ولا يخفى أن القديس ايريناوس على ما يقول ترتوليانوس أعرف وأغزر شاهد للتعليم

ومع القديس ايريناوس وصلنا الى سنة ١٧٨ وبين القديس ايريناوس المولود سنة ١٤٠ والقديس يوحنا المستشهَد في السنة المائة نرى صِلةً هو القديس بوليكربوس تلميذ القديس يوحنا الحبيب ومعلّم القديس ايريناوس، وعلى هذه الصفة نرى الاناجيل في الجزء الاخير من الجيل الثاني بين يدي الجميع كسِفْر مقدّس وقديم

ولنا ايضاً في الستين سنة الباقية من اوائل الجيل الثاني شاهد مشهور بعلمه وقداسته ممثِّل للكنائس الفلسطينية واليونانية هو

القديس يوستينوس وُلد في نابلس وطاف في الشرق والغرب وطالع مُعظَم كتب الفلاسفة وزار الكنائس الرسولية كلها . فهو يذكر في مؤلفاته أن المسيحيين كانوا يجتمعون كل أحد ويقرأون مذكّرات الرسل اي الاناجيل وقد نقل عن هذه الاناجيل نحواً من ٤٠ آية بالحرف ويقول ان هذه المذكّرات وضعها تلامذة المسيح أعني القديس متى والقديس يوحنا ورفيقاهما أي القديس مرقس والقديس لوقا . فكل من طالع تآليف القديس يوستينوس يتأكد له ان الاناجيل كانت تعرفها الكنيسة سنة ١٤٠ وتقرأها في اجتماعات المسيحيين . وهذا ما يدلّ على ان استعمالها كان قديم العهد وبدأ من ايام الرسل

قد ذكرنا شهادة أعظم الكنائس وأشهر الكتبة قداسةً وعلماً وهم متفقون على ان الاناجيل اربعة تُعزى الى رسولين رأيا بأعينهما وسمعا بآذانهما والى تلميذين نقلا عمَّن سمعا ورأيا . ولا يستطيع احد أن يعزو الضلال والغش الى الشهود الذين استشهدنا بهم لكثرة عددهم، واختلاف بلادهم، وقدم عهدهم، وصدق علومهم، وسموّ فضائلهم

وكما أنَّ الكنيسة تبرهن أن الاناجيل هي تآليف الانجيليين الذين تُعزى اليهم فهي ايضاً اتخذت الوسائط لتوضح أن هذه الاناجيل لا تزال الآن كما كانت بين أيدي الرسل

فقد اهتمَّت الكنيسة بذلك وقام الآباء البولنديست فجمعوا من كتب الآباء القديسين من الجيل الاول والثاني كل ما ورد

من النصوص، فعثروا على الآيات المبعثرة في تآليفهم وضمّوها بعضها الى بعض حسب ترتيب الاناجيل، فكان من مجموعها انجيل كامل . فقد جمعوا ٩٢٥ آية من ترتوليانوس، و٤٦٠ من القديس ايريناوس و٥٦ من القديس يوستينوس و٤٠ من الآباء معاصري الرسل فكان منها الانجيل بكامله ـ حتى لو ضاعت مخطوطات الانجيل لوُجدَت في نصوص الآباء القديسين

فيتضح مما سبق ان براهين الكنيسة فيما يخص صحة الاناجيل وسلامتها من التحريف دامغة وحججها ساطعة

٢ً — اعداء الاناجيل

على ان نور هذه البراهين يزداد لمعاناً اذا اضفنا اليها ما يقوله أعداء الكنيسة عن الانجيل . فلنسأل اليهود هل الانجيل صحيح ؟ ـ لو لم يكن الانجيل صحيحاً ـ كيف كانوا سكتوا على ما لحِق بهم من الإهانة في الانجيل ؟ كيف كانوا سكتوا على ما عُزي من الجبن الى بيلاطس ومن النذالة والرثاء الى هيرودس ومن الخبث الى حنان وقيافا رئيسي الكهنة ؟ كيف كانوا صبروا على ما نُسِب الى الكهنة والكتبة والفريسيين والشعب كله الذي صرخ « دمه علينا وعلى أولادنا ؟ » لو لم تكن الاناجيل صحيحة لكان كل يهودي بيده قلم قد قام وفضح ما يعلمه فيها من التزوير، منتقماً ممن الحق به أعظم الاهانات إذ نسب اليه قتل الإله الرب . لماذا أيها اليهود لا تنتقمون لرؤسائكم وللهيكل

ولشعبكم وللحقيقة؟ أنتم تسكتون وسكوتكم هو أعظم إقرار على أن ما كتبه الانجيليون صحيح . ان سكوتكم لأكبر مديح للانجيليين وأعظم إقرار بصحة الاناجيل

والآن فلنسمع الهراطقة الذين لم يشكّوا في تأريخ الاناجيل . لو كان حدث في الانجيل تحريف او تزوير لما سكت اعداء الكنيسة لمحة نظر بعد ان حرمتهم وفصلتهم من حضنها . وقد كان بودّهم ملاشاتها . واوّلهم يوليانوس الجاحد الامبراطور الروماني الذي عزم وحاول ان يدكّ اركان الكنيسة الّا انه اقر بفشله قبل موته بقوله للسيد المسيح غلبتني يا جليليّ . ومثله شلسس الفيلسوف الوثني الشهير الذي اصلى الكنيسة حرباً عواناً لكنه تسلّح باقوال الانجيل ولم يُنكر حقيقة تأريخه . وامثال هؤلاء كثيرون ماتوا وبادت تآليفهم معهم والانجيل باقٍ

وبعد الهراطقة فلنسمع الكتبة الوثنيين ولنسمع المؤرخ تاسيت الذي وُلد سنة ٥٥ وعاش الى سنة ١٢٠، وليسمع ايضاً الذين يقولون « ما صُلب ولكن شُبِّه بهِ »، فهذا تاسيت يقول « ان المسيح حُكم عليه بالعذاب على عهد طيباريوس إذ كان بيلاطوس البنطي والياً على اليهودية » . ولنسمع المؤرخ لمبريد يقول « ان اسكندر ساويروس الامبراطور الروماني كان يعبد عبادةً شخصية ومنفردة المصلوب الالهي الذي شاء ادريانوس ان يضعه في مصافّ الآلهة » . ألا افتحوا سجلّات الامبراطورية الرومانية تجدوا تقرير بيلاطس البنطي على حياة المسيح وعجائبه،

وقد كان يوستينوس وترتوليانوس لا يخشيان من ان يُلفتا الانظار الى هذا التقرير الذي هو اعظم حجة عن آلام المسيح . فرومة والعالم الوثني اذن عرفا الاناجيل

والان بعد ان سمعنا الهراطقة والكتبة الوثنيين فلنسمع علماء عصرنا وأعداء الدين في أيامنا، فقد حملوا على الاناجيل حملات عنيفة واستخدموا كلّ ما لديهم من مال وقوة ليدكّوا ار كان الدين المسيحي من اساسه برفض الاناجيل واثبات تزويرها وقد دارت ابحاث الكثيرين من علماء عصرنا على حقيقة تاريخ الاناجيل فكانوا كمن اراد سدّ رأس النبع فزاده انفجاراً او كمن حاول اطفاء شعلة فزادها اتقاداً . فكانت نتيجة ابحاثهم اكتشافات هامّة فاصلة وضعت حدًّا لكل جدال، حتى أقر اعداء الدّين أنفسهم ومنهم رنان الكافر أن الاناجيل هي حقاً من تأليف الانجيليين وان ليس فيها تزوير ولا تحريف

وقد بحث هؤلاء العلماء بحثاً يدل على ثبات وصبر عجيبين فقابلوا بين أربعة آلاف نسخة خطيَّة فجاءت نتيجة ابحاثهم أجلى شاهد وأمتن برهان على براءة الاناجيل المقدّسة من كلّ تزوير وتحريف . ولم يجدوا اختلافاً جوهرياً في هذه النسخ كلها وكانت نتيجة أبحاثهم اكتشافات هامة . تذكرها الكنيسة لهم بالثناء لأنهم خدموها؛ وإن عن غير قصد، خدمة جليلة

واول اكتشاف باهر بدّد ما كان مخيّماً من الظلام بين سنة ١٠٠ و١٥٠ مجموعتان للاناجيل معروفتان بالكونكوردانس

(Concordance) وهو تأليف تُسبَك فيه الاناجيل الاربعة في تأليف واحد لكي تكون التراجم الاربع ترجمة واحدة . وهاتان المجموعتان ترتقيان الى ما قبل سنة ١٧٠ ـ الاولى تأليف ثاوفيلوس مطران انطاكية في سوريا، والثانية تأليف طاسيانوس تلميذ القديس يوستينوس الفيلسوف، وهي المسماة « ذياتيسارون » Διατεσσάρων أي الانجيل المؤلف من أربعة . وقد نالت هاتان المجموعتان شهرة واسعة وذلك دليل واضح على انه لم يكن في ذاك الحين الّا اربعة اناجيل يرجع اليها الجميع، وكل الكتب المحرّمة والمزوّرة لم تدخل في عداد الاربعة

والاكتشاف الثاني الذي يشبهه أهمية هو قائمة الكتب اليونانية التي كانت تعتمدها الكنيسة في الجيل الثاني وهو مخطوط عثَر عليه العالِم ميراتوري فلم يرَ فيه الّا كتابة من الجيل السابع مشوّهة بالاغلاط ولكن لما وقع المخطوط تحت نظر علماء كالدكتور هرتز وكردنر وپوزن ظهرتْ أهمية الكتاب فرأوا تحت الكتابة اللاتينية خطًّا باللغة اليونانية من اقدم عهد وكان عنوان الكتاب قائمة الكتب القانونية التي كانت تعتمدها الكنيسة في الجيل الثاني . فكانت الاناجيل في المحل اللائق بها، فليس برهان أسطع من هذا البرهان الدالّ على ان الكنيسة كانت تفرز في الاجيال الاولى الكتب القانونية من غيرها ولا تعتقد الا باناجيل اربعة هي المذكورة حسبما نعرفها الآن

والاكتشاف الثالث في هذا المعنى مخطوط بالترجمة السريانية المعروفة بالبسيطة المصححة والمنقّحة في الجيل الرابع وهي ترتقي الى اقدم عهد فكل العلماء مجمعون راياً على أن هذه الترجمة من اوائل الجيل الثاني وربما كانت من اواخر الجيل الاول

ورابع اكتشاف لا يقلّ أهمية عمَّا تقدَم هو الانجيل السيناوي فقد عثَر عليه تشاندورف بعد أسفار طويلة في طور سَيناء . وصوّر صفحاته في اربعمائة صفحة فكان أقدم مخطوط فيما يخص الاناجيل وهو نسخة من الجيل الرابع منقولة عن نسخة اقدم عهداً وتطابق الترجمة السريانيـة والطليانية والاناجيل الموجودة بين ايدينا في وقتنا الحاضر

فالنور ساطع في صحة الاناجيل وسلامتها من التحريف، بارز من شهادة اصحاب الكنيسة واعدائها، ولم يبقَ اذن الّا أن نسأل اصحاب الانجيل أي الانجيليين هل هم صادقون فيما كتبوا

٣ً — اصحاب الاناجيل

كان الانجيليون مطّلعين عـلى ما كتبوه فالقديس متى والقديس يوحنا كانا من رسل المسيح . والقديس مرقس كان تلميذاً للقديس بطرس، والقديس لوقا كان تلميذ القديس بولس . وما نعرفه من صفات الرسل عموماً والانجيليين خاصّةً ينزّههم عن الغش والخداع فانهم قوم فقراء وبسطاء . وُلدوا وعاشوا في قرى الجليل

وما ذكروه قد رأوه بأعينهم وسمعوه بآذانهم . وما كان ليدور في خلَد اثني عشر فلاحاً بسيطين أميين ان يُقدموا على خدع العالَم بأسره . ولو حاولوا ذلك لما قدروا عليه . فليسوا هم من العلماء ولا من الاغنياء ولا من اصحاب السطوة

وهل حمَلتهم رغبتهم في الشهرة على خداع العالَم ؟ — اننا نراهم في الانجيل يعترفون بخمولهم وحقارة منشإهم ومهنتهم . ويقرّون بخشونة طباعهم، وقساوة قلوبهم، وضعف ايمانهم، وتوبيخ المسيح لهم، فمتّى يُنبئنا عن نفسه بأنه كان عشاراً وكلٌّ يعلم بغض اليهود للعشارين . ومرقس تلميذ بطرس يذكر قصة جحود معلمه ربه بتفاصيلها . ولوقا تلميذ بولس يخبر في سفر الاعمال عن تعصُّب بولس الاعمى وسفكه الدماء الزكية . ويوحنا لا يكاد يذكر اسمه في صفحات الانجيل كلها

هل كانوا منتظرين غنى ورفعةً وهم لم يملكوا ثروة ولا مالاً وقد ماتوا كلهم مدافعين عن ايمانهم — ليست هذه إلّا بيّنات صادقة على سلامة طويّتهم وامانة شهادتهم

لم يغشّونا لانهم ماتوا لكي يبرهنوا صدق مقالهم . فالقديس يوحنا وُضع في مِرجَل ماء يغلي . والقديس مرقس استُشهد في مصر . والقديس متى مات شهيداً في الحبشة . ولوقا مات في بيثينيا . ولقد اصاب الكاتب الافرنسي الشهير باسكال اذ قال « اني اصدّق الشهود الذين يهرقون دمهم لاجل شهادتهم »

فالانجيليون صادقون، والاناجيل صحيحة سالمة، وشهادتها لا يشوبها ضلال، وعليه فاننا نقدر ان نطالعها ونستشهد باقوالها بكل ثقة . فاحترموا هذا الانجيل الموضوع دائماً في الكنيسة على المائدة المقدسة امام الصليب وبالقرب من القربان الطاهر واستوعبوا حقائقه ومارسوا واجباته فتجدوا الطريق والحق والحياة

الانجيليون الثلاثة الاولون

متى ومرقس ولوقا

أبنّا في المحاضرة الاولى صحة الاناجيل وسلامتها من التحريف ولا شك انكم تسألونني لماذا لنا أربعة اناجيل؟ وبمَ يمتاز كلٌّ انجيلي عن غيره ؟ فتلبية لطلبكم نقول كلمة عن الانجيليين الذين هم القديس متى الرسول، والقديس مرقس تلميذ القديس بطرس، والقديس لوقا تلميذ القديس بولس، والقديس الرسول يوحنا الحبيب . ثم نتكلّم عن غاية الانجيليين وعما يمتاز بعضهم عن بعض ونكتفي في هذه المرّة بذكر الانجيليين الثلاثة الاولين

ان السيد المسيح قبل صعوده الى السماء لم يقل لتلاميذه اكتبوا الانجيل وانشروه في العالم . بل سلَّم اليهم سلطته وقال لهم : « اذهبوا وبشروا كل الامم وعلموهم جميع ما اوصيتكم به » . ومن ثم لم يروا داعياً لان يكتبوا كل ما عرفوا عن ترجمة يسوع بل اكتفوا بما رأوا فيه منفعةً للمؤمنين وما دَعت اليه الضرورة . والقديس يوحنا يقول : « وأشياء أُخر كثيرة صنعها يسوع لو أنها كُتبت واحدةً فواحدة لمَا ظننتُ أن العالم نفسه

يسع الصُحف المكتوبة عنه» . فالقديس متى كتب انجيله لليهود، والقديس مرقس للرومان، والقديس لوقا لليونان. وكلّ منهم ذكر من ترجمة السيد المسيح ما فيه منفعة من كُتب لهم

١ً — انجيل القديس متى

القديس متى المدعوّ لاوي كتب انجيله في السنة الثامنة بعد صعود الرب أي قبل سنة الستين، وقبل خراب اورشليم وتفرّق اليهود. فالقارئ يشعُر عند قراءة القديس متى أن كلّ شيء في أورشليم كان لا يزال على خاله : الهيكل والمذبح والمدينة حتى حقل الفخار المسمّى حقل الدم . فكل ما كتبه يدلّ على قُرب وقوع ما جرى

وكتب القديس متى انجيله باللغة الآرامية وهي لغة سريانية كلدانية كانت تُفهم في ذاك الوقت وبطُل استعمالها بعد خراب اورشليم . لذلك يقول الكاهن بياس في الجيل الثاني « ان القديس متى كتب باللغة الآرامية مجموع الاقوال الالهية وكلّ واحد كان يترجمها على قدر استطاعته وقد احتاجوا الى ترجمتها بعد خراب اورشليم» . ويظن العلماء ان احدى الترجمات التي امتازت على غيرها كتبت بمراقبة القديس متى

وكانت الغاية من كتابة القديس متى انجيله هداية اليهود . لذلك نراه يقتصر على ذكر البراهين التي هي حجج دامغة لهم آخذاً على عُهدته ان يبرهن أن العهد الجديد ما هو الّا كمال

العهد القديم . وان الانجيل ما هو إلّا اتمام النبؤات التي يعتقد اليهود بها، وهي براهين قاطعة لكل يهودي يعرف أن له ستة عشر نبياً كلهم تكلموا عن الماسيّا المنتظَر في اوقات مختلفة وبلاد مختلفة . لذلك ترك القديس متى تفاصيل كثيرة ذكرها غيره، ولم تكن داخلة في نطاق غايته . ولهذا السبب عينه لم يهتم بترتيب الحوادث في اوقاتها بل جعل جُل اهتمامه التوفيق بين اقوال الانبياء وحياة يسوع

فانجيل القديس متى يُبرهن أن يسوع هو ابن داود ابن ابرهيم، وانه هو الماسيّا المنتظَر والنبي العظيم الذي هو اعظم من موسى الآتي لا ليحلّ الناموس بل ليتممه . ولكي يُبرهن لهم كيف تمم اقوال الانبياء أبان ان حياة المسيح كلها كانت اتمام ما كُتب عنه . فعرف انه تمم قول اشعيا اذ وُلد من عذراء، (اشعيا ٧:١٤) وقول ميخا (٥:١-٣) إذ وُلد في بيت لحم، وقول هوشع (١١:١) «من مصر دعوت ابني» . والنبي اشعيا ذكر البلاد التي يسكنها : «ارض زبولون وارض نفتالي طريق البحر عبر الاردن جليل الامم» (اشعيا ٩:١) . صنع الآيات طبقاً لقول النبي اشعيا : «ما احسن كلّ شيء صنع . جعل الصم يسمعون والعرج يمشون والبرص يطهَّرون والموتى يقومون» (متى ١١:٥)

يبرهن القديس متى أن يسوع إله مستنداً الى الحجج اليهودية اذ يقول «انهُ اعظم من السبت» وان داود يدعوه ربّي «قال

الرب لربي اجلس عن يميني حتى اضع أعداءك موطئاً لقدميك » (مز ١١٠:١)

وقد برهن القديس متى أيضاً أنه عانى الآلام لاتمام اقوال الانبياء . دخل الى اورشليم كما قال زكريا « كملك وديع راكب على أتان » (زخريا ٩:٩) . وهتف له الاولاد « اوصنا بالاعالي » كما هتف داود مرنماً . رذله الكهنة لتتمّ الكلمة المكتوبة في ناموسهم « الحجر الذي رذله البناؤون صار رأساً للزاوية » (مز ١١٧:٢٢) . تركه تلاميذه ليتمّ ما كتب « اضرب الراعي تتبدد الخراف » . باعه يهوذا بثلاثين من الفضة وهذا ما رآه ايضاً زخريا (١١:١٢) . اقترعوا على ثوبه كما انبأ به داود (مز ٢١:١٩) . وأخيراً مات، وصراخه الاخير « قد تمّ » (يوحنا ١٩:٣٠) دلالة على إتمام النبوءات . ومع ذكر القديس متى أن المسيح هو المتمم اقوال الانبياء أبان لليهود أهمّ تعاليم السيد المسيح الادبية في خطابه على الجبل، كما ذكر اهم عجائبه ومجموع الامثال التي يفهمها الشعب بسهولة كلية، وقد زاد على ذلك ذكر خطاب السيد المسيح في وصف الدينونة الاخيرة وما سيجري فيها من الحوادث

فهذا الانجيل وحده على صغر حجمه وقلّة صفحاته كافٍ وحده لان يهدي الشعب اليهودي الى الايمان ويجدّد الانسانية ويمدّن العالم

٢ً – انجيل القديس مرقس

بيدَ ان مقاصد الله لم تتمّ كلها بكتابة انجيل القديس متى، لانه كان في الاصل موضوعاً لاجل اليهود . ولذلك فان القديس بطرس لما اخذ يبشر الرومان بالانجيل لم يجد اسلوب متى وافياً بغرضهِ لان ما كان برهاناً قاطعاً لليهود بذكر النبوءات لم يكن ليقنع الرومان الوثنيين الذين لم يكونوا يعرفون الكتاب المقدس . لذلك كان محتاجاً ان يريهم بكلام موجز قوة السيد المسيح بذكر العجائب . رأى القديس مرقس الرومانيين اصحاب القوة والسلطة في ذاك العصر يحتاجون الى براهين دالّة على قوة المسيح ومقدرته وعظمته، فاظهر لهم السيد المسيح المخلص في سيادته وسيطرته على الطبيعة يقول للبحر « اسكت » فيسكت، يشفي المرضى ويُقيم الموتى بملء سلطته . اظهر لهم السيد المسيح الهاً قوياً قد غلب العالم، وسحق الموت تحت قدميهِ، لذلك ابتدأ كلامه بحياة يسوع العلنية ولم يذكر شيئاً من حياته الخفية . وبعد أن وصف قوته وآياته انتهى بذكر قيامته المجيدة من بين الاموات وأسهب في تفاصيلها العجيبة اكثر مما اورده القديس متى . واخيراً ختم انجيله بصعود المسيح الى السماء اي باظهار قدرته غير المتناهية . فهذا الترتيب كان اقوم السبُل لاقناع الرومانيين الاذكياء الاقوياء

وهي نفس الخطّة التي اتخذها القديس بطرس في خطابه الى

كورنيليوس الروماني في أعمال الرسل ففي هـذا الخطاب يذكر كرازة يوحنا الصابغ ويظهر قوّة المسيح وعجائبه وقيامته من الموتى ورجوعه الاخير ليدين الاحياء والاموات. وهذا هو فحوى انجيل القديس مرقس

كان القديس بطرس يلقي هذه الخطب على الرومانيين وكان يصحبه القديس مرقس الذي رافقه منذ صباه فكان يكتب بينما القديس بطرس يعظ. فرغب الرومانيون الى القـديس مرقس ان يجمع لهم عظات معلمه في كتاب يبقى على غابر الدهر فنقل الحوادث حسبما سمعها من القديس بطرس وكتبها باللغة اليونانية لانها كانت اللغة العلمية حتى في ايام الرومان. وذلك في السنة الثانية عشرة بعد صعود الرب وكان بيده نسخة من انجيل القديس متى، وكان القديس بطرس مؤازراً له فيما كتبه، فثبّت انجيله، وأمر بتلاوته في الكنائس

وفي العصور الاولى دُعي انجيل القديس مرقس باسم القديس بطرس. قال ترتوليانس في القرن الثاني: «ان القديس مرقس كان كاتباً للقديس بطرس وقد اثبت القديس بطرس ما كتبه مرقس». وقال ايضاً القديس ايريناوس في القرن الثاني: «ان مرقس تلميذ القديس بطرس وترجمانه أعطانا بالكتابة ما بشّر بهِ القديس بطرس بالقول»

ومن يُنعم النظر في قراءة انجيل القديس مرقس يَرَ فيـه كل التفاصيل التي شهدها القديس بطرس. وحسبنا ان نذكر

من ذلك ما يلي على سبيل المثل : وهو ان القديس متى (٩: ٢٠ـ٢٢) يُروي حادثة نازفة الدم باختصار، لكن القديس مرقس (٥: ٢٥ـ٣٤) يذكر تفاصيل ازدحام الجمع وكلام السيد المسيح « من مسني » وكلام القديس بطرس « ترى الجمع يزحمك وتقول من مسني » . وفي وصف التجلي يذكر القديس متى (١٧: ١ـ٨) كلام القديس بطرس « حسن لنا ان نكون ههنا ... فلنصنع ههنا ثلاث مظال » . لكن القديس مرقس (٩: ١ـ٨) يُضيف عبارة لم يقدر ان يسمعها الّا من القديس بطرس نفسه، وهي : « ولم يكن يدري ما يقول لما كان بهم من الرعب » . وفي وصف نزاع السيد المسيح في بستان الزيتون يقول القديس متى (٢٦: ٤٠) « أهكذا لم تقدروا ان تسهروا معي ساعةً واحدة »، وفي انجيل القديس مرقس (١٤: ٣٧) يذكر كلام الرب بالمفرد « يا سمعان أنت نائم ألم تقدر ان تسهر معي ساعةً واحدة »، مما يدلّ على أن مؤلف انجيل القديس مرقس هو القديس بطرس

والذي لا يجد في القديس مرقس الترتيب التأريخي فليسمع تفسير بيباس ذاكراً اقوال الكاهن يوحنا في القرن الثاني . قال بيباس : « هذا ما قاله الكاهن يوحنا : ان مرقس بعد أن صار ترجمان القديس بطرس كتب ما حفظ في ذاكرته، ولكنه لم يحفظ ترتيب الحوادث لانه لم يكن سمع السيد المسيح . فهو قد اتّبع القديس بطرس الذي كان يُلقي تعاليم المسيح تبعاً للظروف . وليس كمن يقصد وضع اقوال السيد المسيح بترتيب » . هذه

الشهادة تُفهمنا اسلوب انجيل القديس مرقس فهو أسلوب دفاعيّ . والذي يُدافع عن الايمان لا يُطيع الّا ناموساً واحداً وهو حاجة السامعين

فمن عرف أن انجيل القديس مرقس هو صدى مواعظ القديس بطرس وأنه كتب للرومان في رومة، يفهم تماماً خطته ولا يعود يتعجب من الزيادة والنقصان . فكل التفاصيل التي ذكرها القديس متى لم تكن لتهمّ الرومان، فكل ما بعُد عنه فهمهم حُذف . فحُذف مثلاً نسب المسيح وخطابه على الجبل لان اكثره موجّه الى اليهود ومطابقٌ لعوائدهم وشرائعهم الّا انه ذكر من هذا الخطاب ما يوافق الرومان وحذف جزءًا من الامثال التي لم يكونوا يفهمونها لاختلاف العوائد

وما اضافه القديس مرقس الى انجيل القديس متى هو نحو اثنتي عشرة اضافة ذكر فيها بعض العجائب الدالّة على مقدرة المسيح، كشفاء معترى من الشيطان في كفرناحوم، (١:٢٣-٢٧) وشفاء اخرس اطرش، (٧:٣٢-٣٥) وشفاء اعمى بيت صيدا، (٨:٢٢-٢٦) . مما يدلّ ايضاً على حالة الرومان الوثنيين الذين كانوا قد بدأوا يسمعون الحقيقة ويرون النور . وذكر في هذه الاضافات ايضاً ظهور السيد المسيح لمريم المجدلية (١٦:٩ و١٠) ولتلميذي عماوس، (١٦:١٢و١٣) . وأهم اضافة هي صعود السيد المسيح الى السماء (١٦:١٩) مما يظهر قدرته الالهية ويُرغم الرومان الاقوياء على الايمان به

واما انشاء انجيل القديس مرقس فهو حائز على ما يرغب فيه الرومان من الصفات، فقد جمع بين الايجاز والقوة وشدة التأثير مع سذاجة الاسلوب

٣ً — انجيل القديس لوقا

رأينا ان القديس متى كتب لليهود، وكانت الغاية من كتابته اقناعهم بأن المسيح هو الماسيّا المنتظَر، والقديس مرقس كتب للرومان وكانت غايته إظهار قدرته بالعجائب ليحملهم على الايمان به. بقي جزء كبير من ترجمة السيد المسيح وهو حياته الخفية، ولم يذكرها احد، وبقي ان نعرف شيئاً من اقوال مريم العذراء واعمالها وان نعرف سياق الحوادث وترتيبها كما جرت، وهو ما لم نكن قد حصلنا عليه بعد. فاتحفنا به القديس لوقا

فالقديس لوقا مؤرخ حقيقي، ربما لم يرَ شخص السيد المسيح، ولكنه عرف تمام المعرفة والدته العذراء والقديس بولس، لانه كان تلميذه وعرف باقي الرسل الذين عاشوا في عهده، وهم القديس بطرس ويعقوب ويوحنا وفيلبس. وقد جال مع معلمه في كنائس اورشليم ورومة وآسيا الصغرى واطّلع على كل شيء وكان طبيباً وشاعراً ومصوّراً. وقد كتب انجيله باللغة اليونانية بعد صعود السيد المسيح بنحو اربع وعشرين سنة وذلك قبل خراب اورشليم وتشتت اليهود

وكان بين يديه انجيل القديس متى ومرقس؛ الا انه زاد على

ما ذُكر ترتيب الحوادث من اولها ووصف حياة السيد المسيح الخفية وبعض اعمال أُمّه العذراء، وكانت كتابته خاصة للذين آمنوا عن يد القديس بولس ولهداية الباقين الى الايمان . فابتدأ تأريخه كما كان يبتدئ المؤرخون القدماء ... « بعد ان ادركت جميع الاشياء من الاول بتدقيق، رأيت ان اكتبها لك بحسب ترتيبها، ايها العزيز تاوفيلس لتعرف صحة الكلام الذي وعظت به » (١:٣و٤) . فزاد انجيل القديس متى ومرقس ايضاحاً، وعرّفنا مجيء القديس يوحنا المعمدان في السنة الخامسة عشرة من عهد طيباريوس قيصر . وذكر بايضاح أسفار السيد المسيح الى اورشليم، وهو ايضاً اكثر اسهاباً في وصف آلام الرب . ثم كشف لنا القناع عن طفولية السيد المسيح واظهر لنا كنوزاً مدفونة، فوصف وصفاً شائقاً مولد القديس يوحنا المعمدان (١:٥ـ ٢٥و٥٧ ـ ٨٠) ومزود بيت لحم (٢:١ـ ٧)، وترنيمة الملائكة العذبة « المجد لله في العلاء » (٢:١٣و١٤) وحضور الرعاة (٢:٨ـ ١٨)، وتقدمة يسوع للهيكل، ووداع سمعان الشيخ الذي كان يمثّل انتظار الشعب الاسرائيليّ للماسيّا، فهو لا يودّ ان يستأثر به الله قبل أن يرى نور العالم، ثم تسبيحة هذا الشيخ « الآن اطلق عبدك ايها السيد حسب قولك بسلام » (٢:٢٢ـ ٣٩) . وبفضل هذا الانجيلي قد حصلنا على تسبيحة العذراء : « تعظم نفسي للرب وتبتهج روحي بالله مخلصي » (١:٤٦ ـ ٥٥) . وقد وصف لنا البشارة وزيارة مريم العذراء لنسيبتها اليصابات (١:٣٩ـ٥٦) . فمن لا يشعر عند تلاوة

هذه التسابيح وهذه الاوصاف باطلاع القديس لوقا على أسرار والدة الاله . والتقليد يعلمنا ان القديس لوقا صوَّر مريم العذراء، فان كانت هذه الصورة قد ضاعت فقد بقيت لنا منها هذه الملامح العجيبة المرسومة في الانجيل، وهي تظهر طهارة مريم العذراء وتواضعها ومحبتها اظهاراً يفوق كلّ وصف

وقد قلنا ان القديس لوقا كتب انجيله لليونان ليعجّل اهتداءهم الى الايمان ولذلك يصف السيد المسيح وصفاً يستميل اليه قلوب الوثنيين ويظهر حبه للأمم والخطأة

فلا يقول كالقديس متى : ان المسيح ابن داود ابن ابراهيم، بل يقول : ابن آدم . ومن ثم قوله ان المسيح لم يأتِ ليخلِّص اسرائيل فقط، بل ليخلص الجميع، ليخلص الوثنيين والخطأة والسامريين والفقراء : «روح الرب عليَّ لأبشِّر المساكين بالروح وأشفي منكسري القلوب وأنادي للمأسورين بالتخلية وللمظلومين بالخلاص» (٤ : ١٨ و١٩) . ومن ذلك كلام السيد المسيح لابني زبدى : «ان ابن البشر لم يأتِ ليهلك نفوس الناس بل ليخلصها» (٩ : ٥٦) . ومن ذلك مثلُ السامري حيث لا يشفق اللاوي والكاهن على المجروح بل يشفق السامري عليه (١٠ : ٣٠ — ٣٧) . وبهذا المعنى ذكر القديس لوقا مثل الخروف الضائع (١٥ : ٤ — ٧) والدرهم المفقود (١٥ : ٨ — ١٠) والابن الشاطر (١٥ : ١١ — ٣٢) ومثل الفريسي والعشار (١٨ : ٩ — ١٤) . ولاجل هذه الغاية ايضاً ذكر اهتداء الخاطئة التي كانت تقبّل قدمي يسوع وتمسحهما

بشعر رأسها، وذكر حكاية زكا العشّار الذي قبلَ يسوع في بيته . فتذمّر اليهود، لكن يسوع أجاب : « ان ابن البشر انما اتى ليطلب وليخلص ما قد هلك » (١٩ : ٢ — ١٠) . وبالمعنى نفسه ذكر كلام يسوع للمصلوب على يمينه : « اليوم تكون معي في الفردوس » (٢٣ : ٤٣) . كل ذلك تفاصيل خاصة للقديس لوقا . وهي تدل على حب يسوع ورحمته للفقراء وشفقته على العشارين والخطاة والوثنيين، ممّا يحمل اليونان على الايمان به ـ فانجيل القديس لوقا انجيل الرحمة والفداء البشري . وغايته ان يظهر كنوز الرحمة والشفقة ولذة التوبة الى الله، وأن يوضح مثل معلمه القديس بولس ان المسيح صار شبيهاً بنا في كل شيء ما عدا الخطيئة

وقد تفرّد القديس لوقا بذكر نبوءة يسوع عن خراب اورشليم (ف ٢١) وبذكر بكاء يسوع على اورشليم (١٩ : ٤١) وله تفاصيل هامة عن وعد السيد المسيح لبطرس بالعصمة من الضلال (٢٢ : ٣١ و٣٢) وله أوصاف جميلة في ذكر مريم المجدلية امام قدمي يسوع، تبلّهما بدموعها وتمسحهما بشعر رأسها (٧ : ٣٧ — ٥٥) ثم في وصف تلميذي عماوس راجعين بعد موت السيد المسيح الى بلدهما حزينين كئيبين، وفي وصف ظهور السيد المسيح لهما بعد قيامته (٢٤ : ١٣ — ٣٣) . انّ الكاتب الافرنسي الشهير شاتوبريان، بعد قراءته انجيل القديس لوقا يصف الهيكل عابقاً بالبخور والملاك ظاهراً للقديس زكريّا وبعد قراءة وصف

مغارة بيت لحم، هتف قائلًا : « لا نجد بين نوابغ رومة واليونان والعهد القديم ما يشبه هذه الاوصاف سذاجةً ورونقاً، فهو كاتب نابغة قدير تنمّ تآليفه عن نبوغه في الكتابة والشعر »

مما سبق يظهر ان الله بعث الى الشعوب اليونانيـة القديس لوقا والى الشعب اليهودي القـديس متى، والى الشعب الروماني القديس مرقس . فامتاز القديس متى بغزارة مادته في الامثال الشرقية والنبوءات للشعب الاسرائيلي، والقديس مرقس بإيجازه وبلاغته الرومانية، والقديس لوقا بدقة أسلوبه اليوناني الرائع . فالمجد للروح القدس الذي استخدم صفاتهم لما فيـه خير الكنيسة ودرأ عنهم كل ضلال، وألهمهم ما فيه خير النفوس ومنفعتها . وطوبى لنا اذا سمعنا كلام الله وحفظناه

انجيل القديس يوحنا
اتفاق الاناجيل وجمالها

رأينا ان القديس متى كتب لليهود باللغة الآرامية نحو السنة الثامنة بعد صعود الرب، والقديس مرقس كتب مواعظ القديس بطرس للرومان باللغة اليونانية، وذلك من بعد صعود المسيح بنحو اثنتي عشرة سنة، والقديس لوقا، تلميذ القديس بولس، كتب لليونان باللغة اليونانية بعد الصعود بنحو اربع وعشرين سنة. والآن نبحث عن انجيل القديس يوحنا وعن اتفاق الاناجيل وجمالها

١ً — انجيل القديس يوحنا

لقد انبثّ الرسل في اقطار العالم، يبشرون بالانجيل وختموا شهادتهم بدمهم، وانتشرت الديانة المسيحية في العالم منذ القرن الاول. فأقبل المسيحيون على درس حياة المسيح ولكن البعض منهم اخذوا يحيدون عن محجة الصواب في فهم شخص السيد المسيح. فمنهم من لم ينظروا اليه الّا من وجهة ألوهيته، لم يرَوه

إلّا صانعاً العجائب، مطهّراً البُرص، مخرجاً الشياطين، مقيماً الموتى، قائماً من بين الاموات، وصاعداً الى السماء . فوهموا وقالوا ان السيد المسيح ليس إلّا الهاً، وليس فيه من الانسانية إلا ظواهرها وغيرهم لم يرَوا في شخص السيد المسيح الا الطبيعة البشرية، فتأملوا فيه مولوداً ونامياً في السنّ ومتألماً ومائتاً وصائرًا شبيهاً بالناس في كلّ شيء ما عدا الخطيئة . فوهموا ايضاً وقالوا ان يسوع هو انسان فقط، وليس فيه من الألوهية الّا ظواهرها

ها قد وصلنا الى اواخر الجيل الاول وكان الايمان بسبب تلك الاوهام والاضاليل قد شابه الضعف في نفوس فريق من المؤمنين حتى ثارت عاصفة هائلة كادت تزعزع ار كان المعتقد وتبلبل سلامة الضمائر بانتشار البدع . وكان الرسل قد استُشهدوا ما عدا القديس يوحنا الحبيب الذي قد بلغ من العمر آنئذٍ نحو مئة سنة، بعد ما كتب رؤياه ورسائله ونُفي الى جزيرة بطمس فتطالّت اليه اعناق المسيحيين ورجوا منه احقاق الحقّ وازهاق الباطل . فاجتمع أساقفة آسيا وقرّروا ان يذهب وفدٌ من قِبَل جميع الكنائس الى الرسول وتوسلوا اليه ان يكتب ما يعرفه عن ألوهية يسوع المسيح

ففرض الرسول اصواماً وصلواتٍ ورأى في ذلك ارادة الله فرسم بيدٍ يديرها الروح القدس صورة السيد المسيح . وكأني به كان مصوّرًا أكثر منه كاتباً، وهو شاخص الى السيد المسيح يرسم ملامحه دون أن يحيد عنه يمنةً ولا يسرةً، فرسم تلك

الكمالات الالهية التي لا يتأتى ليد بشرية تمثيلها ان لم يُدرها الروح القدس، ورسم تلك الصفات العجيبة التي هي فوق ما تتصوره مدارك البشر . فكان انجيله مع رؤياه خاتمة ما اوحى به الله الى البشر

ولا حاجة الى ان اشرح لكم ان القديس يوحنا كان أجدر مَن يُندَب ليرسم صورة معلمه الالهي لانه كان اقرب التلاميذ الى قلبه

فهو المميَّز على غيره مع القديس بطرس ويعقوب بحضور تجلي الرب على طور ثابور . هو المختار مع هذين الرسولين لمرافقة يسوع في مدة نزاعه في بستان الجتسمانية . هو الشاب العفيف المستحقّ ان يتكئ في العشاء السرّي على صدر يسوع لطهارته هو الذي دفعته محبته الى ان يخاطر بنفسه باتّباع يسوع وقت محاكمته امام رؤساء الشعب . هو الذي بقي واقفاً مع مريم العذراء أمام الصليب . هو الذي سلَّم اليهِ السيد له المجد أعز ما لديه على الارض أي أمّه بقوله له من على الصليب : « هذه امك » . هو الذي نال الشرف من بين كل التلاميذ أن كان مع القديس بطرس اول من رأى السيد له المجد بعد قيامته المجيدة اول رؤية . هو الذي عرف السيد المسيح في ظهوره مرة ثانية على بُحيرة طبرية فميّزه قبل غيره وقال: « هو الرب » . هو الذي شاع عنه بين الرسل أنه لا يموت لكون المسيح قال عنه هذه الكلمات السرّية : « إن شئت أن يثبت هذا الى أن اجيء فماذا لك » .

هو الذي كان كلامه يقطر عسلاً ويردّد دائماً في شيخوخته عِبارة الرب : « يا أولادي أحبوا بعضكم بعضاً » . فالقديس يوحنا هذا هو المختار ليكمّل رسم صورة السيد المسيح

ولقد حقّق اماني الكنيسة فكتب واجاد . وصف الوهية السيد المسيح بنوع يُزيل كلّ ريب، ووصف بشريته بما ينفي كلّ شك . وبرهن أنه إله وانسان معاً

قد شبّه آباء الكنيسة الرسل الانجيليين برموز مختلفة، وردت في نبوءة حزقيال عن الحيوانات الاربعة : فشبّهوا القديس متى بالانسان لانه يبتدئ انجيله بذكر نسب المسيح البشريّ . وشبّهوا القديس مرقس بالاسد لانه يبتدئ انجيله بتلك العبارة التي هي كزئير الاسد « صوت صارخ في البرّية أعدوا طرق الرب واجعلوا سبله مستقيمة . » وشبّهوا القديس لوقا بالعجل لانه يصف حياة الاسرة المقدسة الداخلية ومذود بيت لحم . واما القديس يوحنا فلقّبوه بالنسر لانه من اول انجيله يحلّق كالنسر في وصف ألوهية السيد المسيح . فقد فاه بتلك العبارات السامية التي لا يقدر انسان ان ينطق بها الّا بوحي من الله : « في البدء كان الكلمة والكلمة كان عند الله . وكان الكلمة الله . هذا كان في البدء عند الله . كلٌّ بهِ كُوّن وبغيره لم يُكوَّن شيء مما كوّن — فيه كانت الحياة والحياة كانت نور الناس . والنور يُضيء في الظلمة، والظلمة لم تُدركه ... كان النور الحقيقيّ الذي يُنير كل انسان آتٍ الى العالم، كان في العالم، والعالم بهِ كُوّن والعالم

لم يعرفه . أتى الى خاصّته وخاصته لم تقبله ... والكلمة صار جسداً وحلّ فينا » (١:١-١٤) . انه لكلام سماوي وهذه العبارة الاخيرة تلخّص سر التجسد، سر اتحاد الاقنوم الالهي بالطبيعة البشرية

فترون من هذه البداية كيف يعلّل القديس يوحنا الوهيـة السيد المسيح، وقد عزّز هذه الحقيقة بما اورده في سائر انجيله. فمن ذلك ما قاله السيد المسيح لنيقوديمس الذي اتى ليلاً ليزوره: « لم يصعد احد الى السماء الّا الذي نزل من السماء ابن البشر الذي هو في السماء » (٣:١٣) . فما معنى هذه العبارة سوى ان ابن الله كان في السماء ونزل على الارض وهو لم يزل في السماء . ومنه أيضاً في خطاب السيد المسيح بعد شفاء مخلّع بيت حسدا، وكان اليهود يتذمرون لكونه شفى المخلع يوم السبت، فما قاله لهم ما يثبت الوهيته وهو: « كما ان الآب يُقيم الموتى ويحييهم، كذلك الابن يُحيي من يشاء . لان الآب لا يدين احداً بـل أعطى الحكم كله للابن ... الحق الحق اقول لكم إنها تأتي ساعة وهي الآن حاضرة يسمع فيها الاموات صوت ابن الله والذين يسمعونه يحيون لانه كما أنّ الآب له الحياة في ذاته كذلك أعطى الابن ان تكون له الحياة في ذاته » (٥:٢١-٢٦) . وقال لهم في محلّ اخر: « لو كان الله اباكم لكنتم تحبوني لاني خرجت من الله وأتيت ولم آتِ من نفسي بـل هو أرسلني ... ابرهيم ابوكم اشتهى ان يرى يومي فرأى وفرح . فقالوا له انه لم يبلغ

لك من العمر خمسون سنة وقد رأيت ابرهيم . فقال لهم الحق اقول لكم قبل ان يكون ابرهيم انا كائن» (٨:٤٢-٥٨) . بعد ان طرد اليهود الاعمى الذي شفاه يسوع، رآه يسوع فقال له : «أتؤمن انت بابن الله ؟ فاجاب وقال : ومن هو يا سيدي لأومن به – قال له يسوع : قد رأيته وهو الذي يكلمك – قال له : قد آمنت يا رب وسجد له» (٩:١-٣٨) . ولما طلب اليهود على يسوع حجة ليحكموا عليه أَلجأوه أن يصارحهم بما يعتقد في نفسه وهل يقول انه إله . فقالوا له : «حتى متى تريب انفسنا . ان كنت انت المسيح فقل لنا علانية . فقال لهم : قد قُلت لكم ولم تؤمنوا، والاعمال التي انا أعمل باسم ابي هي تشهد لي ... انا والاب واحد . فتناولوا حجارة ليرجموه» (١٠:٢٤-٣١)

ولما أقام لعازر من بين الاموات خاطب اباه الازلي بما يُشعر ان سلطة ابيه بين يديه : «يا أبتِ اشكرك لانك سمعت لي، وقد علمت أنك تسمع لي في كلّ حين . لكن قلت هذا لاجل الجمع الواقف حولي ليؤمنوا انك انت ارسلتني . ولما قال هذا صرخ بصوت عظيم يا لعازر هلمَّ خارجاً» (١١:١-٤٥)

بهذا الكلام وأمثاله قال عن نفسه انه اله : – انا النور – قد اتيت الى العالم حتى ان كل من يؤمن بي لا يمكث في الظلام (١٢:٤٦) – انا الطريق . انا الحق . انا الحياة (١٤:٦) . من هذه الاقوال التي ذكرها القديس يوحنا تتجلى لكم غايته من انجيله . وقد قال في آخره : «وآيات اخرى كثيرة صنع

يسوع امام التلاميذ لم تكتب في هذا الكتاب . وانما كُتبت هذه لتؤمنوا بأنّ يسوع هو المسيح ابن الله ولكي تكون لكم اذا آمنتم الحياة باسمه » (٢٠ : ٣٠ و ٣١)

ان القديس يوحنا الذي استوفى الايضاحات الضافية على ان يسوع اله، لم يكن باقل صراحة في وصف بشريته . وهو لم يكتفِ في هذا الوصف بذكر الافعال الدالّة على البشرية كذكر ميلاده، ووصف عيشته بين الناس وآلامه وموته، بل وصف حياته الداخلية وعلاقاته مع اصحابه وبرهن أنه أغرق في الانسانية من غيره لكونه احب اكثر من غيره . لهذا وصف لنا ذاك القلب الرقيق الحنون الذي كلما ازداد الانسان منه قرباً ازداد الى الكمال تقدّماً

ألا اسمعوا بعض الامثال عن حبه ورقة عواطفه . انظروه في جبل الزيتون يبكي على اورشليم الجاحدة الجميل والجاهلة ما فيه خيرها وهو يقول لها : « يا اورشليم يا أورشليم . . . » ألا انظروه يبكي على لعازر وهو في القبر حتى قال اليهود إذ رأوه يدمع : « انظروا كيف كان يحبه » . ألا انظروه جالساً في بيت الفريسي ومريم المجدلية لدى قدميه تبكي وتبلّ رجليه بدموعها وتمسحهما بشعر رأسها، وهو يقول : « ان خطاياها الكثيرة قد غُفرت لها لانها أحبت كثيراً » . تمثّلوا السيد المسيح في العشاء السرّي، ويوحنا الحبيب متكئاً على صدره . تمثّلوا السيد المسيح يغسل أرجل تلاميذه، وصفوا اذا استطعتم عظم الحب والشعور في هذا

القلب . لا بل اقرأوا كلكم هذا الخطاب البديع خطابه الاخير في العشاء السري وما بعده : « لا اسميكم عبيداً بعد لان العبد لا يعلم ما يصنع سيده ولكني سميتكم احبّائي » (١٥:١٥) وهو خطاب ليس وراءه من مزيد في الحنو والرأفة (ف ١٤ و١٥و١٦) بهذه الاعمال والاقوال وامثالها بيّن القديس يوحنا الحبيب بشرية السيد المسيح، كما كان قد بيّن الوهيته

وقد صرّح السيد المسيح ألوهيته خاصّة أمام الطبقة المتعلمة ذات العُجب والزهو . وعُني القديس يوحنا بسرد اقوال وأعمال المسيح المؤيدة لذلك لاسيما في اورشليم عاصمة المملكة الدينية والمدنية. فهو من واحد وعشرين فصلًا يخصص سبعة عشر للكلام على اقامة يسوع في اورشليم . وفضلًا عن ذلك فان للقديس يوحنا مزيّة ترتيب الحوادث في اوقاتها وتعيين الازمنة والسنين والاعياد . ويظهر لمن أنعم النظر في انجيله ان المسيح اثبت لاهوته خاصة في اعياد الفصح، وكشف فيها الستار عن سرّ الافخارستيا الذي خاطب الناس عنه في كفرناحوم قبل الفصح الثالث . وقد تفرّد القديس يوحنا أيضاً بذكر ما فعله السيد المسيح في اول سنة من كرازته كمعجزة عرس قانا (٢:١-١١) ومجيء نيقوديمس اليه ليلًا (٣:١-٢١) . والقديس يوحنا يُظهر الفرق بين كيفية مخاطبة السيد المسيح للشعب ومخاطبته للمدّعين بالعلم منهم : فالشعب البسيط يخاطبه بامثال وتشابيه يذكر فيها زهور الحقل وأغصان الكرمة وبهاء الزنبق . أمّا

العلماء المتكبرون فيحجّهم بالبراهين المأخوذة عن الكتاب المقدس ليخزي كبرياءهم

٢ً — اتفاق الاناجيل وجمالها

بعد أن رأينا ترجمة الانجيليين وغاية كلّ واحد منهم لا يسعنا إلّا أن نذكر اتفاقهم في ما كتبوه وجماله . قد وصف القديس متى السيد المسيح متمماً اقوال الانبياء . واظهر القديس مرقس للرومان قدرته وسلطته على الطبيعة . وبيّن القديس لوقا لليونان حنوّه ورأفته بجميع الناس وخاصّة بالخطأة . ووصف القديس يوحنا لاهوته وبشريته اي انه إله وانسان . فكلّ من الرسل قد خطّ بعض ملامح السيد المسيح، لكنهم كلهم متفقون على رسم تلك الصورة . كتبوا اربعة اناجيل، إلّا انهم لم يكتبوا إلّا انجيلًا واحداً . اختلفوا في العبارة وفي بعض التفاصيل، لكنهم كلهم كتبوا الترجمة نفسها . صوّروا المسيح بهيئات مختلفة، لكنهم صوّروا الشخص نفسه ووصفوا قلب يسوع وشخص يسوع . فاذا قرئ انجيل القديس متى او القديس مرقس او القديس لوقا او القديس يوحنا، فالسامعون كلهم يقولون هوذا المسيح، هذا انجيل المسيح . والذين تعمّدوا تخطئة الاناجيل بانتقادات تافهة، نرى انتقاداتهم لا تتعدى القشور . فهي كذرّات من الغبار تزيلها أخفّ هبّة ريح

بلغت هذه الاناجيل من الجمال الحدّ الذي ليس وراءه متجاوز لِطامِع . وها قد اتى عليها عشرون قرناً، واللاهوتيون والعلماء والمنتقدون والخطباء والشعراء والمصوّرون يصفونها باجمل الاوصاف ويجعلونها موضوع تأملاتهم ودروسهم . فهل زادوها تأنّقاً بانشائهم الجميل ؟ وهل سبروا معانيها كلها ؟ — لا . ان تفاسيرهم كانت كالصدفة إزاء اللؤلؤة . فان بهاء الاناجيل يفوق كلّ رونق، وفيه روحٌ الهي يستحيل أن يكون من صُنْع الانسان . فالاناجيل المحرّفة والتفاسير المعوّجة سقطت وبادت كاوراق الخريف وبقي الانجيل الصحيح

وابهى رونق في الاناجيل هو بساطتها في عظمتها : فهي تصف الامور العظيمة بعبارات بسيطة، فالجمال هو كما قال الفلاسفة بهاء الحقيقة، والحقيقة بسيطة — لقد وصف الانجيليون اعظم الاسرار ولم يلجأوا الى اشكال البديع كالاستحضار والالتفات والتلهف ولا الى الاستعارات والكنايات، بل جعلوا الامور تنطق من تلقاء ذاتها . فعرضوا صورة المسيح للناس وهم توارَوا وراءها . وصفوا سرّ التجسد الذي لا تُدركهُ العقول فقالوا : « الكلمة صار جسداً وحلّ فينا » (يوحنا ١ : ١٤) . وصفوا سرّ مولد ملك الدهور فقالوا : ولما كانا في بيت لحم « تمت أيام ولادتها فولدت ابنها البكر فلفته واضجعته في مذود لانه لم يكن لهما موضع في المنزل » (لوقا ٢ : ٦ و ٧)

وصفوا سرّ الثالوث الاقدس فقالوا : « اعتمد يسوع وفيما

هو يصلي انفتحت السماء ونزل عليه الروح القدس في صورة جسمية مثل حمامة، وكان صوتٌ من السماء قائلًا : أنت ابني الحبيب بك سررت » (لو ٣: ٢١ و٢٢) . ذكروا سر الافخارستيا فقالوا: « اخذ خبزاً وشكر وكسر واعطاهم قائلًا : خذوا فكلوا هذا هو جسدي الذي يُبذل لاجلكم » . وعندما رسم سر الكهنوت قال : « اصنعوا هذا لذكري » (لوقا ٢٢: ١٩ ومتى ٢٦: ٢٦) . ولما أن وصلوا الى موت المسيح قالوا : « نادى يسوع بصوت عظيم قائلًا : يا ابتِ في يديك استودع روحي، ولما قال هذا أسلم الروح » (لوقا ٢٣: ٤٦) . وفي وصف قيامته من بين الاموات يذكرون قول الملاك الظاهر للنساء القديسات : « لماذا تطلبنَ الحي بين الاموات انه ليس ههنا . لكنه قد قام » (لوقا ٢٤: ٥و٦) . وفي وصف صعود الرب الى السماء يكتفون بهذه العبارة : « ثم خرج بهم الى بيت عنيا ورفع يديه وباركهم، وفيما هو يُباركهم انفرد عنهم وصعِد الى السماء » (لوقا ٢٤: ٥٠ و٥١)

وهذا الوصف الجميل البسيط الذي وصفه الرسل جاؤوا به عمَّا رأوه باعينهم ولم يخترعوه ولم يكن بامكانهم ان يخترعوه لان ألد اعداء الدين كجان جاك روسو وستروس وغيرهم يقولون ما معناه : لكي يخترع الانجيليون مثل هذه العظائم ينبغي أن لا يكونوا متى او مرقس او لوقا او يوحنا . لا بل ينبغي أن يكون المخترِع أنبغ من البطل الذي يورد ترجمته

لذلك لا تجدون مفكّرًا ولا رجلًا عظيماً يقرأ الانجيل دون

أن يخرّ أمام فضائل السيد المسيح ساجداً حقاً، ويقول ان هذا الكتاب لمن السماء لا من الارض . وقد يطول بنا الكلام لو عدّدنا اقوال أمثال هؤلاء الرجال . جميلةٌ الكتب التي تحتوي على تراجم القوّاد الشهيرين والرجال العظام المحسنين الى الانسانية، ولكنّ جمالها ليس بشيء يُذكر ازاء الكتاب الذي تتألف منه خلال عباراته سيرة خالق السماء والارض، وقد تجسد وصار كواحدٍ منا، ازاء الانجيل الذي معناه : «البشرى الحسنة» أي بُشرى ميلاد ابن الله، تُطلعنا على أفكار خالقنا وعواطفه وتخبرنا عن صفاته وفضائله . فاذا صحّ المثل : قُلْ لي من تعاشر، أقل لك من أنت، — حق لنا ان نقول : اننا اذا عاشرنا المسيح في الانجيل وتشربنا افكاره وشاركناه في عواطفه رفعنا طبيعتنا الى درجة المسيح، لا بل صرنا على نوعٍ ما آلهة . ولقد احسن القديس اوغسطينوس اذ قال: «هل تُحبّ الارض فانت ارضي . هل تُحب الله فانت، ولا اخشى من القول، إله» . لذلك لا نرى ما نعلّل به تصرُّف اولئك المسيحيين الذين يتهافتون على قراءة الروايات الخيالية ويُعرضون عن الانجيل . ذكر القديس اوغسطينوس عن أحد البرابرة انه سمع وهو في حبس رومانيّ أن في الانجيل كلام الله، ولم يكن يعرف القراءة . فصلّى واجتهد وتعلم القراءة في ثلاثة ايام لكي يقرأ كلام الله . قال الاب راتيسبون الشهير وهو من اصل يهودي وقد اهتدى حديثاً الى الايمان : «لما انتهيت من قراءة كتاب العهد القديم كانت الساعة التاسعة

مساء . ولما فتحت كتاب العهد الجديد لم اسيطر على عقلي وقلبي، حتى لم اقدر ان انام قبل قراءته بجملته

ألا فافتحوا الانجيل واقرأوا فان فيه روحاً وحياة، فان كانت تساوركم اوهام فانها تتبدد كالصقيع عند ظهور الشمس. وان كانت تخالجكم شكوك فهي تزول كالغيوم التي تطاردها الرياح . وان كان قد اعترى قلبكم فساد فهو يطهّر كما يطهر الذهب بالنار . قد عثروا في بعض القبور القديمة في مصر على حبوب قمح ترون بعضها في المتحف المصري وهي منذ ثلاثة آلاف سنة، فزرعوا منها فنمت وأثمرت على ما قيل . فان كانت الحياة الضئيلة بقيت في القمح كل هذه المدة فالحياة الحقيقية باقية في الاناجيل منذ ألفي سنة، وهي لا تزال فيها، فازرعوها في قلوبكم فهي تُثمر فيكم الافكار الصالحة والعواطف الشريفة والفضائل المسيحية . وفيها تجدون الطريق والحق والحياة

استعداد العالم لمجيء المسيح

لمّا بلغ ملء الزمان أرسل الله ابنه مولوداً من امرأة (غلاطية ٤:٤)

ان السيد المسيح هو محوَر التأريخ وقطب رحاه. والممالك التي تعاقبت قبله لم تكن في قصد العناية الالهية الّا للتمهيد لمجيئه؟ لماذا تأخر المخلص في مجيئه الى الارض ولم يأتِ منذ بدء الخليقة. ولماذا انتظر الله بعد ارتكاب الخطيئة الوف السنين ليُرسل ابنه لخلاص العالم؟ أفما كان الأولى برحمته ان يعطي الدواء عند ظهور الداء؟ إن لله أحكاماً لا يُدركها البشر، ولكنه يُعرّفنا بلسان القديس بولس أنه لم يأتِ الّا عند كمال الزمان

وعليه فيمكننا القول انه لو أتى المخلص بعد سقطة آدم وحواء لكان مجيئه في غير وقته. اذ لو أتى على اثر هذه السقطة لظن البشر أن مجيئه على الارض ضربة لازب وأنه مُلزم بفداء البشر، في حين ان الفداء انما هو نعمة مجانية لا يستحقها العالم. لو أتى ابن الله عاجلًا وعلّمنا تعاليمه السامية وأعطانا نعمه، قبل ما خيم على البشرية من الفساد والضلال ما اسقطها الى اسفل دركة، لكنّا توهمنا ان بوسعنا الحصول على هذه التعاليم، ولما ذلّت كبرياؤنا بالشقاء الذي جرّه علينا جهلنا وضعفنا. لم يُرسل

الله ابنه الّا لما حان كمال الزمان . ان الله يعلمنا بذلك وجوب التأني في أمورنا، اذ نراه لا يجري أعماله الخارجية الّا بنظام وتدريج . يُعلّمنا أن الكمال ذُروة ينبغي ان نصعد اليها بثباتٍ ونشاط . فقد خلق العالم في ستة ايام وكان في وسعه أن يخلقه في لحظة واحدة . وهو بدل أن يُطلع علينا شمسه دفعة واحدة كلّ يوم، يجعل الفجر بشيراً بها يمزّق امامها ستر الظلام ويذهّب الأفق، فتنتشر في الفضاء أشعة ضئيلة من الضياء ثم تتجلى شيئاً فشيئاً وترداد بهاءً الى ان ترتفع ملكة النهار بقرصها الذهبي وتُضيء بنورها الوهّاج الآفاق، ناشرة في العالم بهجة النور والحياة . وهكذا يجعل في نَواة البلّوطة كلّ جوهر السنديانة، فتنمو صغيرة وتتأصل جرثومتها وتنفتح براعيمها وتنمو ساقها وترتفع في الفضاء وتطلع اوراقها وتمتدّ اغصانها وتُصبح الدوحة العظيمة التي تهزأ بالعواصف

قد كانت شعوب الارض، ولاسيما بعد الطوفان، شعوباً متفرقة متباينة النزعات، مختلفة اللغات، وليس بينها رابط يربطها ولا طُرق تصل بين أطراف بلدانها . فانتظر الله الزمان الذي فيه تقاربت الشعوب تحت سيطرة مملكة واحدة، وشاع بينهم مع لغاتهم لغة واحدة جامعة، واصبحت المواصلات بكثرتها واتساع نطاقها مسهّلة لنشر تعاليم الانجيل والانتفاع بوسائط الخلاص . فجعل كمال الزمان في تلك الآونة . وصيّر الشعوب والسلاطين يرمون الى هذه الغاية لكي يتمموا مقاصده

فالله هو مهندس الاوقات ومرتب الدهور، وكما ان المهندس يرسم البناء في خريطة ويرتّب نظامه، هكذا رسم الله خريطة تأريخ العالم

ترون هذه الكاتدرائية الفخمة فهل قامت دفعة واحدة ؟ بل كلكم يعلم انه عندما اراد المهندس ابرازها الى حيز الحقيقة امر الدقاقين بنحت الحجارة، فمنها ما هو مستدير ومنها ما هو مستطيل ومنها ما هو مكعّب، ولكن هذه المواد المختلفة كلها كانت ترمي في فكره الى غاية واحدة . فالعامل اعدّ الحجارة وجمعها الا انه لم يكن يعرف محل وضعها ولا كيفية تهيئتها في البناء . اما المنشئ الحقيقي للعمل فهو المهندس الذي بابتكاره للرسوم ثم بادارته وارشاده كان البناؤون يجعلون كل شيء في محله حتى تجسمت فكرة المهندس في هذه القبة الشاهقة وهذه الأبراج العالية وهذه الحنايا الواسعة وكان من مجموعها هذه الكنيسة الفخمة كما سبق المهندس فرسمها في مخيلته

يسبق الله فيرسم كالمهندس الحكيم خطة عمله، ثم يستخدم له كل ما في المخلوقات استخدام المهندس لموادّ البناء على اختلاف طبائعها . يترك للبشر ان ينصرفوا بحريّتهم الى اعمالهم وغاياتهم كأنه غريب عنهم، في حين انه بحكمته وقدرته حاضر قريب يصرّف كل ذلك بحيث يؤدي الى تحقيق مقصده . يترك للملوك ان يحكموا كأنهم ارباب العقد والحلّ في ممالكهم، ويترك الحرية البشرية ان تتجلى باعمال الامم والشعوب على ما تشاء، فتنفجر

براكين المطامع وتجمع الجحافل الجرارة، وتجتاح امّة بلاد امّة فتستعر الملاحم وتشتدّ المجازر وتجري الدماء سيولاً، ويبقى الملوك في عزهم والممالك في سطوتها الى ان تتم الرسم الذي سبقت العناية الالهية فخطته . واذ ذاك تشير تلك اليد القديرة الى الجبابرة والطغاة أن قفوا ... هنا حدّكم وحينئذ يبعث الله أمة صغيرة كانت بالامس خاملة مجهولة ويضع فيها هيبته، فتدكّ اركان تلك الممالك العظيمة حتى تصبح كأن لم تكن بالامس، ولا يبقى ما يدلّ عليها الّا ما تركته من آثار العمران او الخراب. وهذه العناية كنور الشمس تتناول الجميع، فكما ان الشمس تُنير الوهاد العميقة والجبال الشامخة ولا تترك مكاناً صغيراً او كبيراً الّا تنيره، هكذا عين العناية الالهية تسهر على الممالك وتهتمّ بزنابق الحقل وبطيور السماء وباحصاء شعر رأس الانسان

ان ما يهمّ الله قبل كلّ شيء انما هو ابنه الالهي الذي سُرَّت به نفسه، وخلاص البشر الذين أحبهم الى الغاية . فقد جعل هذا الابن مِحوَر التاريخ وقُطب دائرة العالم وحجر عقده، وعليه مدار الازمنة . وبعد ما أمهل العالم ألوف السنين ليستعدّ لمجيء ابنه، جاء هذا الابن المخلص . وها ان العالم منذ ألفي سنة يحيا به ويستنير بنوره . إلا ان الله تعالى قبل مجيء ابنه لم يترك العالم بلا واسطة خلاص، لانه بالايمان بوعد المخلص قد خلصت الشعوب القديمة، كما انه بالايمان بذلك المخلص الفادي الالهي تخلص الشعوب الحديثة

وغايتنا الآن ان نبيّن لكم ان الممالك الكبرى التي تعاقبت قبل مجيء الفادي الالهي كانت في فكر المهندس العظيم داخلة في رسم خريطته الازلية تمهيداً لهذا المجيء السعيد، وقد تمت الخطة التي سبق الله فرسمها . ومن يظن أن هذه الممالك قد ارتفعت وانخفضت ثم توارت عملاً بسُنَّة الاتفاقات والأقدار، لا عن عناية الهية، فليسمع النبي دانيال يقصّ رؤياه في مدة اول مملكة من هذه الممالك في القرن السابع قبل المسيح . يقول هذا النبي انه يرى رياحاً اربعاً ووحوشاً اربعة وتمثالاً مركّباً من اربعة اجزاء هو رمز الممالك الاربع التي تتعاقب . واخيراً تأتي مملكة لا يكون لملكها انقضاء . لا بل فلنسمع كلامه نفسه وتفسيره :

رأيت اربع رياح السماء قد هجمت على البحر الكبير . واربعة حيوانات عظيمة تطلع منه، وهذه الحيوانات قد أكلت بعضها بعضاً وسحقت بعضها بعضاً . وقد أوتيت سلطاناً الى زمان ووقت، ثم أزيل هذا السلطان . واتى ابن البشر «وأوتي سلطاناً ومجداً وملكاً، فجميع الشعوب والامم والالسنة يعبدونه، وسلطانه سلطان أبدي لايزول وملكه لا ينقرض» (دانيال٧: ٢-١٤)

وبهذا المعنى قد فسّر دانيال النبي رؤيا التمثال الذي رآه نبوكدنصَّر في حلمه . وهو تمثال رأسه من ذهب، وصدره وذراعاه من فضة، وبطنه وفخذاه من نحاس، وساقاه من حديد، وقدماه بعضهما من حديد، وبعضهما من خزَف . وقد انقطع

حجر لا باليَدين، فضرب التمثال وسحقه. وأما الحجر الذي ضرب التمثال فصار جبلًا كبيراً، وملأ الارض كلها. وقد قال دانيال لنبوكدنصر مفسرًا هذا الحلم: بعد مَملكتك التي هي من ذهب، تقوم مملكة أصغر منك ممثَّلة بالفضة، ثم مملكة أخرى من نُحاس فتتسلط على كل الارض، ثم مملكة رابعة تكون صلبة كالحديد ... « وفي ايام هؤلاء الملوك يُقيم اله السماء مملكة لا تُنقضُ الى الابد » (دانيال ٢: ٢٩—٤٥)

فالنبوءة واضحة وقد فهمها اليهود ففسَّروها في أوانها للملك قورش مؤسس المملكة الثانية، والملك الاسكندر ذي القرنين مؤسس المملكة الثالثة. فهذه الممالك الأربع هي كما يتضح: مملكة الأشوريين، والفُرس، واليونان، والرومان، سخَّرها الله لتُوّحد الأمم والشعوب وتُوحد اللغة بينهم، وتحقق الوحدة السياسية والمادية، وتسهل طرق المواصلات استعداداً لمجيء الرب ليسهُلَ على رسلهِ أن يجولوا في العالم ويكتبوا انجيله بلُغة واحدةٍ تفهمها شعوب الارض

واول مملكة سعت في توحيد الشعوب هي المملكة الاشورية. فهي تلك المملكة التي كانت تترامى الى نهرَي دجلة والفُرات وخليج العجم الى اواسط اسيا الصغرى وتعتزّ بعاصمتيها بابل الجاثمة على الفرات ونينوى المنبسطة على نهر دجلة. وقد نال ملوكها عزًّا نحواً من ١٥٠٠ سنة. وامتازت بمبانيها الفَخمة التي بقي منها آثار مُدهشة الى الآن وبكتاباتها المسمارية، واشتهرت

بعلومها الفلكية حتى توصل علماؤها أن يخطوا ابراج الشمس ويعينوا بارصادهم وحساباتهم الكسوف والخسوف قبل أوانهما. ولكن لما طفحت كأس مآثمها على يد ذاك الملك الكافر المخنَّث بلشصّر الذي استهزأ بالله وشرب بآنية الهيكل في تلك الوليمة العظيمة التي أولمها لالف من عظمائه، أرسل الله اليه من انذره بسقوطه وسقوط مملكته معه : فظهرت يد خفية و كتبت على عرض الحائط : « مَنا مَنا تَقِلْ وَفَرْسِين » . وهذا تعبيرها : « منا » اي احصى الله مُلكك وأنهاه « تَقل » اي وُزنت فوجدت ناقصاً ـ « وفرسين » اي قسمت مملكتك ودفعت الى ماداي وفارس . وفي تلك الليلة حوّل قورش ملك الفرس مجرى نهر الفرات فدخلوا مدينة بابل وقتلوا الملك بلشصر و كأس الشراب بيده ودكوا اركان مملكة بابل العظيمة وتموا امر الله بخرابها (دانيال ف ٥)

ولكي نعلم ان المملكة الثانية لم تؤسّسها الاتفاقات والاقدار فقد أنبأ اشعيا النبي عن قورش الملك قبل مجيئه بمئتي سنة وسمّاه باسمه . وعندما رأى قورش هذه النبوءة سمح برجوع الشعب الاسرائيلي من منفاه الى بلاده وببناء هيكل اورشليم

وقد سعت ايضاً هذه المملكة التي دامت ٢٥٠ سنة في توحيد الشعوب، فامتدّت من آسيا الصغرى الى بلاد الهند، وكانت عاصمتها إكبتان . وقد امتزجت بالغرب باثارتها الحروب على اليونان وتجريدها عليها الجيوش الجرارة . فسطر اليونان

آنئذ تاريخهم بماء الذهب وحقّ لهم ان يفتخروا بمعركة ماراتون حيث سحق ملسياد بجيشه الصغير جيوش داريوس الجرارة . وأوقف ليونيداس في مضيق ترموبيلوس ومعه ٣٠٠ جندي باسل جحافل ارتحششتا العديدة، وحطّم تيموستيكلوس أسطوله الفخم في سلاميناء، وكان القاضي على هذه المملكة والمؤذن بخرابها البطل الكبير الاسكندر ذو القرنين . ذاك الفتى النابغة في الحروب الذي قاد الجيوش وهو في السادسة عشرة من عمره؛ فطوّع في بدء أمره بلاد اليونان المتجزئة، ودخل آسيا الصغرى باربعين الف مقاتل، فانتصر على الفرس في معركة كرانيك واستولى على آسيا الصغرى في معركة إيسوس، ثم اتى فحاصر مدينة صور المنيعة مدة سبعة أشهر واستولى عليها . وطاف بلا ممانعة في فلسطين حيث استقبله الكاهن الاعظم بملابسه الكهنوتية واراه ما ذكرته عنه نبوءة دانيال . واجتاز الى مصر حيث استقبلوه كمحرر الشعوب بكل ترحاب، واسس مدينة الاسكندرية وأخيراً قضى على مملكة الفرس في موقعة أربل، فانفتحت امامه مملكة الهند الواسعة . فكأنه نطح الشرق كما نطح الغرب بقرنيه فسُمّي ذا القرنين . فخضعت له الملوك، ودانت له الشعوب حتى قال الكتاب المقدس عنه هذه العبارة السامية : « فسكتت الارض بين يديه » (سفر المكابيين الاول ١:٣) . ولكنه ترفع في قلبه وتشامخ كما قال الروح القدس في سفر المكابيين . فأرته العناية الالهية انه ليس الّا آلة لاتمام مقاصدها، اذ انه لما

وحّد العالم الوحدة السياسية، ونشر اللغة اليونانية في أوروبا وآسيا وأفريقيا، أوقفته يد القدير في سيره، ولم تفسح له ان يتمتع بانتصاراته، فانقصف غصن شبابه وهو في السنة الثانية والثلاثين من عمره

وقد ساد اليونان بالسيف كما سادوا بالعلوم والفنون والآداب. وأُعدّت لغتهم بعناية الله لتكون يوماً لغة الرسل في نشر حقائق الايمان وحفظ الوحي الإلهي للاجيال الآتية

وقد قيّض الله للمملكة الرابعة ان تتمم ما ابتدأ به غيرها في توحيد الشعوب فكانت المملكة الرومانية. تلك المملكة الحديديّة التي دامت سلطتها مدة ٧٠٠ سنة. وقد فاقت المملكة اليونانية اتساعاً: فأخضعت شعوب إيطاليا وغاليا واسبانيا وقرطجنّة، وجعلت في العالم الوحدة السياسيّة والماديّة. وخطّت الطرُق الواسعة من اقصى المملكة الى اقصاها، وتركت آثار المباني الفخمة في كلّ بلدة استولت عليها. وسنّت الشرائع المدنية الثابتة في القضاء والحكم. ولما تكبرت وبغت دبّ فيها سوس الفساد، فأصبحت تمثالاً خزفياً عوضاً عن الحديديّ. فأتى ذلك الحجر الذي لم تقطعهُ يدٌ فصدِم ذاك التمثال العظيم وحطّمه تحطيماً ورماه الى الحضيض. وهذا الحجر صار جبلاً كبيراً، وهو يمثّل الكنيسة تلك المملكة التي ليس لها انقضاء

وها قد حان كمال الزمان. فتعالَ ايها السيد هوذا العالم مملكة واحدة. تعالَ وبشّر بانجيل السلام، فقد زالت الحروب.

تعالَ وأنر بنور الحقائق العالم المُظلم، وطهره من فساده بتعاليمك الطاهرة. وها ان الطُرق مخططة في كلّ جسم المملكة كالشرايين في الجسم فيسهل على رُسلك ان يطوفوا في العالم ويبشّروا بعهدك الجديد. تعالَ ايها السيد ها ان اللغة اليونانية مفهومة في العالم فتصلح لنشر انجيلك ويفهمها الجميع

هوذا الحجر الصغير الذي ضَرب التمثال فحطمه يصير كما قال دانيال النبي جبلًا عظيماً. هوذا الحجر الذي رذله البناؤون صار رأساً لزاوية الكنيسة التي تبقى الى الابد. وترى الممالك تَهوي، والعروش تتحطَّم، وهي ثابتة الى انقضاء العالم. لان الذي أسسها وعدها بان يكون معها الى انقضاء الدهر: «انا معكم كلّ الايام الى منتهى الدهر» (متى ٢٨: ٢٠). وهو الذي تجثو له كل ركبة في السماء وعلى الأرض. هو مِحوَر التاريخ وقُطب دائرته. هو الباقي كما هو أمس واليوم والى مُنتهى الدهر. له العزَّة والمجد. الى الابد امين

فى دعوة الشعب الاسرائيلى

رأينا في المحاضرة السابقة ان الممالك الاربع العظيمة المتعاقبة قبل مجيء المخلص لم يكن لها غاية الا تهيئة مجيئه. واليوم غايتنا ان نرى ما هي دعوة الشعب الاسرائيلي . مُرادنا ان نرى ان الله لم يختره شعباً خاصًّا الا ليأتمنه على وديعة الحقائق التي أوحى بها اليه، وينشرها بين الامم . انه لم يختره الا ليُعدّه لمجيء مخلص العالم ولكي يبشر انبياؤه بالمسيح . وهذا ما نراه الآن في نظرة تاريخية اجمالية

لقد وعد الله بالمخلص فورَ سقوط آدم وحواء بقوله للحية: « وأجعل عداوة بينك وبين المرأة، وبين نسلك ونسلها . فهو يسحق رأسك وانت ترصدين عقبه » (تكوين ٣: ١٥) . لكن ذرّية آدم التي تولاها الضعف بعد الخطيئة قد زاغت ومالت الى الفساد . حتى افسد كل جسد طريقه على الارض . فعزم الله على إبادة العالم بالطوفان ولم يستبقِ منه الا نوحاً واسرته لكونه رآه بارًّا ثم رجع العالم الى فساده بعد الطوفان واصبح بعد حادثة برج بابل شعوباً عديدة ولغاتٍ مُتباينة

فأراد الله ان يختار له شعباً خاصًّا يكون كمنارة يهتدي

بنورها باقي الشعوب، ويبشر بمجيء المخلص الذي يُولد من ذرّيته. فدعا الله لذلك ابرهيم بن تارح من بلاد الكلدان، وذلك قبل المسيح بنحو الفَي سنة. وقد افرز لـه ولذرّيته ارضاً يعيش فيها، فقال له: « انطلق من ارضك وعشيرتك وبيت ابيك الى الارض التي أريك. وانا اجعلك امة كبيرة ... ويتبارك بـك جميع عشائر الارض » (تكوين ١٢: ١-٣). فاطاع ابرهيم أمر الرب واتى الى ارض فلسطين وعاش في حبرون التي دُعيت باسم حبرون الخليل. وقد دُعي ابرهيم أبا المؤمنين لانه آمن في ضيقه ومِحَنه بأن نسله سيكون كنجوم السماء وان كان إذ ذاك قد بلغ من العمر مئة سنة ولم يكن له ولَد. آمن بأن نسله سيكون كنجوم السماء. حتى حينما أمره الله، بعد ان وهب له ولـداً وحيداً في شيخوخته، ان يضحي بهذا الابن الوحيد ذبيحةً له، فأطاع امر الله وربط ابنه ورفع السكين ليذبحَه. فسمع صوتاً يقول: « ابرهيم ابرهيم لا تمدُد يدك الى الغلام ولا تفعـل به شيئاً. فاني الآن عرفت انك متقٍّ لله... لأبارِكَنَّك واكثرنّ نسلك كنجوم السماء وكالرمل الذي على شاطئ البحر » (تكوين ٢٢: ١-١٨). ونرى في اسحق البريء الحامل الحطب والمقدَّم ضحيةً رمزاً لحمل الله رافع خطايا العـالم الذي سيحمل صليبه ويضحي بنفسه لمغفرة الخطايا

وقد جدَّد الله وعـده لاسحق ويعقوب وأنبأ بفم يعقوب بمجيء المخلص وبزمن مجيئه. اذ لما حضرت الوفاة يعقوب في

أرض مصر قال متنبئاً : «لا يزول صولجان من يهوذا ولا مُشترع من صُلبه حتى يأتي شيلو وتُطيعه الشعوب » (تكوين ٤٩ : ١٠) . وقد سمح الله بان تختلط ذرّية ابرهيم بالمصريين لينشروا معرفة الاله الحقيقي في ارض مصر . وهذه كتاباتها الهيروغليفية تشهد بذلك . رفع الله يوسف ذاك الشاب العفيف الوديع الحكيم الى درجة الوزارة ليعرف المصريون ان إله يوسف هو الذي اتاه الحكمة . وأقرّ فيما بعد سحرة مصر بهذه السلطة امام موسى اذ عجزوا عن مُباراته بالآيات : أقروا صاغرين وقائلين : « هذه إصبع الله » (خروج ٨ : ١٩)

على ان الله لم يُرد ان تبقى ذرّية ابرهيم بين المصريين لئلا يشملهم طُغيان الفساد والضلال . لكنه تعالى جعل اخراج الاسرائيليين من ارض مصر واسطة لمعاقبة المصريين . فضربهم تلك الضربات العشر الأليمة وأخرج ذرّية يعقوب من مصر بعد ان باركها وكثّرها . فقد دخلت مصر سبعين نفساً وبعد ٤٠٠ سنة خرجت منها وفيها ٦٠٠٠٠٠ رجل ما عدا الاطفال . قد تجلّت رحمة الله للشعب الاسرائيلي وظهر عدلُه للمصريين في هذا الخروج . فقاد شعبه الخاصّ بعمود من غمام ليهدِيَه الطريق نهاراً وبعمود من نار ليضيء له ليلاً . ولما لحِقه فرعون بجنوده ومراكبه شقّ البحر الاحمر وجعل الاسرائيليين يعبرون على الارض اليابسة، واغرق فرعون وكل مركباته وجنوده

ولما سار الى برية سيناء اعطاه الله وصاياه العشر لكي تبقى

في قلبه ويحفظها في ذاكرته . فكثر له العجائب وعاله في البرية بالمنّ والسلوى واخرج له الماء من الصخرة الصمّاء ليرويه . واذ رآه شعباً قاسي الرقاب أَلِفَ الذلّ وعبوديّة المصريين ضربه ضربات عديدة ليطهره من شوائبه وأبقاه في القفر أَربعين سنة ليَفني منه الجيل القديم، ممن كان لهم عشرون سنة فما فوق، ما عدا اثنين يشوع بن نون وكالب بن يفنّ، وليربيه ويجعله شعباً حيًّا مدرّباً على الصبر والجهاد . وأوحى اليه على يد موسى بالتوراة اي سفر التكوين وسفر الخروج وسفر الأحبار وسفر العدد وتثنية الاشتراع

وبعد اربعين سنة أَدخل بني اسرائيل ارض الميعاد التي كانت تدرّ لبناً وعسلاً . فشقّ لهم نهر الاردن ليعبروا فيه، وساعدهم على سحق اعدائهم باسقاط اسوار اريحا وبايقاف الشمس ليواصلوا في النور انتصارهم في معركة عظيمة . ومكّنهم من كسر الشعوب الكنعانية التي كانت أمماً قوية متأصلة في البلاد . واختار الله لهم بلاد فلسطين لانها واقعة في وسط المعمور، فجعلهم على شاطئ البحر المتوسط بين ثلاث قارّات العالم، بين آسيا وافريقيا واوربا، في بلاد على طريق الغزاة الفاتحين كلهم، من نبوكدنصر وقورش وارتحششتا والاسكندر ويُمباي الى اغسطس قيصر، فكانوا كمصباح يضيء في ظلام الوثنية لتهتدي بنوره الشعوب . وبعد ان ادخلهم ارض الميعاد على يد يشوع بن نون، قسم تلك الارض بين اسباط اسرائيل الاثني عشر

وقد اراد الله في كل آن ان يُظهر لهم انهم شعبه الخاص، وانهم بدونه لا يستطيعون شيئاً. فكان كل مرّة يرى الاسرائيليين ينسونه ويتبعون آلهة غريبة يسلّط عليهم مجاوريهم، فيجتاحون اراضيهم وينهبون غلاتهم ويسلبون مواشيهم ويعملون السيف في رقابهم. واذا تابوا ورجعوا الى عبادة الاله الحقيقي يقيم لهم من الضعفاء والوضعاء منقذين يجعلهم في يده القديرة ادوات خلاص وانتصار فيبعث اليهم قضاة مثل دبوره وباراق وجدعون ويفتاح وشمشون وصموئيل، فينصرونهم على اعدائهم الاقوياء العديدين بوسائط غريبة عجيبة دالّة على ان الله يختار الوسائل الضعيفة ليظهر مجده ويخذل المتجبرين. ولما طلب الاسرائيليون ان يكون لهم ملوك نصَّب عليهم شاول، فآزره ونصره على اعدائه ما دام سالكاً في مخافته، طائعاً لاوامره. ولكنه لما حاد عن جادة الطاعة أولاً وثانياً تخلّى الله عنه وقال له بفم صموئيل: ان الطاعة افضل من الذبيحة. فكانت آخرته وآخرة شعبه تعسة لان الله ينصر الطائعين ويخذل العصاة. ثم أظهر الله آيات قُدرته على يد داود، فاختاره صغيراً من بين رعاة الغنم، ورفعه في عيون الشعب ووهب له القوّة والحكمة، فنصره على أعدائه حتى صار ملكاً. فكان عصره عصرَ الاسرائيليين الذهبي. فاتخذ اورشليم عاصمة ملكه عوضاً عن حبرون. وامتدت اطراف مملكته من نهر الفُرات الى نهر النيل. ونال ثروةً ومجداً وسؤدداً فكان داود الملك حسب قلب الله ما بقي منصرفاً الى الجهاد

ومنهمكاً في العمل للدفاع عن شريعة الله وشعبه . ولكنه لما مال الى البطالة والترف سقط سقطة فظيعة فضربه الله ضرباتٍ أليمة ليؤدّبه لان الله يودّب من يحبه . فتاب داود وتخشع لله وكفَّر عن ذنبه حتى اصبح آية التائبين القديسين، ولنا نموذج من ذلك في مزاميره الجميلة

وبسبب داود بارك الله ابنه سليمان فوهب له حكمة عزّ أن ينالها بشر . ولنا مثال على ذلك فيما نقرأ من كتبه في سفر الحكمة وسفر الامثال والجامعة ونشيد الاناشيد . وقد فاق اباه ثروةً ومجداً وسطوةً . فجمع الذهب بكثرة كما يُجمع القصدير، وجمع الفضة كالرصاص . وقد وصل اسطوله الى أوفير التي هي اسبانيا على ما يظن العلماء . وقصده الملوك ليسمعوا حكمته، حتى أتت ملكة التيمن من أقاصي الارض لتسمع تلك الحكمة . وخصَّه الله ببناء الهيكل، فقدّم له حيرام ملك صور الارز اللازم لبناء الهيكل وخمسين ألف عامل لتشييد البناء . فكان هيكل سُليمان إحدى آيات الدهر بجماله ودقة صُنعه وغنى مواده . وقد تمجَّد الله فيه زمناً طويلاً بما قُدّم فيه من الصلوات والذبائح والتقادم اذ كانت النار المقدّسة تشتعل فيه على الدوام

ولكن سليمان قد زاغ في اواخر ايامه عن سبيل الحكمة اذ استسلم للميل الى النساء، ففسد قلبه وشوّه ايام شيخوخته بلطخة العار

وقد مضى منذ ايام سليمان الى مجيء المخلص نحو الف سنة

قام في اثنائها انبياء عديدون، منهم اربعة كبار واثنا عشر نبياً صغار فأنباوا بمجيء المخلص وبتفاصيل حياته . وانذروا الشعب بضربات الله الاليمة لوقوعه في الضلال وانصرافه عن عبادة الإله الحقيقي . فكان اول ما ضرب به هذا الشعب انقسام المملكة الاسرائيلية الى شطرين : الى مملكة يهوذا وفيها سبط يهوذا وبنيامين وقاعدتها اورشليم، والى مملكة اسرائيل وفيها عشرة اسباط اسرائيل وعاصمتها السامرة

كان ذاك الانقسام سبباً للحروب بينهم . وقد زاغ عن طريق الحق اكثر ملوك اسرائيل، وعددهم ١٩ فاتبعوا طرق الخطيئة، وارسل الله اليهم أنبياء ملتهبين غيرةً كاياليا واليشع فانذروهم بعقوبات الله . ولما لم يرتدعوا سلط عليهم اعداءهم فاجتاحوا بلادهم وقهروهم واعملوا السيف في رقابهم . الا انهم لم يرعووا . ولما طفحت كأس مآثمهم ارسل بلشصر فدكّ اركان عاصمتهم وطردهم من ارضهم وسبى الشعب مع مَلكه الى بلاد أشّور وذلك سنة ٧٢١ ق.م، فتأدّب اسرائيل في جلائه ورجع الى الله، وامتاز في تلك الآونة طوبيا البار

وأما مملكة يهوذا فقد وُجد فيها اربعة ملوك صُلّاح من عشرين ملكاً . لذلك رأف الله بهم وأدام مُلكهم اكثر من مُلك اسرائيل وأيدهم بالنصر مراراً، ولاسيما عندما التجأ اليه الملك حزقيا، فأرسل ملاكه وقتل من جيش سنحاريب المحاصر اورشليم نحو ثمانين الفاً . ولم يترك الله شعبه في هذه المدّة، بل ابقى فيه

ذكر المخلص حيًّا فاقام لهم من بينهم انبياء كأشعيا النبي العظيم الذي سبق فوصف في نبوءته ميلاد المخلص من أم عذراء . وعدّد كمالات المولود الالهي وذكر امجاد حياته وصوّر هول آلامه وبشر بثمارها الفدائية، وكل ذلك بعبارة جلية واضحة حتى لُقب بالانجيلي الخامس

الّا ان فساد الشعب وطغيان ملوك يهوذا لم يتركا سبيلًا للرحمة واستوجبا تأديب العدل الالهي . فزحف نبوكدنصر ملك بابل بجيوشه على اورشليم وحاصرها وخرّبها ودكّ اركان الهيكل وترك البلاد قاعاً صفصفاً ينعق فيها البوم، وقاد سكانها الى بابل ليكفّروا عن مآثمهم . فقام بينهم النبيان حزقيال ودانيال يبكيان معهم على انهار بابل . وقد أنبا هنالك دانيال بزمن نهاية الجلاء وبزمن مجيء المسيح المخلص الذي سيُقتَل ويخلص شعبه . وذهب النبي ارميا الى وادي النيل وهناك أخذ ينشد مراثيه ويبكي على اورشليم عاصمة مملكة يهوذا وعلى هيكل الرب

تاب الشعب الاسرائيلي الى الله . وكان جلاؤه واسطة لاندماجه بين الشعوب الوثنية ونشر عبادة الاله الحقيقي، حتى اقر نبوكدنصر وبلشصر لدانيال النبي ان لا إله حقيقي سوى إله الاسرائيليين . وعندما راى قورش ملك الفرس نبوءة دانيال المُنبئة بتأسيس المملكة الثانية سمح لليهود ان يرجعوا الى بلادهم ويعيدوا بناء اورشليم والهيكل . فأتى زربابل وبنى الهيكل ورفع نحميا سور اورشليم المُنهدم واذ كان الشعب يبكي لكونه لم يرَ

الهيكل الجديد مضارعاً لبهاء هيكل سليمان عزّاه النبي حجّاي بقوله ان هذا الهيكل سيكون اعظم بهاءً من هيكل سُليمان لانه سيتشرّف بزيارة مخلص العالم المسيح المُنتظَر

ومنذ الجلاء لم يعد الشعب الاسرائيلي بجملته يُنكر الإله الحقيقي . ولما أتى في تلك الآونة الاسكندر ذو القرنين الى اورشليم استقبله رئيس الكهنة بملابسه الكهنوتية وأراه ما ذكرت في شأنه نبوءة دانيال، فاحترم الاسكندر ديانة الاسرائليين، وذهب فسجد للاله الحقيقي في هيكلهم

ولما حاول الملوك السلوقيون ان يستهينوا بدين اليهود ويُرغموهم على الذبح للآلهة قام بعض اليهود الصديقين المحافظين على تقاليد اجدادهم، فدبت فيهم الغيرة المقدّسة، وكان في مقدّمتهم أسرة المكابيين الابطال . فضموا اليهم عدداً من المتديّنين وحاربوا جيوش انطيوكس حروباً مجيدة وانتصروا عليها في معارك تبقي لهم ذكراً مجيداً لِما اظهروا من الثقة بالله والغيرة على الدين والحماسة الوطنية البالغة أشدّها

وبعد ان كان سبي اسرائيل واسطة لانتشار حقائق إيمانه، ارادت العناية الالهية ان تبشّر بالكتاب المقدس في العالم أجمع، اذ ألهمت احد ملوك البطالسة في الاسكندرية، فسعى في ترجمته الى اللغة اليونانية قبل مجيء المسيح . فأتاح ذلك للعالم المتعلّم ان يطّلع على وحي الله . وعلى هذه الصفة بقي الشعب الاسرائيلي المنارة المُضيئة للعالم يشعّ منها نور الحقائق الدينية ونور المخلص

المزمع ان يأتي . وقد ذكر انبياؤهم حياة المسيح بتفاصيلها قبل مجيئه ليتمكن العالم من معرفته عندما يأتي . وعلى هذه الصفة تمَّم الشعب الاسرائيلي دعوته بحفظ الحقائق وبذكر النبوءات الخاصة بالمسيح . والآن قد خرج الصولجان من يهوذا ووافى كمال الزمان لمجيء ابن الله

فوافى المسيح من ذرّية داود، وافى ليؤسّس مملكة لا نهاية لها . فلم يلبِّ الشعب الاسرائيلي دعوته، لانه كان يَنتظر مُلكاً زمنياً فيه المجد والثروة والملذّات . فأنكر الشعب مخلصه وحكم عليه بالموت وصرخ قائلاً : «دمه علينا وعلى بنينا» (متى ٢٧ : ٢٥) . واذ ذاك كان دم ابن الله عليهم وعلى اولادهم فانشقّ عند موت السيد المسيح حجاب الهيكل اثنين من فوق الى اسفل اشارة الى ان الله نبذ هذا الشعب . وتمت نبوءة المسيح بخراب اورشليم وخراب الهيكل وتفرّق الشعب اليهودي ايادي سبا . على اننا لا ننكر ان جزءاً صالحاً منه اهتدى الى الدين المسيحي وكان منهم رسل ومبشرون وشهداء

وبينما نرى الممالك القديمة قد بادت نشاهد هذا الشعب الصغير متفرّقاً بين الامم والشعوب، ومحافظاً على كيانه ليبقى شاهداً على صحة الكتاب المقدّس الذي يحكم عليه بقساوة القلب وضلال العقل

فالنتيجة مما سبق ان الله تمم مقاصده باختيار الشعب الاسرائيلي وحوّل خُبثه لخير العالم، وان الشعب الاسرائيلي بقي عظيماً ما

دام محافظاً على عهد الأمانة لدعوته السماوية ومتمسكاً بشرائعه . وقد ابتدأت مصائبه من يوم ابتعاده عن الله ونكثه ذاك العهد المقدّس . ومن منا لا يرى في الشعب الاسرائيلي عبرة لكنيستنا الشرقية . فانه ما دامت بلادنا في جانب الله حافظةً شرائعه ومتمسكة بالدين القويم، كان شرقنا زاهياً وكنائسنا عامرة، وديورتنا عديدة زاهرة، ومعارف علمائنا ساطعة، وفضائل قدّيسينا مُتضوّعة في المسكونة . لكنا لما ابتعدنا عن الله اصبحنا طوائف صغيرة متنابذة : فذُبلت زهرة ذلك المجد وضعف نور تلك العلوم وذوتْ نضارة تلك الفضائل . فلنتُب الى الله يَتب علينا ولنمجد اسمه بسلوكنا ليرفع شأننا ويعيد الى شرقنا سالف مجده، وليس عند الله أمر عسير

حالة العالم الادبية قبل مجيء المسيح

رأينا ان كمال الزمان قد تمَّ بسعي الممالك الاربع المتعاقبة في توحيد الشعوب والامم، واللغة، استعداداً للتبشير بالمخلص. ورأينا ان كمال الزمان قد تمَّ اذ لبَّى الشعب الاسرائيلي دعوته فنشر الحقائق وبشّر أنبياؤه بتفاصيل حياة المسيح. ولم يبقَ الا مجيء من يتممها. والآن غايتنا ان نشرح لكم كيف قد تمّ كمال الزمان بانتهاء العالم القديم الى اقصى دركٍ من الانحطاط الادبي، مما جعل الامم والشعوب يُقرّون بعجزهم ويتلهفون طالبين مجيء المخلص

كانت خطيئة آدم خطيئة كبرياء إذ اراد ان يصير إلهاً فارادت الحكمة الالهية ان تُلاشي كبرياءه لتُريه ضعف الانسان وعجزه بدون نعمة الله التي خسرها. فحجب الله وجهه عن البشرية آلافاً من السنين عقاباً على تمرّدها، ولم يُبقِ لها الّا ما وضع فيها تعالى من نور العقل وصوت الشريعة الطبيعية. فقاده عقله الى اضاليل زجّته في ظلامٍ حالك، وجرّه قلبه الى رذائل جعلته يتمرّغ في حمأتها. فسقط العالم القديم في انحطاط ادبي الى درجة قُصوى حتى أخذت الامم الوثنية والشعب الاسرائيلي نفسه يصرخون بلهفة وحرقة يا رب نجّنا « وأرسل الينا مخلصاً فإنا نهلك »

ليس في استطاعتنا ان نصف وصفاً تاماً حالة الانحطاط الادبي الذي تدهور فيه العالم القديم لان مُجرّد ذكره تشمئز منه النفوس السامية التي تشرّبت اخلاق المسيح، ويندى له كلّ جبين شريف . ولكن يجدر بنا مع ذلك ان نعرف ولو بعض المعرفة اجمالاً من ذلك لنقدّر نعمة الفداء حق قدرها : من الواجب ان نعرف ما خيّم على العالم القديم من ظلام الاضاليل لنعرف قيمة نور الحقائق التي اضاء بها المسيح العالم . من الواجب ان نعرف ما انبعث من العالم من روائح الرذيلة الكريهة، لندرك ما نشر المسيح من عُرف الفضائل . ولست اعني بوصف العالم القديم ان عصرنا في الوقت الحاضر خالٍ من كل ما سنذكره من الاضاليل والفساد . فان فيه ولاسيما بين الامم والشعوب المبتعدة عن نور الانجيل، او التي اخذت تبتعد عنهُ ما يندى لذكره وجهُ الانسانية حياءً . ولكن مهما بلغ عصرنا من الفساد، فشتان ما بينه وبين العالم القديم . ففي العصر المسيحي لم يبقَ من خوف ان يغمر الشر كل البشرية ثانية . ولا من عذرٍ لمن يعمهون في دياجي ضلالهم، لان الانجيل منذ نودي به اصبح ولن يبرح منار البشرية الساطع، تبهج انواره ذوي الايمان والحجى وتتغلّل اشعته الى ما بين ظلمات الوثنية واصحاب الضلال والبدع، حتى ان تأثيره اصبح شاملاً، ومبادئه اصبحت للتمدن كالهواء للرئتين يُنادي بها الجميع ويجلها الكافرون واعداء الدين انفسهم باقوالهم، ولو كذّبتهم اعمالهم . وها قد اصبحت ارجاء المسكونة كلها

من الشرق الى الغرب ومن القطب الى القطب ترجّع أصداء النداء بالاخاء والاحسان والرأفة بالضعيف واحترام الضمائر وتحرير المرأة وتعزيز الاسرة واستنكار النخاسة وما الى ذلك من المبادئ السامية التي جاء بها السيد المسيح . وحتى تعرفوا حظ العصر المسيحي السعيد بهذه التعاليم السماوية ها انّا نصف لكم انحطاط العالم القديم وما كانت فيه حالة النفوس والاسرة والهيئة الاجتماعية، لا بل انحطاط قادة الشعوب والمفكرين اي الفلاسفة والكهنة والعلماء

قد شعرت النفوس في العالم القديم بالانحطاط الادبي الذي وصلت اليه، لان العقل خُلق لمعرفة الحقّ والارادة لطلب الخير . الا انهما بالخطيئة الاصلية أصبحا عرضة للضعف والجهل فابتعدا عن الحق والخير واندفع البشر في سبيل الحياة الحيوانية . فساد الضلال وانتشرت الرذيلة . كان ذلك لان ذرية آدم نسيت شيئاً فشيئاً ما أوحي الى الابوين الاولين في جنة الفردوس عن الطبيعة الالهية ووحدة الله وروحانية النفس ووحدة الجنس البشري فمالت الى عبادة الاوثان وتبعت طرق الفساد

تلهّى الانسان بالخليقة عن الخالق . وأُعجب بجمال المخلوقات وفُتن بها، فعبد الكواكب والشمس والقمر وعبد الخلائق المضرّة ليأمن شرّها، حتى اصبح كلّ شيء إلهاً ما عدا الله وحده كما ذكر بوسويه، وزاغ عقل الانسان عن الحقّ فاصبحت فلسفته مجموعة اضاليل وحقائق مشوّهة جعلته يخبط في ليلٍ داجٍ ظلامه

وبما ان الضلال يولّد الفساد كما ان الفساد يولّد الضلال، تاه قلب الانسان ايضاً وأخذ يجعل موضوع حبه ظل الخير لا حقيقته . فطلب السراب الخدّاع ووثق بالبرق الخُلّب . ولكي يستبيح لنفسه المحرّمات أَلّه الرذائل كلها وشيَّد لها هياكل ووضع لها كاهنات . قيل انه كان لهيكل الزُّهرة وحدَه في كورنتس ألف كاهنة للرذيلة . ولا تسأل عن الجرائم التي تنفر منها الطبيعة كحمأة سادوم وعامورة، مما اصبح فيهم عادة مألوفة ولم يكن من تشريع يمنعها ولا من نفوس أَبية تقبحها حتى اصبحت المراسح مدارس للرذيلة تظهر فيها بكلّ الاشكال والازياء

ولنكتفِ من وصف ذلك بما قاله القديس بولس في رسالته الى الرومانيين : « قد زعموا انهم حكماء فصاروا حمقى واستبدلوا مجدَ الله الذي لا يُدرَك الفساد بشبهِ صورة انسان ذي فساد وطيور وذوات اربع وزحّافات . فلذلك اسلمهم الله في شهوات قلوبهم الى النجاسة لفضيحة أَجسادهم في ذواتهم ... فان اناثهم غيّرن الاستعمال الطبيعي بالذي على خلاف الطبيعة . وكذلك الذكران ايضاً تركوا استعمال الانثى الطبيعي والتهبوا بعشق بعضهم بعضاً، ففعل الذكران بالذكران الفحشاء، ونالوا في أنفسهم الجزاء اللائق بضلالهم . وبما انهم لم يؤثروا ان يستمرّوا على معرفة الله أسلمهم الله الى رأي مرذول حتى يعملوا ما لا يليق، ممتلئين من كل اثم وشر وزنى وبخل وخبث، مفعمين حسداً وقتلاً وخصاماً

ومكرًا واساءة، نمّامين مُغتابين ممقوتين من الله، شتّامين متكبرين مُفتخرين مخترعين شرورًا، عاقّين للوالدين، لا فهمَ لهم ولا نظام ولا وُدّ ولا عهد ولا رحمة. وهم مع معرفتهم قضاء الله لم يفهموا ان الذين يفعلون مثل هذه يستوجبون الموت» (رومية ١:٢٢-٣٢)

فنرى من وصف القديس بولس هذا اي دركٍ انحطت اليه النفوس في العالم القديم: فالظلام في العقول والحمأة في النفوس

وهذا الانحطاط كان في العيلات كما في الافراد على السواء. فقد كان الاب يستبدّ اشدّ الاستبداد باسرته ولا رادع له ولا وازع. حتى كانت المرأة كما لا تزال في بعض الامم هدفاً للاحتقار والخيانة والعار فيشترونها ويبيعونها كسلعة ويحتقرون فيها شرف الامومة ويهجرونها كأنها ليست شريكة حياتهم او كأن ليس لها نفس بشرية كنفوسهم. والولد كان عند مولده يحمله الاب بينَ ذراعيه ويجسّ مفاصله فإن لَقيه مُتناسب الاعضاء كامل الخلق قَبِله ابناً له، والا أمر خادمه فرمى به في البحر أو جعله مأكلًا للاسماك. وهي سُنّة كان يسير عليها الجميع: فشريعة ليكورغوس عند اليونان كانت تُبيح خنق الولد ورميَه. والشريعة الرومانية تُبيح رميه في المُستنقعات لتتخلّص الجمهورية منه. واما الخدّام في البيت فكانوا بمنزلة المواشي يبيعهم سيدهم اذا طمع في المال ويذبحهم ويرميهم للاسماك اذا هاجه الغضب في حالة السكر. ذلك ما كان يُرى في شوارع رومية واثينا

واذا كان هذا مقدار الانحطاط في الافراد والعيلات، فانه ولا شك قياس الانحطاط في الهيئة الاجتماعية ايضاً، وهي مؤلفة من الافراد والأُسر . فالملوك كانوا يظنون ان كل ما تتناوله يدهم هو مباح لهم . فقد بلغت منهم الكبرياء الى ان نصبوا تماثيل لذواتهم، وارغموا الشعب على عبادتها وعلى تقدمة البخور لها . وكانوا يستبدون بالناس كأنهم صنائعهم حتى ان الاستبداد وصل بهم الى حدّ الجنون، كما فعل نيرون الذي احرق مدينة رومة ليفرح برؤية الحريق ويوقّع على أنغام عوده أَلحاناً تُثير فيه الطرب

وكان الحكام ينسجون على منوال ملوكهم فيمتصون دم الشعب وعرَقه بالجبايات والضرائب لكي يحشدوا الاموال الطائلة ويتوغلوا في الترفُّه ويتمادوا في الخلاعة

اما العبيد، وكانوا نحو ثلاثة ارباع العالم، فإن أَسيادهم كانوا يحسبونهم دونهم جنساً . فكانوا يبيعونهم ويشترونهم كالبهائم . واذا قَتل الواحد منهم عبداً لم يكن عليه إلا دفع دِيته كما لو كان قد قتل حيواناً ما . وللسيد السلطة التامة على حياة عبدهِ، وليس لاحد ان يُمانعه في ذلك . قد أمرت يوماً احدى السيدات الرومانيات بصلب عبدٍ من عبيدها فصلبوه . فقال لها زوجها واي جريمة ارتكب لكي تصلبيه ؟ فأجابته بعنفوان واحتقار : « هكذا اردت . هكذا أمرت . وكفى بإرادتي سبباً »

وكانوا يربطون العبد على الباب ليسهر على حراسة الدار فاذا مرض يرمونه في جزيرة ويقولون ضاحكين إنّا سلمناه الى اسكولاب إله الطبّ . وكثيراً ما كانوا يقتلون العبيد بعد قتل سيدهم، وهذا ما حكم به مجلس رومة اذ قتل احد الوجهاء فحكموا على ٣٠٠ من عبيده بالموت . واما الفقير فكان موضوع الاحتقار والسخرية والامتهان، وقد أمر بعض القياصرة برمي الفقراء في البحر ليتخلّص منهم

امّا إذا اردنا ان نَسبر غور طبيعتهم التي تفوق طبيعة الوحوش همجية فلننظر اليهم في الحروب . فهم يستبيحون كلّ محرَّم يقتلون الاولاد ويهتكون الاعراض وينهبون البيوت ويحرقون الحقول . وأخيراً يجرّون الملوك وراء عربات الملوك الغالبين ويستخدمونهم موطئاً لاقدام غالبهم عندما يمتطي صهوة الحصان . وإذا أردنا ان نعرف شيئاً عن افراحهم وملذّاتهم فهم لم يكن يروقهم فرح الا اذا رأوا فيه اهراق الدماء . ولهذه الغاية كانوا يبنون المراسح الواسعة ذات المدرّجات العديدة فيجلس الشعب على درَجات المرسح ليرى السباع والوحوش الضارية واثبةً على بني الانسان من المسجونين والعبيد والاعداء فيهتفون فرحاً ويصفقون بالايدي عندما تهجم تلك الوحوش على الانسان فريستها فتمزّق لحمانه وتكسّر عظامه وتفترسه . ذلك ما كانوا يسمونه محاربة المتصارعين، وهو من أعظم افراحهم . وما نقوله هنا هو دون الحقيقة بمراحل

ولكن ألم يكن من ديانتهم رادع لهم ؟ ـ كلا . بل ان الديانة كانت المشجّع الاعظم على كل هذه الموبقات لان هيا كلهم كما تقدم القول كانت للفساد، وآلهتهم للرذائل، ولكل رذيلة عندهم إله . فالذي كان يسرق كان يصلي لإله السرقة ليعينه . والذي يريد ان ينتقم كان يستنجد بإله الانتقام . ولم يكن الكهنة الّا آلة للطمع والفساد . فعوضاً عن ان يحرّضوا على الفضيلة ويعزّوا في المصائب كانوا يُعرضون صُوَر الرذيلة ويمدحونها . ولم يشذّ في ذلك أمّة متمدينة . فالمصريون واليونان والرومان على ما كانوا عليه من الترقي المادي والعلمي عبدوا الاصنام وسجدوا لآلهة اخترعتها اهواؤهم الفاسدة

وقد كانت الضحايا البشرية عادةً مألوفة . ولم تكن حادثاً افرادياً تلك العادة الملزمة المصريين بطرح غادة حسناء كلّ سنة في نهر النيل اخماداً لغضب الآلهة بل كانت شاملة جميع الامم والشعوب . ولم يكن اليونان يَرون واسطة لإخماد غضب الاله باخوس الّا بتقديم عذارى ضحية له لانه كان يحبّ اللحم البشري . فأين اذًا العلماء والادباء والفلاسفة ؟ انهم كانوا اكثر جرماً من غيرهم لانهم مع معرفتهم بعض الحقائق لم يتبعوا نور عقلهم بل آثروا الظلمة على النور والباطل على الحق . فان افلاطون ملك فلاسفة اليونان وشيشرون أمير خُطباء الرومان كانا يعذران خطيئة اهل سادوم ويحبّذانها . وأتباع زينون كانوا يبرّرون طريقة الانتحار . والقياصرة يامرون بمصارعة الرجال . فالاضاليل قد

جعلت العالم القديم في ظلام حالِك والمفاسد جعلته يسبح في بحر من الاوحال والاقذار، حتى اصبح جسم الانسانية كله مريضاً لا بل محتضراً مشرفاً على الموت

ولم ينجُ الشعب الاسرائيلي نفسه من تأثير هذا الانحطاط على ما نال من نِعم الوحي. فبينا الله يُعطي موسى الوصايا العشر كان الشعب الاسرائيلي يعبد عجل الذهب . وبينما يعوله بالمنّ والسلوى كان يتذمر ويتشكى . وبينا يغمره بنعمه ويقوده الى ارض تدرّ لبناً وعسلاً كان يميل الى عبادة الاصنام، حتى قضى الله بنَفيه في جلاء بابل عقاباً له .

طفحت كأس المآثم وكمل زمان انحطاط البشر الادبي، فكل الامم تئن من ضعفها، والجميع يطلبون مخلّصاً يُنقذهم من هذه الحالة. الشعب الاسرائيلي والشعوب الوثنية كلهم يطلبون بصوت واحد مخلصاً ينقذهم . فكل اسرائيلي حقيقي كان يتلهَّف بحسرة طالباً مجيء المخلص . وإذا ما دنت منيَّته كان يرقد على أمل أن يرى المخلص يوماً يُحيي عظامه . وهذا ما عنى به السيد المسيح اذ قال : « ابرهيم ابوكم ابتهج بان يرى يومي، فرأى وفرح » (يوحنا ٨:٥٦) . هذه اصوات الانبياء : فالنبي داود يصرخ قائلًا : أنر بوجهك علينا فنخلُص . وأشعيا يهتف قائلًا: « ارحمنا يا رب ارحمنا لاننا اياك انتظرنا . . . ليتكَ تشق السموات وتنزل . . . اقطري ايتها السموات من فوق ولتمطر الغيوم الصديق . لتنفتح الارض ويتم الخلاص » . (اشعيا ٦٤ : ١ وف ٤٥ : ٨) .

وحبقوق يبشر بقرب مجيئه فيقول: «انه يأتي اتياناً ولا يتأخر» (٢:٣). كل هذه الهتافات شبيهة بهتاف الطبيعة المتيقظة عند دنوّ الفجر، وهي لم تزل في ازدياد الى ان صرخ زكريا قبل بزوغ الشمس: «مبارك الرب اله اسرائيل لانه افتقد وصنع فداءً لشعبه وأقام لنا قرن خلاص في بيت داود فتاه، كما تكلم على افواه انبيائه القديسين الذين هم منذ الدهر... ليضيء للجالسين في الظلمة وظلال الموت ويُرشد أقدامنا الى سبيل السلامة» (لوقا ١:٦٨ ـ ٧٩)

ولا نظنّ ان هذه الهتافات كانت خاصة بالشعب الاسرائيلي فهي شاملة كلّ الامم والشعوب. الشرق يطلب الخلاص من الغرب، لأن بلاد اليهودية شرقيّ بلاد الهند والصين والعجم. والغرب يطلب الخلاص من الشرق، لان بلاد اليهودية شرقية. فالامم الراقية والامم المتوغلة في الهمجية كلها ترغب رغبة واحدة في طلب مخلص. فالصينيون يتمنون القديس الحقيقي المرسل من الله الذي يعرف كلّ شيء ويكون له كل سلطة في السماء وعلى الارض. والهنود ينتظرون تجسُّد منشو لكي يُصلح الشرور التي صنعها كآلي التنين القديم. والمصريون يبشرون بالابن الذي يهدّئ تيفون إله الشرور. والعجم يُعيرون سماعهم للكلمة الذي معنى اسمه «انا الكائن». ويقولون ان مِترا هو الذي يغلب عنصر الفساد، وهو المخلص الذي يُولَد من عذراء. وكهنة غالية (فرنسا) ينصبون تمثالاً للعذراء المنتظَر الخلاص من ابنها

واليونان يأملون ان نسل ابولّون يجعل العدل سائداً . وافلاطونها العظيم يقول ناقلًا عن سقراط : ينبغي أن ننتظر من يعلمنا كيف يكون سلوكنا مع الآلهة والبشر

وفي الايام الاخيرة يقوم فرجيل شاعر الرومان العظيم ويُعرب عن آمال البشر وينشد قائلًا قبل مجيء المخلص بوقت وجيز: «ان الوقت الذي انبأت به النبوءات قد حان، ونظام الكون يتجدّد . ان مولوداً جديداً أُرسل من السماوات يستقي الحياة من الالوهية وهو يحكم على العالم الخاضع بفضائل ابيه . قد دقّت الساعة فهلمَّ تقبَّل مجدك . هلم يا ابن الله العزيز يا ذرّية أبولّون . انظر أمامك فالكرة الارضية تنحني وتحيّيك . أنظر ان الفرح قد شمل العالم . فقد قرب مجيء العصر الآتي»

أترى فرجيل ملهماً في هذه الاقوال ؟ أم هو يترجم عن رغبات الامم والشعوب ؟ هوذا قد حان كمال الزمان فلا نُزيد شيئاً على هذه الاقوال . هوذا حان كمال الزمان ليرسل الله ابنه مولوداً من امرأة (غلاطية ٤:٤) ها هي السماء تزور الارض «ويُعاين كل ذي جسد خلاص الله» (لو ٣:٦)

نظرة الى يسوع المسيح

قد كمُل زمان مجيء السيد المسيح بتوحيد الممالك وتوحيد اللغة وتسهيل طُرق المواصلات. كمل هذا الزمان بتلبية الشعب الاسرائيلي دعوته إذ حفظ حقائق الوحي في توراته، ونشرها في البلاد الوثنية، وبشر انبياؤه بكلّ ما ورد فيها من حياة المسيح. وكمل هذا الزمان اذ وصل العالم الى حدّ من الانحطاط جعله يشعر بضعفه وعجزه ويصرخ هاتفاً: «أقطري ايتها السماوات من فوق ولتمطر الغيوم الصديق» (اشعيا ٤٥: ٨)

والآن «فلما بلغ ملء الزمان أرسل الله ابنه مولوداً من امراة» (غلاطية ٤: ٤). وما ألذّ موضوعنا، اذ بدأنا نتكلم عن المسيح. فاذا كانت الحياة الابدية هي في معرفة الآب الازلي والذي أرسله يسوع المسيح، فما نحن آخذون به الآن من درس شخص هذا الفادي الالهي انما هو عمل تلك الحياة وحصولها فينا. الا اننا قبل التفصيل نبدأ بالاجمال

انه بعد مضي مئات اجيال الانتظار من سني الخليقة، اي سنة ١٠٥٠ بعد مسح داود الملك وست مئة سنة بعد سبي بابل، اذ كان اول قيصر مالكاً في رومة، وهيرودس الاول في بلاد

اليهودية، في أشهر قرن من تاريخ العالم القديم وعلى سلسلة جبال اليهودية، بين شواطئ نهر الاردن والبحر المتوسط الكبير، في مدينة بيت لحم وُلد طفل ولادةً عجيبة من أمّ عذراء، في حالة فقر مُدقع. فبكت تلك الام عند رؤيتها أول دمعة منه. وتبسَّمت لاول ابتسامة منه. فعاش مدة طفوليته في منزل حقير، وقضى شبابه كأحد العمال يأكل خُبزه بعرق جبينه. وبعد ان عاش ثلاثين سنة عيشة وضيعة خفية، ظهر للعالم بمظهر عجيب فاخذ ينطق بتلك الكلمات الغريبة «أنا نور العالم (يوحنا ٨:١٢). أنا الطريق والحق والحياة (يوحنا ١٤:٦). السماء والارض تزولان وكلامي لا يزول» (لوقا ٢١:٣٣). وجعل يطوف في بلاد الجليل والسامرة واليهودية ويبشر بملكوت السماء. فسبي بكلامه العقول، وتألبت الجموع حوله، حتى كانوا يتبعونه الى القفر. وقد قرن بين القول والعمل فأبدى سلطة وقدرة عجيبتين: يامر نواميس الطبيعة فتُطيعه، ويسترجع الحياة للمائت فيلبّي الموت كلمته. مرَّ على الارض صانعاً الخير، فبدَت منه الفضائل السامية التي لم يكن العالم يعهدها من قبل، وقالوا عنه: «ما أحسن كلّ شيء صنع». وأخيراً لم يصادف ذاك الخير الذي صنعه وتلك الفضائل التي مارسها الا كفران الجميل: فمات مُهاناً مرذولاً. لا بل كانت نتيجة تعاليمه وفضائله كلها الحكم عليه بالموت على الصليب. ولكنه بعد ثلاثة أيام قام حيًّا من قلب الارض وغلب قوة الموت. فتحوَّل صليبه عرشاً وقبره هيكلاً، وأصبح العالم المتمدين

يعفِّر جبينه بالتراب ساجداً لذلك المولود في بيت لحم، لابن العذراء يسوع الناصري، المعذَّب على خشبة العار، للغالب الموت والناهض بجبروته من القبر

هذا هو الرجل الفرد الذي قد جمع في مظاهر حياته منتهى الضعف ومنتهى العظمة . كان له اعظم تأثير في التأريخ، فهو محوَره وقُطبه وحجر عقده، لاجل مجيئه تعاقبت الممالك العظمى ولاجله وُجد الشعب الاسرائيلي . وبيوم ميلاده أصبحت الامم والممالك تُؤرخ أيام بؤسها وايام سعودها . ومنذ الفي سنة شرعت البشرية تستنير بهديه وبنوره . واخذ بستانها يزدهر بزنابق الطهر والعفاف ويعبق . فنشر الفضائل السامية . واندفع العالم في معارج الرقي والحضارة بتأثير مبادئه ونعمته . هذا حادث لا نظير له في التاريخ، اذ لم يشاهد قطّ، ان نجّاراً انتهت اليه مملكة العالم بأسره، وخضعت له سائر الامم المتمدينة . لم يحدث قطّ أن انساناً ابتدأ مولده في مذود، وانتهت حياته على الصليب، يسجد له العالم معبوداً على الهياكل . لم يسبُق في التاريخ أن يبتدئ انسان بمثل هذا الابتداء الوضيع لينتهي الى مثل هذا الأوج الرفيع

فلنستعن في نظرتنا الاجمالية هذه بالانجيل الذي فيه ترجمة حياته . ولنستفتِ اللاهوت الذي هو تفسير الانجيل : فمن هو المسيح ؟

اللاهوت يعلّمنا ان المسيح هو ابن الله المتأنس، اي ان الطبيعة

الالهية قد اتحدت بالطبيعة الانسانية في شخص الاقنوم الثاني من الثالوث الاقدس

وهذا الاتحاد هو اولاً ـ اتحاد اقنومي او شخصيّ، اي اتحاد طبيعتين في شخصٍ واحد

ثانياً ـ اتحاد كامل : أعني ان الطبيعة الالهية متحدة بكاملها بالطبيعة البشرية، كما ان النفس متحدة بكاملها بجسدنا

ثالثاً ـ هو اتحاد غيرُ قابل الحلّ ولا شيء يقدر ان يفصله فالكلمة هو الى الابد الاله المتأنس . والموت نفسه لم يقدر ان يفصل هذا الاتحاد حتى انه لما مات المسيح انفصلت نفسه عن الجسد الا ان كلًّا من النفس والجسد بقي متحداً باللاهوت . فالاقنوم الثاني هو الرابط في هذا الاتحاد الابدي

رابعاً ـ هذا الاتحاد فائق الطبيعة، لان الطبيعة لم تكن لتستحقه : فهو نعمة مجانية من الله رفعت المخلوق الى ان يتحد بالاقنوم الثاني . وهذه النعمة المجانية هي مصدر كلّ النعم التي نستقيها من سرّ التجسد

بما ان المسيح إله كامل وانسان كامل . فشخصه يعمل أعمالاً بواسطة الطبيعتين . له إرادة الهية هي نفس إرادة الآب، وارادة بشرية طائعة للارادة الالهية . فالمسيح يُريد كإله و كانسان، وبما أنه إله فله أفعال خاصة بالاله . وبكونه انساناً له افعال خاصة بالانسان . غير ان هذه الافعال البشرية بما انها افعال شخص هو إله فانها به تتأله وتكون ذات قيمة غير متناهية . فهي تكفّر

تكفيراً تاماً عن الاهانة غير المتناهية التي أهان الانسان بها الله . هذا تعليم اللاهوت وهو سرّ يفوق طور العقول فلا نقدر ان نفهم كنهه . ولكن لنا في طبيعتنا ما يفسر لنا حقيقة ايماننا . ولكي نفهم بعض الفهم من هو يسوع المسيح علينا ان نرى من نحن

فلنصمّ الآن آذاننا عن كل ضوضاء خارجية، ولنُصغِ الى ما في داخلنا من حركة وحياة . فماذا نرى ؟ — نرى فينا جوهرين في شخص واحد . ان في ذلك لعجباً، ولكنه عين الحقيقة . ان في كل شخص منكم جوهرين، هما النفس والجسد . ان لكل منكم جسداً، ذلك ما تشعر به حواسّكم . ولكل منكم نفس، ذلك ما يدركه عقلكم، لانكم تفعلون أفعالاً روحية، فتستنتجون من روحانيتها ان لها مصدراً روحياً من جنسها، هو النفس . انكم تعقلون وعمل العقل هذا هو روحي وكيفما قلّبتم عمل العقل لا ترون فيه شيئاً من المادّة، ففكركم ليس له جسم ولا طول ولا عرض ولا يقبل الفساد، بل هو بسيط، حركته من نفسه؛ وحيث ترون مفعولاً روحياً فلا مناص من الحكم ان مصدره روحي، وهذا المصدر انما هو النفس . فلكم نفس روحية كما لكم جسم مادي . وتعرفون ان النفس تختلف عن الجسد اختلافاً جوهرياً . ومع ذلك ترونهما متحدين احدهما بالاخر اتحاداً كاملاً . ذاك امر عجيب : كيف تجتمع الروح والمادّة ؟ ولكنه أمر لا شك فيه . فنفسكم وجسدكم هذان جوهران في

شخص واحد . ومن المبادئ الاولية المسلَّم بها انه في حال اتحاد كائنين متميزين احدهما عن الآخر، فالكائن الاعلى يحكم على الادنى، وتنسب افعال المركَّب الى الاعلى : فنفسكم وجسدكم متحدان، وبما ان نفسكم أشرف بطبيعتها من جسدكم . فللنفس الحكم واليها تُنسَب اعمال الجسد . وفيها مركز الارادة والحرية ومرجع افعال المركَّب البشري اي شخص الانسان . فكلّ ما يفعله جسدكم يُنسب الى شخصكم، وكل ما تفعله نفسكم يُنسب ايضاً الى شخصكم . فمن هذا التشبيه ترون انّ في كل واحد منكم عُنصرين أو جوهرين مختلفين وتفهمون بعض الشيء من هو يسوع المسيح

يسوع المسيح هو طبيعتان في شخص واحد . وهذا الشخص هو ابن الله . فكما أن فيكم جسداً ونفساً مختلفين الّا انهما متحدان اتحاداً تامًّا منظَّماً، كذلك في يسوع المسيح طبيعتان الطبيعة الالهية والطبيعة البشرية . أنعموا النظر، انه انسان حقيقي له عقل ومخيّلة واحساس وإرادة وقلب وجسد شبيه بجسدنا . وبالوقت نفسه هو إله حقيقي إله بكل معنى الكلمة . لا تتعجب ايها الانسان من عدم فهم هذا السرّ لان فيك سرًّا هو اضعف منه بما لا يقاس وأنت مع ذلك لا تفهمه . فاتحاد نفسك العاقلة الروحية بجسدك المادّي هو صورة ورسم للاتحاد السرّي بين الطبيعة الالهية والطبيعة البشرية في شخص السيد المسيح

فكما انه ينتج من اتحاد نفسنا بجسدنا شخص واحد، كذلك ينتج من اتحاد الطبيعة الالهية بالطبيعة البشرية شخص واحد هو يسوع المسيح. انت لك نفس وجسد . وليسوع الالوهية مع النفس والجسد . وكما انك عندما تنظر الى ذاتك ترى فيك عُنصرين مختلفين، وتقول مع ذلك إن لك شخصاً واحداً، كذلك ينبغي ان ترى في يسوع المسيح وحدة الشخص في ثلاثة عناصر . وكما انك لا تفهم نفسك فلا تتعجب من انك لا تفهم سرّ التجسد

ومن كيفية اقتران نفسنا بجسدنا نقدر ان نفهم بعض الفهم كيفية اقتران الطبيعة الالهية بالطبيعة البشرية . ان نفسكم مقترنة بجسدكم اقتراناً تامًّا به تُعطي النفس الجسد كل ما لها والجسد يعطي النفس كل ما له . فنفسكم تقدّم لجسدكم غرائزها ومزاياها وعقلها وارادتها وحريّتها وحركتها وعدم فسادها وعدم تحوّلها . وجسدكم يقدّم لنفسكم الاعضاء والأجهزة والحواسّ وفاعلية التأثير وغريزته وأهواءه . والنفس لا تكره الجسد مع ضعفه ونقائصه، لا بل كلما ازداد ضعف الانسان تمسّكت الروح به، ذلك ما نشاهده في النزاع اذ تختبط النفس بالجسد ولا تُريد ان تفارقه . وهكذا الجسد لا يُريد مفارقة النفس بعد هذا الاتحاد

فكما ان النفس مقترنة بالجسد، هكذا الطبيعة الالهية مقترنة بالطبيعة البشرية . ولكنك ايها الرب باقترانك بالطبيعة البشرية

تعطيها مزايا عظيمة، تعطي الطبيعة البشرية لانهايتك وكمالاتك التي لا حدّ لها . الآب والروح القدس اللذين معك وسيول النِّعم المتفجرة من جودك وقدرتك هي منحتك . ولكن طبيعتنا البشريّة لا تُعطيك شيئاً، لانك لست محتاجاً الى شيء، فطبيعتنا هي الفقر بالذات امام غناك، ومع ذلك تتنازل لان تتحد بها . ولا تأخذ نفسنا فقط مع عقلها وارادتها الحرّة، وجسدنا مع لحمه ودمه، ولكن نفسنا وجسدنا ايضاً مع اهوائنا وضعفنا الذي يجعلك تحتمل أعذبة غير متناهية : شابهتنا بكل شيء ما عدا الخطيئة

واذا اردتم تشبيهاً آخر على اتحاد طبيعتي يسوع المسيح باقنومه الاقدس، فلنا تشبيه آخر يقرّب لنا تصوّر هذا السر الفائق الادراك . وهو ما نراه من الخواص المزدوجة في الشجرة المطعمة، كشجرة التفاح مثلاً إذا طُعّمت سفرجلاً . فان الاصل والفرع المُطعَّم به يُثمر كلٌّ منهما ثمره الخاص به، مما يدل انه حافظ لطبيعته . وانما هناك مع ذلك شجرة واحدة لا اثنتان . ثم ان الفرع يغتذي من عصارة الاصل حتى لا قوام له الا به بحيث يكون ثمرهُ وثمر الاصل ثمر شجرة واحدة بعينها . هكذا ناسوت المسيح ولاهوته حافظ كلّ منهما على طبيعته الخاصة به، الا انهما كليهما لاقنوم واحد، هو اقنوم المسيح الالهي

وكذلك يجوز لنا ان نشبّه طبيعتي يسوع المسيح وأقنومه بقطعة من الحديد محماة . ففيها ما هو للحديد وفيها ما هو للنار .

وهي مع ذلك لا تزال القطعة الواحدة جامعة كلتا الخاصتين . وقصارى الكلام، طبقاً لتعليم اللاهوت، ان يسوع المسيح هو إله وانسان معاً في شخص الاقنوم الثاني من الثالوث الاقدس

وهذا ما يعلّمنا اياه الانجيل المقدس . فالانجيل يعلمنا ان يسوع المسيح هو ابن الله المتأنس . فهو إله وانسان معاً . هو الإله الازلي وهو المولود طفلاً جديداً . هو الكائن قبل ابرهيم وهو ابن ابرهيم . هو المالئ السموات وهو الطفل الملفوف بالقماط . هو خالق أمّه وهو ابن خليقته . هو الذي تسجد له الملائكة وهو الذي اتى الى خاصته وخاصته لم تقبله . هو ينبوع الحياة وهو ضحية الموت . هذا هو الانجيل كله : هو ظهور البشرية والالوهية في شخص السيد المسيح الواجب له السجود

يولَد في مدينة ابيه الملك داود في مغارة ضعيفاً حقيراً، كأوهن الخلائق واحقرها وأفقرها، هذه ولادة انسان . ولكن أجناد السماء يسبّحون مرنمين لميلاده، ونجم في السماء يُخبر بمولده، وملوك من المشرق يسافرون ليَروه ويقدّموا له ذهباً ولُباناً ومُرًّا، هذه ولادة ملك الدهور . يسافر الى مصر هرباً من طمع هيرودس الذي يُريد قتله، فيلتجئ الى بلاد مصر كما التجأ اليها يعقوب جدّه، هكذا ينفى الانسان . ولكن الآلهة الكذبة يرتجفون امام وقع اقدامه، وتمثال ابولّون يتحطم عند مجيئه هذه قدرة إله . يسوع المسيح ينمو في السن والحكمة وهو

يشتغل شغلاً وضيعاً كسائر اولاد الناصرة، هكذا ينشأ الانسان ولكنه يذهب الى اورشليم ليحضر عيد الفصح فيجتمع بالحكماء والعلماء و كلهم يتعجبون من كلام النعمة الخارج من فيه، هذه هي معرفة اله . يأتي بين الخطأة كخاطي، ليعتمد من يوحنا في الاردنّ، ولكن السماء تنفتح وتشهد انه ابن الله . يجرّبه الشيطان كما يجرّب سائر الناس، ولكنه يغلب الشيطان بثلاث كلمات كانها ثلاثة اسهم نفذت الى صميم قلبه الجهنمي، وحينئذ يأتي الملائكة فيخدمون ملكهم لانهم يعرفون انه إله . هو فقير يُعاني آلام الجوع والعطش، ولكنه يشبع الآلاف في القفر بخمس خبزات وسمكتين. ليس له حجر يسند اليه رأسه، ولكنه يأمر العناصر فتطيعه . ينام، ولكنه في نومه يمنع السفينة من ان تغرق في عمق المياه . يمشي كسائر الناس، ولكنه عند ما يُريد يأمر مياه البحر فتجمد تحت قدميه . التعب يُضنكه فيستريح امام بئر يعقوب، ولكن قوّته تشفي المرضى وتُقيم الموتى إنه يبكي على لعازر حبيبه وعلى اورشليم الكافرة الجميل، ولكنه يُعزي التعسين ويمسح دموعهم . أترون هذا المتألم الذي يقع ساقطاً تحت صليبه ؟ — هذا ابن البشر . أترون هذا المتجلي على طور تابور تلمع ثيابه كالشمس ويبهر مرآه عيون تلاميذه هذا ابن الله . تأملوا هذا المنازع في بستان الجسمانية الذي تولّى عنه اصحابه ولم ينل منهم ان يسهروا معه ساعةً واحدة لاجله بينما هو مستعد ان يموت لاجلهم . هذا ابن البشر . ثم اسمعوه

يتنبأ بأن ساعة الظلمة قد دقّت وان مُسلِّمه قريب – هذا ابن الله

أنظروه ضحية خارًّا على الارض في بستان الجسمانية وصارخاً أبتاه فلتبعد عني هذه الكأس – هذا ابن البشر – أترونه مقدّماً ذبيحته مسلّماً نفسه لاعدائه ثم يصرعهم بقوله لهم « من تطلبون » هذا ابن الله . أترون هذا الرجل المحكوم عليه بالموت – الذي يُقاد من محكمة الى محكمة فيسأل ويُرذل ويُقضى عليه كمجرم – هذا ابن البشر ولكن هذا المتألم الذي يشفي أذن ملكس ويهدّد قيافا بأنه سوف يأتي على سحاب السماء ليدينه وهو الذي تنصب صورته في المحاكم المسيحية فيرتجف منه القضاة الظالمون – هذا ابن الله . يصلبونه، ولكن الارض تتزلزل تحت اقدام الصليب . يموت، ولكن الشمس تخفي أشعتها . يضعونه في القبر، ولكنه يقوم بذات سلطانه . وأخيراً يراه تلاميذه ورُسله والشعب مدة أربعين يوماً بعد قيامته فيسمعونه ويضعون أيديهم في جراحه لكي يتحققوا هل هو ذاك المصلوب نفسه . وفي يوم صعوده يجمع ذويه على جبل الزيتون فيصعد امامهم الى السماء ليبرهن لهم إنه إله الحياة والموت – هذا هو يسوع المسيح – فهل هو إنسان ؟ نعم انه انسان مشمول بالضعف – هل هو اله ؟ نعم هو إله لان كل الكمالات الالهية فيه – الحكمة والقدرة والمجد . من هو يسوع المسيح ؟ – هل هو أعظم واشرف انسان وُجد في العالم بحكمته وفضائله ؟ نعم انه لكذلك . لكنه اعظم من

ذلك هو ابن الله المتأنس . لقد جمع يوماً حكماء اليونان أصحاب الفنّ البارعين وطلبوا منهم تمثالاً يستحق العبادة فاختاروا لهذا العمل فيدياس الشهير فأخذ ازميله ونقش في رخام مرمر نقي ناصع صورةً جمعت بين البهاء والمجد والكمال كانها تنطق . فلما رأى اليونان صورة المشتري العظيم الاولمبي صاحوا بصوت عظيم هذا هو الاله — لا ايها المسيحيون الافاضل — لقد ضلّ اليونان لان الرخام غير قابل لان تكون فيه الالوهية . أنا اريكم صورة يسوع المسيح واقول لكم هذا هو إلهكم — ألا اسجدوا له خاضعين خاشعين، فهو انسان وهو إله — هو ابن الله المتأنس

ميلاد المسيح

«المجد لله في العلاء وعلى الارض السلام وفي الناس المسرّة.» (لوقا ٢:١٤) ترنيمة جميلة أنشدت في هدوء الليل وسكينته. أنشودة مطربة لم يأتِ بمثلها بشر – تسبيح سماويّ قد علّمه الملائكة وهو يصف لنا واقع الحال بأفصح مقال – المجد لله في العلاء وعلى الارض السلام وفي الناس المسرة – تلك الترنيمة نردّدها وهي احسن وصف لميلاد ابن الله المتأنس فاكتفي بشرحها: المجد لله في العلاء. لقد حان الوقت ليتمجد اسم الله بعد ما اهين مدة آلاف السنين، إذ قد نسيَه العالم الوثني وأنكره مراراً شعبه الخاصّ – الشعب الاسرائيلي

المجد لله في العلاء – تلك الانشودة كان ينتظرها الآباء والاجداد وهم يتلهفون قائلين «ايتها السماوات اقطري من فوق ولتمطر الغيوم الصديق» (اشعيا ٤٥:٨). المجد لله في العلاء – المجد لعدل الله الذي اذ حق له على آدم وذريته وفاء غير متناهٍ عن شناعة تمرّدهم على عزته الالهية الغير المتناهية وكان ذلك الوفاء مستحيلًا على الملائكة والبشر اجمعين لان وفاءهم صادر عن خلائق متناهية، ابتدع بجودته وحكمته هذا السرّ العجيب

فوَلد في الزمان الكلمة المولود قبل كل زمان . فجعل الطبيعة البشرية متحدة بالطبيعة الالهية في اقنوم واحد . وبذلك حقّ للطبيعة البشرية أَن يُنسَب اليها اعمال غير متناهية، فوفى بتجسده عن خطايا البشر وفاءً تاماً جعل الله ينظر اليهم بعين الرضى والقبول

المجد لرحمة الله، لانها عوضاً عن ان تعاملنا كما عاملت الملائكة الذين بعد خطيئة واحدة دُهوروا في جهنم ليعاقبوا عقاباً ابدياً، قد شفقت على بني البشر الضعفاء فوعدت آدم بمخلص . وقد كان المخلص لهذه الخليقة الحقيرة ابن الله المتأنس الحاوي كل الكمالات الالهية . وعلى هذه الصفة شبفق الله علينا اكثر مما شفق على ابنه الوحيد اذ ضحّى به لاجلنا . وذلك سرّ يفوق كلّ ادراك

المجد لحكمة الله، لانها جمعت بين العدل والرحمة . فارضت العدل الالهي الطالب وفاءً تامًّا عن الخطيئة، واظهرت رحمةً بالبشر لا يقدر ان يتصورها انسان فيا لعمق افكار الله « ما أَبعد احكامه عن الادراك وطرقه عن الاستقصاء » (رومية ١١ : ٣٣)

المجد لله في العلاء . هوذا الله قد تمجد . فان عملًا واحداً من اعمال ابنه المتجسد يفي وفاءً فائضاً عن خطايا البشر أجمعين — قد حق للقديس بولس ان يقول « قد طفحت الرحمة حيث كثرت الخطيئة » (رومية ٥ : ٢٠) . وحق للقديس اغوسطينوس ان يهتف بمعرض كلامه عن هفوة آدم « نعمَ الهفوة التي استحقت لنا مثل هذا المخلص »

المجد لله في العلاء وعلى الارض السلام — ان السيد المسيح

لم يأتِ إلا بعد ما ارسل طلائع السلام على الارض بشيراً بين يدي رحمته . فكان الفُرس قد اخضعوا بلاد آسيا، وكان اليونان قد اخضعوا مملكة الفرس والهند، والرومان مملكة اليونان مع اوربا الجنوبية وكلّ العالم المعروف آنئذٍ وسهُل على المبشرين بالانجيل ان يبشروا باللغة اليونانية المعروفة في العالم الراقي حينذاك، وان يطوفوا في كل البلاد التي اختطّ فيها الرومان طرقاً واسعة . وصار هدوء عظيم في المسكونة . وأغلق باب هيكل جانوس الذي كان يفتح دائماً في ايام الحروب — أتى ابن الله من اعالي السماوات ليُعطي العالم السلام وقد حقّ للملائكة ان يرنموا « على الارض السلام »

على الارض السلام والأَمان من غضب الله وعبودية الشيطان خاصة . عليها سلام الله، ذاك السلام الذي كانت قد اضاعته بخطيئة آدم وبالخطايا الفعلية . فانكم تعرفون كيف حلّ غضب الله على آدم بعد خطيئته، وكيف طرده من الفردوس وجعل على باب الجنَّة ملاكاً حاملاً سيفاً ملتهباً ليمنع آدم وذرّيته من العَود اليها . فقد اصبحنا بعد الخطيئة اعداء لله مقاومين له . اصبحت السماء مُغلقة في وجهنا وصرنا ابناء الغضب وابناء اللعنة . فهوذا الله جلّ جلاله ينظر الآن بعين الرضى الى العالم لانه يرى فيه ابنه الوحيد — هوذا الله قد صالحنا . ها انه مستعدّ ان يعود فيولينا الحق بالسماء ها هو مستعدّ لان يعاملنا كابنائه . فالارض قد اضحت سماء، لان الله سكن فيها . فليشق البشر ولا يخافوا كما خاف

الشعب الاسرائيلي عند سماعه صوت الله على جبل سيناء وصرخ قائلاً لموسى لا يكلمنا الله لئلا نموت بل كلمنا انت (خروج ٢٠: ١٩) . لا يخافوا كما خاف والدا شمشون عندما رأيا ملاكاً فقالا الويل لنا لاننا قد رأينا ملاكاً . لا يخافوا كما خاف آدم في الفردوس فاختبأ من وجه الرب . فهم الآن يرون الله متردداً بينهم مشاركاً لهم في الطبيعة البشرية عائشاً كواحد منهم

على الارض السلام، ذاك السلام الذي كان يُعطيه السيد مراراً في حياته بقوله « السلام لكم » . ذاك السلام الذي ودّعنا به السيد له المجد قبل صلبه بقوله « السلام استودعكم السلام اعطيكم لستُ كما يعطي العالم سلامه اعطيكم » (يوحنا ١٤: ٢٧)

هذا هو السلام الذي يريد الله ان يكون فيكم، السلام الذي لا يكون الا في النفس والقلب . فان كان ضميركم في سلام مع الله فانتم سعداء . والّا فانكم مهما نلتم من الملذّات الحسية لا تنفكّون في اضطراب وعذاب، اذ لا سعادة بدون سلام الله – لا لذّة حقيقية بدون محبة الله . ومهما تطلبتم السعادة في الغنى فالسعادة بعيدة عنكم وضميركم لا يزال يقول لكم « ماذا ينفع الانسان لو ربح العالم وخسر نفسه » (مرقس ٨: ٣٦) فلا سلام لكم ولا راحة ولا سعادة الا براحة ضميركم وتوبتكم الى الله

هذا السلام الذي يطلبه الله من ضمائركم يطلبه من أسركم . يطلب ان تحتملوا بعضكم بعضاً . فليس احد خالياً من العيب

والكمال لله وحده . يطلب ان يسامح بعضكم بعضاً وتَدَعوا الدينونة لله . لانه القائل « لي الانتقام وانا أُجازي » (رومة ١٢ : ١٩) ويطلب منكم ان تعيشوا بهدوء وطمأنينة، لان لذة الحياة هي بالهناء لا بالغنى، كما تقولون في امثالكم

وفي الناس المسرة — ان الانسان يفرَح ويُسرّ على قدر ما يحصل من الخير . وأيّ خير اعظم من أَن نحصل على مخلص يخلصنا وهو المسيح الرب — كيف لا نُسَر وقد اصبح ابن الله بتجسده مشاركاً لنا بالطبيعة البشرية، وأصبح الله ابانا وابن الله اخانا ليس ذلك بالطبيعة بل بالنعمة . فقد تبنَّاكم الله وأضحيتم بالنعمة ابناء الله كما يقول القديس يوحنا « انظروا اي محبة منحنا الآب حتى نُدعى ونكون ابناء الله » (يوحنا ٣ : ١)

أضحيتم هيكل الروح القدس واوليتم بذلك حقًّا ان تعاينوا الله وجهاً الى وجه كما قال الكتاب ايضاً « ايها الاخوة إنه لم يتبين ماذا سنكون فيما بعد ولكن نعلم اننا سنعاين الله وجهاً الى وجه » (١ يوحنا ٣ : ٢ + ١ كورنتوس ١٣ : ١٢) « اصبحتم كما يقول القديس بطرس شركاء بالطبيعة الالهية » (٢ بطرس ١ : ٤) وهذا ما لا نقدر ان نفهمه

سرّوا ايها الاخوة . أَمَّا ان كانت الكبرياء تقف سدًّا بينكم وبين السرور إذ لا ترون منزلة رفيعة في هذه الدنيا تكافئ جدارتكم تسرون بها، فان السيد الاله الذي لا يسعه مكان وقد لاشى ذاته آخذاً صورة عبد قد صار طفلاً صغيراً يدعوكم

الى التشبه به قائلًا « ان لم ترجعوا وتصيروا مثل الصبيان فلن تدخلوا ملكوت السماوات » (متى ١٨:٣) . اذا كانت المحَن والتجارب تمنعكم من الفرح، فهوذا السيد المسيح قد اراد ان يتعذب ويصير شبيهاً بكم في كل شيء ما عدا الخطيئة . واذا كان موت شخص عزيز يحزنكم، فهو يقول لكم : ان سعادة فقيدكم عندي في السماء واذا كانت الاوجاع الجسدية تمنعكم من السرور، فهو يقول لكم : اني تعذّبت من المهد الى اللحد . تعذبت في مولدي اذ ولدت في مغارة معرّضاً للبرد والعذاب ومتّ معلقاً على الصليب مُثخناً بالجراح من قمّة رأسي الى أخمص قدَميّ

واذا كان الفقر او عدم الحصول على ما تُريدون من لباس ناعم وأثاث فاخر يؤلمكم، فهوذا السيد المسيح يقول لكم : اني ولدت في مغارة وفي مذود فوق القش ولادة فاقت بالفقر افقر الناس حالة ومت عرياناً على الصليب لكي لا تعلّقوا قلوبكم بخيرات هذه الدنيا

تأنست لأشفيكم من جراحكم من جرح الكبرياء ومن جرح طلب الشهوات المحرّمة ومن جرح الطمع الزائد في هذه الدنيا . وُلدت في مغارة لأعلمكم التواضع وأعلمكم أن تقهروا شهواتكم المنحرفة لتسعَوا وراء الخير الحقيقي الذي هو تمجيد الله وخلاص نفوسكم

فلنفرح بميلاد المسيح البهج لان الله قد تمجد . لان السلام

حل في العالم – ولكن ما معنى – في الناس المسرة – قد شرحها اكثر الآباء القديسون بمعنى اصحاب النية المستقيمة والارادة الحسنة. اي المجد لله في العلاء وعلى الارض السلام للذين لهم نية حسنة وارادة مستقيمة – فالذين ليس لهم نية جيدة لان يرضوا الله، فهولاء لم يرنّم الملائكة لاجلهم. وهولاء لا يكون لهم بابن الله الخلاص، لان الله الذي خلقهم بدونهم لا يخلصهم بدونهم. كما قال القديس اوغسطينوس

واما الذين لهم نية مستقيمة ورغبة صادقة في عمل الخير، وفي اتباع صوت الله، وصوت ضميرهم؛ واتخاذ الوسائط المبلّغة الخلاص، هولاء ليقتربوا من يسوع الطفل، وليقدّموا له مع المجوس ذهب المحبة ولُبان الصلاة ومُرّ التقشف. ومع الرعاة فليقدّموا له قلوبهم. هولاء فليقتربوا منه، فهو يتبسم لهم ويمدّ ذراعيه ليُعانقهم – هؤلاء فليفرحوا لان الله صيّرهم اخوته وورثة ملكوته. هولاء يحقّ لهم ان يهتفوا مع الملائكة «المجد لله في العلاء وعلى الارض السلام وفي الناس المسرة»

يسوع المسيح والعمل

قد نظرنا الى السيد المسيح نظرة اجمالية فرأيناه إلهاً وانساناً معاً . ثم تأملنا في سر ميلاده العجيب، واذا بنا نرى السماء تزور الارض . وها نحن ننتقل الى التأمل في حياته الخفيَّة حيث لا يبرز فيها للبشر من ابن الله المتجسد إلَّا كونه فقيراً وضيعاً عاملًا فنرسل نظرة حبّ واحترام الى ما تحجَّب وراء تلك السجوف المقدّسة مدة ثلاثين عاماً من جلال وقُدرة وسناء تدبيره وأنوار تعليمه . ففي ذلك امثولة كبيرة للانسانية المتألمة

قضى السيد المسيح ثلاثين سنة جعلها تمهيداً للعمل العظيم الذي جاء لاجله عمل التبشير بملكوت السماوات وإنجاز الفداء ببذل دمه الكريم . فلم يُبدِ في هذه السنين الطويلة ما يسترعي الانظار سوى أنه في السنة الثانية عشرة من عمره ناظر العلماء في الهيكل فتعجبوا كلهم من كلام النعمة البارز من فيه . فماذا كان يعمل اذن في هذه الثلاثين سنة ؟ — لم يذكر الانجيل عنه سوى انه كان ينمو في القامة والحكمة والنعمة امام الله والناس (لوقا ٢:٥٢) . اي ان هذا الصبي الالهي كان يُظهر حكمته وقداسته بحسب تقدّمه في السنّ، كما ان الشمس يسبقها فجر ضئيل ثم

تبزغ صاعدة قليلًا قليلًا وهي تزداد نوراً وحرارةً بالنظر الينا مع انها في نفسها وبالنظر الى نورها وحرارتها على حال واحدة لا تتغير . فقد اختار بحكمته هذا النشؤ ليتشبه بنا في كل شيء وعاش قبل أن يظهر للعالم عيشةً خفيَّة وضيعة تُخزي كبرياء البشر — لم يُعرف عنه سوى أنه كان ابن النجار «أليس هذا هو ابن النجار» (متى ١٣: ٥٥) الذي نعرف اباه — لم يُعرَف عنه إلا انه كان مساعداً لابيه اي كان نجاراً

فلماذا اشتغل السيد المسيح، ولماذا احترف هذه المهنة الوضيعة؟ هل اتى ليزيد عدد التعسين في هذه الدنيا، وهل كان محتاجاً الى العمل لكسب معاشه؟ لا لعمري، لا هذا ولا ذاك، لان الانجيل الذي يسميه ابن النجار يقول لنا عنه انه عند ما أراد حوّل الماء خمراً، وكثّر خمس خبزات فاشبع منها خمسة آلاف، وأمر بطرس فأخرج ديناراً من فم اول سمكة اصطادها ودفع عن سيده وعن نفسه . ثم انه هو الذي يدعو التعِسين والثقيلي الاحمال ليريحهم — مارس العمل ليوطّد شريعة العمل ويقدسها . ومارس من العمل مهنة وضيعة ليشجِّع الوضعاء والثقيلي الاحمال ويرفع شأنهم، وهذا ما نحاول تبيانه

١ً العمل شريعة بوطدها المسيح ويقدسها

قد قضى السيد المسيح معظَم حياته في مدينة صغيرة من

الجليل تُدعى الناصرة مبنية على لحف جبل بين الصخور الناشزة تبدو عن بعد كغابة تظلّلها اشجار الزيتون والرمان والتين والكروم — هناك في بيت صغير ضيّق النوافذ مُنخفض المدخل وفي حانوت حقير قد قضى ربّ الارباب حياته الخفيَّة وقد ذكر القديس بونونتورا عن ايام صباه فقال «لم يكن لمريم خادم في البيت سوى ابنها الالهي» ومنذ ترعرع اخذ يساعد اباه في العمل، وهكذا صار ذاك الذي برأ الخلائق وزيّن الافلاك بمصابيح الكواكب يستخدم المنشار بيده اللطيفة والعرق يكلل جبينه البهيّ الذي لا ترتوي الملائكة من الرنوّ اليه

وعلى هذه الطريقة كان يأكل خبزه بعرق جبينه . وبقي على هذه الحال زمناً طويلًا كان يمكنه في خلاله أن يظهر للعالم بسامي تعاليمه وجليل قدرته وعجيب معجزاته . إلّا انه وهو القائل «تعلموا مني فاني وديع ومتواضع القلب» (متى ١١ : ٢٩) اراد ان يعلمنا بعُزلته هذه تعليماً عملياً كيف ننصرف الى واجبات حالتنا الخاصة بالعمل والنشاط . وكأنه يقول لنا تعلموا مني اني اشتغل، فعلى كل انسان أن يشتغل ويحذو حذوي ويقتفي آثاري أنا الذي اتيت لافتدي البشر واكون قدوتهم

يتوهّم البعض ممن لهم ثروة واسعة انهم غير مُلزمين بالعمل ويتمنى غيرهم ان يحصلوا على ثروة طائلة لكي ينصرفوا الى الفراغ والبطالة . على ان العمل شريعة لا بدَّ منها للانسان ان الله تعالى جلّ جلاله هو أسوتنا في العمل الدائم فهو الحياة

بالذات ومن مميّزات الحياة أنها فِعلٌ مستمرّ . وبهذا المعنى قال السيد المسيح « إنّ ابي حتى الآن يعمل وانا اعمل » (يوحنا ١٧:٥) فعمل الحياة الداخلي فيه تعالى لا انقطاع له، وهو يستمرّ بمبادلة العلاقات الازلية بين الاقانيم الثلاثة المعبودة . فالاب يُصدر الابن على الدوام عن طريق الفهم أي بتصوّره ومشاهدته ذاته وكمالاته الغير المتناهية والاب والابن يتبادلان المشاهدة السعيدة يحبّ احدهما الآخر ويصدران الروح القدس الذي هو حبهما الجوهري المتردّد بينهما بلا انقطاع منذ الازل . فيا له من عمل عظيم مُدهش هو سعادة الله تعالى منذ الازل والى الابد . ثم ان هناك عملاً خارجياً يقوم في خلق العالم وحفظه في قيد الوجود — على انه تعالى خلق العالم في ستة ايام ولم يُخلقه كله دفعة واحدة بقوله « كُنْ » بل خلقه شيئاً فشيئاً ليعلّمنا طريقة العمل . خلق العالم اولاً سديماً منتشراً في الفضاء ثم بثّ فيه النور، ثم فرق بين الكواكب ورشقها لتدور في الفضاء، جمّد قشرة الارض وألّف بين اجزاء هذا الكون الفسيح بالنظام العجيب الذي نراه . خلق العالم المعدنيّ ثم النباتيّ ثم الحيوانيّ الى ان خلق تُحفة التحف في العالم المنظور الا وهي الانسان ملك الخليقة — خلق هذا العالم في ستة ايام وهي ستة اطوار تفوق مدّتها المئات والالوف والملايين من السنين لكي يعلّم الانسان انه ينبغي أن يعمل في ستة ايام الاسبوع قبل أن يستريح في اليوم السابع . فالله جلّ جلاله هو مثالنا في العمل الدائم

العمل شريعة في الكون فرضه الله على آدم حتى وهو في جنة الفردوس قبل الخطيئة اذ أقامه فيها ليفلحها ويحرثها هو وذرّيته من بعده وجعله ملكاً على الارض بقوله « انموا واكثروا واملأوا الارض واستولوا عليها » (تكوين ١ : ٢٨) لكي يستولي الانسان على الارض ينبغي ان يحفر مناجمها ليخرج منها الحجارة الكريمة، وأن يقلّب ارضها ليستخرج منها النبات الذي يغتذي ويتعالج به والزهور التي تقرّ ناظره وتسرّ خاطره . ينبغي ان يربّي الحيوان ليغتذي بلبنه ولحمه ويستخدمه لحاجاته، وان يدرس سُنن الطبيعة التي وضعها الله فيها ليسخّر بخارها لنقله وكهرباءها لانارته وبرقها لتسيير خواطره وبحارها لاستخراج الكنوز من اعماقها واتخاذ الطرق فوق أثباجها ومجاراة الحيتان في لججها وليرتفع الى اعالي الفضاء ليسابق الطير على متون الهواء — عليه ان يكون ملكاً متيقظاً نشيطاً ليعرف كيف يسوس مُلكه . فالعمل كان ضرورياً قبل الخطيئة الاصلية وظلّ كذلك بعدها

الا ان هذا العمل الذي كان واجباً لذيذاً قبل الخطيئة الاصلية أصبح واجباً شاقًّا بعدها . فقد لعن الله الارض وأمرها ان لا تنبت للانسان الا شوكاً وحسكاً اذ لم يحرثها بعرق جبينه « ملعونة الارض بسببك وشوكاً وحسكاً تنبت لك — بعرق جبينك تاكل خبزك » (تكوين ٣ : ١٨ و١٩) . فاصبح الانسان مضطرًّا الى العمل لكي يعيش ولكي يكفّر عن الخطيئة الاصلية، وعن خطاياه الفعلية . رأى الله الانسان متمرّداً بالخطيئة

ففرض عليه العمل ليذلل الجسد ويخضعه للنفس . وبما ان العمل شريعة الهية قبل الخطيئة وبعدها أصبح لا بدّ منه لجميع الناس

العمل ضروري ليس للتكفير عن الخطيئة فقط بل تحفُّظاً من السقوط فيها . قد اعطانا الله قوى عقلية وجسدية، فان لم نستعملها عاملين في سبيل الحقّ والخير فالبطالة توقعنا في أشراك الضلال والفساد

لا تكون فضيلة الانسان مكفولة مهما كانت راسخة إن لم يعمل، وإلّا فانها لا تلبث ان تتحول الى رذيلة . ولولا اضطرار الناس الى العمل لكان شغلهم الشاغل القبائح والجرائم . فليس لنا أن نشكو من ضرورة العمل الذي هو مدعاة لممارسة الفضائل بل علينا ان نحذر من البطالة التي هي أمّ الرذائل

على ان ضرورة العمل ليست للوقاية من الفساد فقط بل لاستعمال القوى التي وهبها الله للانسان . فان لنا قوى ادبية وعقلية ومادّية حياتها في السعي والعمل . وهي الوزنات المذكورة في الانجيل . فاذا تاجرنا بخمس وزنات وقدّمنا عشراً زادنا الله منها وأمّا اذا طمرنا وزنتنا في الارض فما امامنا الا حظّ ذلك العبد البطّال الذي قال عنه سيده « خذوا منه الوزنة واعطوها للذي له عشر وزنات والعبد البطال ألقوه في الظلمة البرانية هناك يكون البكاء وصرير الاسنان » (متى ٢٥ : ٢٨ ـ ٣٠) ففي العمل الخلاص وفي البطالة الهلاك، وما اجدر العمل بعدما مارسه

وقدّسه يسوع ان نقوم به كأمنية عذبة وان نتطلبه كما نتطلّب حقلاً وجدنا فيه كنزاً مُخفى

٢ً مارس يسوع مهنة وضيعة يشجع الوضعاء والقبلي الاعمال

بعد ان فهمنا ان العمل ضروري، يجوز لنا أن نتساءل لماذا لم يختر السيد المسيح مهنة رفيعة، بل مارس العمل اليدوي الوضيع — فالجواب ان خطة السيد المسيح في كل حياته خطة تواضع ومعاناة اختيارية . فبعد أن اخلى ذاته كما قال القديس بولس آخذاً صورة عبد وذلك ليعلمنا التواضع، كان يُمكنه وهو ابن الله وابن داود ان يُولَد في قصر فخم على أنعم مهدٍ وأفخر أثاث فوُلد في مغارة حقيرة واضطجع في مذود البهائم . كان قادراً ان يتعاطى اجمل الفنون كفنّ التصوير مثلاً، فيصوّر صوراً تخرّ الانسانية ساجدةً امام جمالها، او يعالج القريض وينشد اشعاراً تتهلل لها البشرية طرباً . ذلك كان سهلاً عليه . غير انه زاول الاعمال اليدوية، لا ليبخس حق العمل العقلي الذي هو ارقى درجةً وارفع شأناً، بل ليبارك مشقّات ومصاعب العمل اليدوي المجهِد الذي هو شغل الفريق الاكبر من البشر ونصيب الضعفاء والفقراء والمعوزين عامّةً — أمّا العمل العقلي فليس ذووه باحتياج الى منشّط ومعزٍّ لانه بطبيعته شهيّ لذيذ . وهم يحسبونه مفخرةً وعُنوان كرامة ومورد ثروة . بل انه تعالى بهذا التدبير الخلاصي

أراد أن يتحول الى بركة ونعمة ما كان قد جعل بعد الخطيئة والطرد من الفردوس عقاباً صارماً ووصمة عارٍ على البشرية يوم قال الله لآدم «بعرق جبينك تأكل خبزك»

اراد اذن السيد المسيح بمعاناة العمل اليدوي ان يعزّي الصنّاع ويشجّعهم . لان الصناعة كانت محتقرة في ذلك العصر حتى ان اعظم الفلاسفة كافلاطون وأرسطو كانوا يقولون «ان العمل اليدوي لا يليق بالرجل الحرّ» وعلى مثالهم كان الرومانيون يحسبون انهم يدنّسون أيديهم اذا هي مسّت آلات الصناعة، ويتوهمون ان البطالة سِمة الحرّ والعمل اليدوي وَسم العبد — سمع ابن الله زفرات الشعب المسكين العامل فأتى وكان من مقاصد رحمته ان يخصّ هذا الفريق الضعيف من البشرية بشرفٍ وسيم لينزل الاعزاء عن الكراسي ويرفع المتواضعين . فتشبّه بالضعفاء والمساكين . وها ان حانوت الناصرة الوضيع لا يزال مصدر قوّة وبهجة ونشاط للرازحين تحت نير الاعمال اليدوية ونير حكمة سماوية وتعاليم الهية لحزي حكماء هذا العالم وفلاسفته

فيا أيها الصانع الحزين، هوذا يسوع الصانع يمدّ لك يديه . فلا تخجل بل ارفع رأسك لأن يسوع معك، وقد أراد ان يكون بجانبك . ففي تعبك ومشقّتك قل «اني أحب صناعتي لأن يسوع كان صانعاً مثلي» . واذا كنت على الرغم من أتعابك لا تملك الا ما تحصل به قوتك اليومي وترى أولادك تحت رحمة الأقدار، واذا ما جاشت في قلبك أفكار التذمّر والتضجر فاسكت

حينئذٍ سكوت المحبَّة والاحترام ليسوع وقل الهي كان مثلي

أما انت أيها الغني المتكبر الذي تحتقر الصناعة والاعمال اليدوية فلا اذكِّرك كيف لا يمكنك أن تعيش بدونها . وهل تستغني عن الصناعة والفلاحة ـ كيف أذهلك مالُك وتيهُك أنه بالحراثة يفتح الحارث أخاديد الارض ويرمي فيها البذار الذي بعد قليل يحصده سنبلًا فيدرس قمحه ويذرّيه وينقّيه ويطحنه ويعجنه ويخبزه ليقدّم لك قوت حياتك . بالصناعة يحوّل الصانع القطن ووبَر البهائم الى منسوجات تحتاج اليها في لُبسك وبهرجتك ـ بالصناعة يحوّل النجار ذاك الخشب الغليظ الى أثاثٍ فاخر تريح عليه جسمك وتزّين به بيتك ـ بالصناعة تحصل على تلك الآلات العديدة التي تقدّم لك خدماً لا تُحصى وتسهّل عليك طرق المعاش

لا احتاج ان اذكِّرك بكل ذلك لأخزي كبرياءك وأعطف قلبك تُجاه العمّال الوضعاء، بل حسبي تفكيرك بأن يسوع كان عاملًا وضيعاً

والنتيجة ان ممارسة السيد المسيح للاشغال وللاعمال اليدوية تعلّمنا ان نحبّ العمل ولو كان شاقًّا لنقي انفسنا من الفساد ونمارس الفضيلة بممارستنا الجهاد في هذا العالم طبقاً لحكمة الله واقتداءً بالمثال الاعلى في اقنوم يسوع العامل . فنتجه بكل مواهبنا الطبيعية وقوانا العقلية ومنازعنا الادبية الى غايتنا القصوى . وبذلك نحقّق فينا حياة السيد المسيح ونكمل آلامه المقدسة في اجسادنا طبقاً لقول الرسول

كم من الاغنياء الافاضل يعملون بلا كلَل ولا ملَل . وكم من السيدات الفاضلات لا يتركن الابرة لمزاولة أعمال الرحمة المتنوعة وعدم تضييع الوقت الثمين – ما اعظم المثال الذي نراه في يسوع العامل فهو تعزية للصانع ومدرسة للفضيلة ومجلبة للأجر وواسطة للاحسان – لعَن السيد المسيح شجرة التين لكونه لم يجد فيها ثمراً . ولعن الارض التي تقبل مطر السماء ولا تُعطي ثمراً وكذلك الذي اخذ الوزنة ولم يتاجر بها بل طمرها في الارض – سخط عليه سيده وسماه العبد البطال وحكم عليه بالظلمة البرانية – واما الذي تاجر وقدّم الوزنات مضاعفة بالربح فقد سمع السيد يقول له « نعمًّا ايها العبد الامين وُجدت اميناً في القليل فسأقيمك على الكثير ادُخل الى فرح ربك » (متى ٢١:٢٥) – فلنحبّ العمل ولو كان شاقًّا مقتدين بالسيد المسيح لنستحقّ مكافأة العبد الامين

تعليم السيد المسيح

بعد ان استعدّ السيد المسيح ثلاثين سنة في حياة خفيّة لعمل التبشير بالخلاص، خرج من ظلام الناصرة واعتمد من يوحنا في الاردن ليطهر المياه معطياً اياها قوّة على غسل الانفس واشترك في ظهور الثالوث الاقدس الذي يتنصر العالم باسمه . ثم قضى اربعين يوماً واربعين ليلة صائماً تمهيداً للعمل العظيم وحينئذٍ اخذ يجول في بلاد الجليل واليهودية ناشراً تعليمه الالهي الذي لم ينطق بمثله إنسان ذاك التعليم الذي مدّن المسكونة وبثّ فيها انوار الحق والخير . وقبل ان نبحث في اعماله وفضائله ولاهوته، فلنسمع الان كيف علّم وماذا علّم

١ً كيف علّم

اذا تكلم الكتبة والفلاسفة والخطباء والعلماء وكان اسمهم افلاطون او ارسطو او القديس توما الاكويني او باستور فانهم يعلّمون العلوم الفلسفية والادبية والطبيعية باسم الحقيقة . فيضعون المبادئ ويذكرون الحوادث ويستنتجون النتائج . واذا تكلم القضاة بعد سماع كلام الشهود ومرافعة المحامين وقضوا في محكمتهم

على مُجرم بكلام ترتعد له الفرائص فانهم ينطقون باسم العدل . واذا أمر القوّاد جنودهم باقتحام المخاطر وبذل النفس ومهاجمة المدافع التي تقذف نار الموت فانهم يأمرون باسم الوطن . واذا أمر الملوك الشعب . واذا كانوا دينيين يتكلمون باسم ملك الملوك ورب الارباب لكي يسندوا عرشهم الى السماء والى الارض . واذا تكلّم المشترعون ومؤسسو الديانات والانبياء يقولون انهم مُرسَلون من الله ويتكلمون بإلهام منه . ولو تكلم هولاء الفلاسفة والخطباء والعلماء والقضاة والقوّاد والملوك والأنبياء باسمهم لهزئ العالم بهم، ولم يكن كلامهم الّا صوتاً تحمله الرياح فتبدّده ولا يبقى له من اثر ولم يجترئ انسان أن يتكلم بقوّة سلطة يدّعي أنه مصدرها

ولكنّ شخصاً واحداً على عهد طيباريوس قيصر في السنة التاسعة والعشرين من عهدنا خرج فجأة من حانوت النجار وتكلم بلهجة لم يكن للعالم عهد بمثلها من قبل . يدعو الناس الى الايمان به بكلام يفوق كلام الفلاسفة والمشترعين والانبياء ويتكلم بسلطة مطلقة لا تحتمل المراجعة

فلم يقل كباقي المعلّمين – اني أُريكم الطريق بل قال أنا الطريق ولم يقل كباقي العلماء اني أعلمكم الحق بل يقول انا الحق ولم يتكلم كباقي المشترعين والانبياء – الحياة في حفظ الوصايا – في حفظ ما يُوحيه الله بفمنا . بل انه قال انا هو الحياة – لا يقول انا رسول من عند الله – بل أنا والآب واحد –

تكلّم عن اسرار الله كانها اسراره وهو مصدرها – لم يقل كونوا قديسين لان الله يُريد القداسة – بل كونوا قديسين لاني أنا قدّوس – قال ان الحياة بالايمان به – أنا الاول والآخر، انا المتكلم معكم منذ البدء . وأكّد ان كلامه أبقى من السماء والارض « السماء والارض تزولان وكلامي لا يزول »

لو سمعتم انساناً ينطق بمثل هذا الكلام لما تمالكتم ان تضحكوا هازئين وان تعزوا كلامه الى الجنون . ولكن لا نعرف ان احداً تجاسر فضحك من كلام السيد المسيح – وانما نعرف ان فريقاً آمنوا به وأحبوه وفريقاً رفضوا كلامه وأبغضوه . الا انهم كلهم فهموا انه كلام جدّ ورصانة، حتى انّ اعداءه الذين أرادوا ان يمسكوه ليقتلوه قالوا عنه « ما نطق انسان بمثل ما تكلّم هذا » ان لهجة السيد المسيح لهجة خارقة العادة – هي لهجة إله موجّهة الى العالم بأسره

اذا برع كاتب فانه يبرع عموماً في لُغته وفي بلاده . ومتى تُرجمت افكاره ضعُفت قوّتها . فديموستين لم يكن لكلامه وقع الا في الاغوراء اي في الساحة المعدّة للخطابة . وشيشرون لم يتكلم الا في الفوروم وهو مثل الاغوراء . واذا سكتت الارض امام كلام الاسكندر والقيصر فما ذلك الا في البلاد التي تسلّطا عليها – موسى كليم الله والمشترع العظيم قصر عنايته وكلامه على شعبه . ولكن السيد المسيح يوجّه كلامه الى كلّ البلاد وكل الشعوب، يبشر السيد المسيح بملكوت السموات

في بلاد اليهودية وفي الجليل بين البحر المتوسط ونهر الاردن ولكن تعاليمه تجول في بلاد اليهود واليونان والرومان، فتصل الى افسس وكورنثس وأثينا وروما واسبانيا وأميركا واليابان والهند والصين، ولم يبقَ جزء من العالم لم يسمع كلامه. فخضع له ما ينيف على سبع مئة مليون، لا بالسيف ولا بالمال حتى ولا بالفصاحة، ولكن بقوة كلمة السيد المسيح التي فيها الحياة. والذين يبشرون بكلامه لا يخافون الاضطهاد ولا يقصدون من التبشير المنفعة. واذا كان لاقوال الفصحاء وقعٌ فما ذلك الا في عصرهم، وبعد ان كانوا يظنون أنفسهم انهم افتنوا العقول واستلبوا الالباب وألّفوا الكتب التي هي فخر الانسانية، ترى كتبهم بعد موتهم تُصفّ على طبقات المكاتب فيغطّيها الغبار. وهيهات ان يأتي من حينٍ الى آخر مؤرخ او أثريّ شهير فيزيل عنها تلك الغبار قليلًا الى أن يأتي السوس فينخرها. فمن من اليونان يذكر الآن ما قيل في هيكل دِلْف؟ ومَن من المصريين يذكر ما عُرف من اسرار إيزيس؟ ومن من الرومانيين يعرف ما كُتب في هياكل رومة الوثنية؟ واذا كان الثوروي الفرنسي ميرابو قد هيَّج بلاده وبواسطتها هيَّج العالم فمن يرعي اقواله الآن اذناً صاغية؟ — أقوال البشر لا تجتاز العصور وكلام السيد المسيح موجه الى كل الازمنة

اقرأوا إنياذة ڤرجيل او أناشيد هوراس او تأريخ تاسيت تروا فيها لهجة خاصة بعصر اغسطس. واقرأوا شعر المتنبي

ومقامات الحريري، ترَوا ان غير العربي لا يكاد يفهمها . وهيهات ان يفهمها كلّ العرب على توالي الايام – امّا الانجيل فاقرأوه في لغته الاصليـة او ترجموه الى كل اللغات – اقرأوه في كل عصر وفي كل آن، تروه بطلاوته الأولى، وجميع البلاد وجميع الشعوب تلتذّ به على السواء في كلّ عصر وفي كل مكان . ان الممالك قد هوت والفلاسفة قـد تلاشوا مع تعاليمهم والانجيل باقٍ – مؤلفات البشر ان كانت فصيحةً لا يفهمها الّا العـدد القليل، وإن كانت بلغة عاميَّة مبتذلة فالعلماء يحتقرونها امّا السيد المسيح فقد خاطب العلماء والجهال . فهو يحلّق فوق الجبال الشامخة وينزل في الوديان العميقة . المفكّرون والفلاسفـة لم يصلوا ان يسبروا غوره منذ عشرين جيلًا، والاولاد والجهال يفهمون كلامه ويغتذون منه . فالسيد المسيح هو افصح خطيب وأبسط خطيب – لموسى كليم الله تشابيه بديعة، ولأفلاطون لغة أنيقة ساحرة، ولشيشرون استدارات جميلة رنّانة ولكن لم يتكلم انسان بمثل كلام السيد المسيح الجامع بين السموّ والبساطة

٢ً ماذا علّم

لقد علّم السيد له المجد بسُلطة إلهية، ووجّه تعليمه إلى العالم بأسره لجميع الازمنة والامكنة . فما هو ملخص هذا التعليم ؟ علّمنا السيد له المجد أحسن تعليم عن الله وعن الانسان ـ علّمنا

الوسائل المؤدية الى الخلاص ـ ووضع اساس التمدين في العالم، بنوع ان الامم ترتفع فيه او تهبط منه على قدر ما نعي من تعاليمه ـ علمنا ان الله ليس مستبدًّا قاسياً، بل هو أبونا، خلقنا ولا يزال يعتني بنا ويُحصي شعر رأسنا ولا يسمح بان تسقُط منه شعرةٌ الا بإذنه . وعلمنا ان الانسان المخلوق للسعادة قد عصي خالقه، فأصبحت الانسانية مغضوباً عليها ومحتاجة الى التكفير عن خطاياها، فاقتصّ الله العادل لاجلها من ابنه بان بذله ليخلص جنس البشر شفقة عليهم . وعلمنا السيد المسيح ان مجيئه الى الارض هو محبة لنا، وقال ان حبه لا يفوقه حبّ «ما من حبّ اعظم من هذا ان يبذل الانسان نفسه دون احبائه» (يوحنا ١٣:١٥) . فقبِل ان يضحي بنفسه، لانه اراد ان يكون حمل الله رافعاً خطايا العالم . علمنا ان روحه القدوس المنبثق من الآب والابن هو ثمرة المحبة المتبادلة بين الآب وكلمته وهو مساو لهما في الجوهر، فهو المنير العقول وهو المقدّس النفوس وهو المعزي القلوب لا يحلّ الا في القلوب الطاهرة البارّة

علّمنا ان النفس المغتسلة باسم الثالوث الاقدس في سر المعمودية تُصبح ابنةً لله وهيكلاً للروح القدس ومشاركةً للطبيعة الالهية . وجعل اساس ديانته على محبة الله ومحبة القريب . وأراد ان نُحبّ القريب كما نحب انفسنا وان نعامله كما نحب ان يعاملنا ـ «ما تريد ان يفعله الناس بك فافعله أنت ايضاً بهم» (متى ١٢:٧) . لا بل اراد ان نُعدّ ما نقوم به من افعال المحبة نحو القريب كأنه

موّجه الى شخصه الكريم نفسه « الحق اقول لكم ان كلّ ما صنعتم باحد اخوتي هؤلاء الصغار فبي فعلتموه » (متى ٢٥:٤٠) . طلب منا ان نحب لا اصدقاءنا فقط بل اعداءنا ايضاً، وان نصلي لاجل من يضطهدنا، وان نصفح عن قريبنا في اليوم سبعين مرة سبع مرات . اي دائماً . وطلب ممارسة افعال الرحمة ووعدنا يوم الدينونة بأن يُحاسبنا بنوع خاص عن زيارة المرضى والمحبوسين واطعام الجياع وكسو العراة

أفهمنا ان قيمة نفسنا تفوق كنوز الارض كلها وان خلاصها اهم من اقتناء خيرات الدنيا « ماذا ينفع الانسان لو ربح العالم وخسر نفسه » (مرقس ٨:٣٦) . وقد حذّرنا ان لا نلهي قلبنا بهموم هذه الدنيا . وحذّر الاغنياء ان يتّكلوا على غناهم وانذرهم ان لا يغرقوا في ملذّات هذه الدنيا « يا جاهل في هذه الليلة تُطلب نفسك منك فهذا الذي اعددته لمن يكون ؟ » (لو ١٢:٢٠) . وجعل التواضع واسطة للارتفاع امام الله والناس بقوله « من ارتفع اتضع ومن اتضع ارتفع » (لوقا ١٤:١١) . طلب منا الكفر بالذات كشرط اساسي لاتباعه فقال « من لم يحمل صليبه ويتبعني فلن يكون لي تلميذاً » (لوقا ١٤:٢٧)

اعطانا الصلاة والاسرار واسطة للحصول على النعم المكتسبة بدمه الاطهر . فأمرنا بان نصلّي ولا نملّ، وعلمنا خاصّة تلك الصلاة الربّية الجميلة الجامعة عواطف محبتنا نحو الله واحتياجات ضُعفنا — جعل الايمان والعماد كواسطة للخلاص « من آمن واعتمد يخلص »

(مرقس ١٦:١٦) . وجعل لنا في سر التوبة واسطة نغسل بها نفسنا من دَنَس الخطيئة . واراد ان يجعل غذاء نفوسنا جسده ودمه الاطهرين، وأنذرنا بالموت اذا لم نأكل جسد المسيح ونشرب دمه « إن لم تأكلوا جسد ابن البشر ولم تشربوا دمه فليس لكم حياة في انفسكم » (يوحنا ٥٤:٦)

أسس كنيسة لتواصل التبشير بتعليمه وضمن لها العصمة والبقاء فلا يتسرب الى تعليمها فساد، ولن تقوى عليها ابواب الجحيم . واعطاها مفاتيح ملكوت السموات لتحلّ وتربط . وامرها بان تسوس رعيته لتقودها الى مراعي الخلاص

وضع أساس التمدين في العالم للافراد والعيلات والمجتمع الانساني، فعلمنا اننا كلنا اخوة متساوون امام الله، ولا يمتاز الانسان من انسان الا باعماله، واذا جعلنا امتيازاً في محبتنا فليكن للفقراء والمرضى والتعسين، لان اجرنا سيكون عظيماً في السموات

وضع اساس التمدين للعيلات بقوله « ما جمعه الله لا يفرّقه انسان » (متى ٦:١٩) . فاقتضى عدم انحلال الزواج ودوامه ما دام كلا الزوجين في قيد الحياة ـ فهذه الشريعة حصنٌ وحماية شرف الامرأة، وصيانة للبنين من الفساد، وضمانة لثبات الحبّ المتبادل بين الزوجين ـ ولا رقي في الحياة العيلية والاجتماعية الا بها

ووضع اساس التمدين للمجتمع الانساني بفرض الطاعة على المرؤوسين للرؤساء بقوله « لا سلطة الا من الله » (رومة ١:١٣) .

« أعطوا ما لقيصر لقيصر وما لله لله » (متى ٢٢ : ٢١) . وايجابه على الروساء الرفق بالمرؤوسين بقوله : « من اراد ان يكون الاكبر فيكم فليكن كالاصغر ومن اراد ان يكون اولاً فليكن للكل خادماً » (متى ٢٠ : ٢٦ ـ مرقس ١٠ : ٤٣)

هذا هو مُلخَّص التعليم الالهي الذي بثه يسوع في المسكونة، وأمر رسله بان يُعلنوه . وقد اخذ التمدين الحقيقي ينتشر في العالم منذ اخذ هذا التعليم في الانتشار فكلّ بلدة سمعته وأصغت اليه وحافظت عليه ارتفعت الى أوج العمران . فبلادنا الشرقية والامم البربرية وبلاد أميركا الجديدة لم تعرف التمدّن والترقي الا لما حفظت هذه الشرائع وانبثت فيها انوار التعاليم الانجيلية . وكل بلاد لم تعرف هذه التعاليم او ابتعدت عنها بقيت تتسكَّع في ظُلمات الهمجية، وشرعت بالتقهقر كبعض البلاد الاوربية التي نراها ترجع الى الهمجية بقدر ما تبتعد عن تعاليم المسيح

وبالجُملة منذ جاء المسيح المخلص أثَّرت تعاليمه في العالم، فاضاءت أنواراً وفاحت منها فضائل وبثت روح الرقي والعمران ـ منذ جاء المسيح بدأ الانسان يعرف ان الله أب حنون يهتم به ويُحصي شعر رأسه ولا يسمح ان يحدث له شيء بدون اذنه . منذ جاء المسيح عرف الانسان قيمة نفسه ففهم ان الله تبنَّاه وانه أُعدّ لميراث ملكوت سماوي يرى فيه الله وجهاً الى وجه وعرف قدر نفسه ففهم انها تفوق كنوز الارض كلها

منذ جاء المسيح بدأ الانسان يمارس فضائل لم يكن يعرف

اسمها من ذي قبل – فضيلة الطهارة التي تجعله في مصاف الملائكة عفافاً وترفع افكاره الى عالم سماوي . فضيلة التواضع التي ترضي الجميع وتجعل العيشة الاجتماعية فردوساً ارضيًّا . منذ جاء المسيح اصبح لليتيم أب وللفقير مساعد وللمريض معالج وللشيخ التعيس المهجور مؤاسٍ ومعزٍّ ولكل امراض الانسانية التعيسة ادوية هي كالبلسم للجراح – منذ جاء المسيح تشددت روابط الأسرة وأصبحت المحبة المتبادلة بين الزوجين مكفولة وتربية البنين مضمونة والسعادة العائلية وطيدة . منذ جاء المسيح اصبح الروساء يخدمون مرؤوسيهم وانتشرت منافع الاخاء الحقيقي والحرّية في عمل الخير والمساواة الحقيقية، واخذت النخاسة تتقلص ... طبقاً لقول الرسول القائل : ليس يوناني ولا يهودي ولا ختان ولا غلَف ... ولا عبدٌ ولا حرّ بل المسيح هو كل شيء وفي الجميع (غلاطية ٣:٢٨) . فكلّ بُقعة تمارس تعاليم المسيح هي فردوس ارضيَ . وكل بُقعة لا تعرفها او تبتعد عنها هي جحيم لا يُطاق

فإلى تعاليمك ايها السيد المسيح نهرع طالبين اليك ان ترينا الطريق التي تؤدي بنا الى الخلاص والى تعاليمك ايها السيد نلتجئ طالبين ان ترينا الحق في ظلام هذه الدنيا الغرور . والى تعاليمك ايها السيد نُسرع لاننا بها نحصل على حياة النعمة وعلى الحياة السعيدة التي تجعلنا نتحد بك مدى الابد . مع الملائكة والقديسين

عجائب المسيح

رأينا ان تعليم السيد المسيح إلهي يفوق عقل البشر فهل من مطابقة بين اقواله وأفعاله — هل في أفعاله ما يُلزمنا أن نذعن لتلك الاقوال وأن نؤمن بما فيها من عقائد ونتبع ما فيها من وصايا ؟ — هل أيّد تعليمه بسلطة الهية ؟ هل جعل على تعاليمه ختم الله بالعجائب والنبوءات التي لا تحتمل الريب ؟ اننا نسمعه يستشهد على صدق أقواله باعماله وعجائبه ويقول « ان لم تصدّقوا اقوالي فآمنوا لاجل الاعمال . ان لم اعمل اعمال أبي فلا تؤمنوا بي » (يوحنا ١٠ : ٣٨) . فالسيد المسيح يطلب الايمان لاجل ما يعمل من العجائب . وبما ان بعض المتحذلقين في عصرنا أخذوا يشكّون في إمكان حدوث العجائب فاننا نجعل موضوع كلامنا

اولا ـ امكان حدوث العجائب

ثانياً ـ هل عمل السيد المسيح عجائب حقيقيّة

ثالثاً ـ ما كانت الغاية من هذه العجائب

١ً امكان حدوث العجائب

لا بدّ لنا بادئ ذي بدء ان نعرف ما هي الاعجوبة — ان الاعجوبة حادث خارق العادة يفوق قوّة الطبيعة ونواميسها

ولا يسمَّى هذا الحادث اعجوبة الّا اذا فاق قوى الطبيعة كلها وصدر من الله — والغاية من الاعجوبة اظهار قوّة الله، إمّا لاثبات شهادة من يصنع العجائب، وإما لتأييد الحقيقة التي يعلّمها ولو كانت سرًّا غامضاً

فاذا ما عرفنا ان العجيبة حادث يفوق قدرة المخلوقات ولا يُعزى الا الى الخالق فهل يُمكن وقوعه ؟ أفليس في حدوث الاعجوبة ما يخالف العقل ونواميس الطبيعة ؟ ان الاعجوبة ممكن وقوعها ان لم يكن مانع من حدوثها لا من قِبَل الله ولا من قِبَل الطبيعة . فهل من مانع يا تُرى من قبل الله ؟ — هل يقدر الله ان يصنع عجيبة ؟ — هل يقدر ان يخالف نواميس الطبيعة التي وضعها ؟ — ان جان جاك روسو زعيم كفرة الجيل الثامن عشر يقول : « ان هذا السؤال سؤال كُفر ان لم يكن سؤال حماقة وجنون . فالذي يُنكر ذلك ينبغي ان لا يُعاقب لان العقاب شرف له بل يجب ان يوضع في مستشفى المجاذيب » أفليس الله كليّ القدرة ؟ أفليس الذي أنار الشمس قادر ان يطفئ نورها ؟ ان الذي وضع حدًّا للبحر وقال له « الى هنا تبلغ أمواجك » ولا تتجاوزها، ألا يقدر ان يسكّن زوابعه ؟ ان الذي جبل الانسان ونفخ فيه نسمة حياة، ألا يقدر ان يعيد الى هذه الجبلة نسمة الحياة التي خرجت منها ؟ وقصارى الكلام هل يكون من خلق العالم وهو يحفظه كل دقيقة في قيد الوجود، قد جعل حدًّا لقدرته وصيّر ارادته مقيَّدة بالطبيعة ؟ لا لعمري —

ان ذلك من المحال لان المشترع يقدر أن يغيّر شرائعه كما يشاء والذي وضع القاعدة يستطيع ان يجعل لها الشواذ . وما يشذّ عن القاعدة لا يُخالف حكمته، لان هذه الحكمة قادرة منذ الازل أن تحدّد القاعدة كما تحدّد الشواذّ، فالقاعدة والشواذّ مقرّرة في فكره منذ الازل

فإن لم يكن مانع من قبل الله، فهل من مانع من قِبَل الطبيعة ؟ ان الله خلق الطبيعة ووضع لها نظاماً ونواميس . فهل استقلّت الطبيعة بالعمل بعد هذا النظام وبعد هذه النواميس ؟ أفليست الطبيعة صنع الله وهي آلة بين يديه ومن طبع الآلة ان تكون طَوْع بنان من يديرها — أفليس كل مخلوق متحركاً ولا حركةَ له الا من يد خالقه ؟ — فهل يُوسع المخلوق ان يقاوم الخالق ؟ هل تخالف نواميس الله ارادته وهو الذي وضعها ويُدير حركتها كيفما شاء . فالخليقة التي نالت من الله الحياة اول مرة لا شيء يمنعها من أن تنالها منه مرة ثانية . فالله خالق الكون وحافظه، وله السلطة المطلَقة على ادارته . فالعجيبة اذًا لا تخالف الطبيعة . لا بل هي اتمام شريعة الطبيعة العامّة القاضية بان كل مخلوق متحرك ينبغي ان يكون طَوْع محركه . فليس في الاعجوبة اذن مانع لا من قِبَل الله ولا من قِبل الطبيعة ×

وبالنتيجة ليس في وقوع الاعجوبة ما يناقض العقل بل ان في العقل ميلًا غريزياً الى تصديقها حتى ان كل الشعوب في كل عصر ومصر آمنوا بالعجائب ومَن حُرموا منها انصرفوا الى

تصديق السحر والخرافات . والذين يُنكرون العجائب في عصرنا نراهم في اجتماعاتهم السرّية يستعملون الالغاز والاسرار ليوهموا السذّج والبسطاء أنها من باب العجائب . وبينا هم يتكبرون على الله غير مذعنين لوقائع التاريخ الراهنة التي يؤيدها شهود لا شبهة في شهادتهم، نراهم في الوقت نفسه يلجأون الى خزعبلات صبيانية او يشتركون مع الشيطان الذي سمّاه الانجيل « كذّاباً وأبا الكذب » (يوحنا ٨ : ٤٤)

ومَن الذين لا يؤمنون بالعجائب ؟ هم الذين يريدون ان يُنكروا خالقَ الطبيعة وواضع شرائعها، ليصمّوا آذانهم عن سماع صوته ويسكتوا ضميرهم الذي يوبخهم على المُنكر ويهدّدهم بالعذاب الابدي . هم الذين لا يُريدون رادعاً لاهوائهم . فالهوى يُعمي ويصمّ ويقبل كل الغرائب فلو ان ذا هوى راى في الشمس ما يُعاكس أمياله لحاول انكار الشمس نفسها . ولو ان في قولنا اثنان واثنان اربعة ما يحول دون بغية ذي هوى، لما راى في هذه الحقيقة وخطأها . فالعجائب اذًا ممكن وقوعها . ولكن هل صنع السيد المسيح عجائب حقيقية تفوق الطبيعة وقدرة الخلائق كلها ؟

٢ ـ انه السيد المسيح صنع عجائب حقيقية أقر بها الاعداء

يثبت لنا التأريخ ان السيد المسيح صنع عجائب . وقد رأينا ان ليس بين كتب التأريخ كلها اصدق من الانجيل، لِما يحتوي

من البيّنات والشهادات التي لا مردّ عليها . فالتاريخ يقول لنا إنه استعمل قوى الطبيعة وشرائعها حسب ارادته . فسكّن عواصف البحر وشفى المرضى واقام الموتى، كل ذلك بقدرة الهية ففي حياته العلنية لبّى السيد المسيح رغبة والدته وحوّل الماء خمراً لاصحاب العرس . ولما كانت الجموع تتبعه في القفر ولم يكن لهم ما يقتاتون به، كثّر لهم خمس خبزات فأشبع منها خمسة آلاف ما عدا النساء والصبيان . مشى على مياه بحيرة طبرية كأنه يمشي على اليابسة، وجعل رسوله بطرس يمشي معه ولم يُشرف هذا الرسول على الغَرق الا لما اخذ يشكّ في ايمانه — رأى الامواج تهدّد رسله بالغرق فقام وامر الرياح فاطاعته . ولما طلبوا منه دفع الجزية أمر رسوله بطرس بالذهاب الى البحر وقال له اول سمكة تصطادها تجد في فيها ما تدفع عني وعنك . فالعناصر أطاعته . ولما اظهر وهو القدير منتهى الضعف والاستسلام في صلبه وموته رُوّعت هذه العناصر وارتجت لموت خالقها — فالشمس اخفت اشعتها والارض تزلزلت والصخور تصدّعت وستر الهيكل انشق اثنين من فوق الى اسفل حتى صرخ قائد المئة الوثنيّ « بالحقيقة كان هذا ابن الله »

العناصر اطاعته، وكل العاهات زالت بمجرّد أمره — رأى اعمى منذ مولده (يوحنا ٩) . فقال « ما زلتُ في العالم فانا نور العالم فاخذ طيناً وطلى به عيني الاعمى وقال له : اذهب واغتسل في ماء سلوان . فذهب واغتسل فانفتحت عيناه » — قال للمخلع

المطروح امام بركة بيت حسدا (يوحنا ٥) منذ ثمانٍ وثلاثين سنة « قم احمل سريرك وامشِ . فقام وحمل سريره ومشى » . طلب البرص منه ان يُطَهروا، فطهروا . — ولم يترك السيد المسيح عاهة لم يُشفها — فالانجيل المقدس يقول « انهم كانوا يأتون اليه بالمرضى فيشفيهم » (مرقس ٦:٥٦)

وسلطة المسيح قد حكمت على الامراض وعلى الموت ايضاً . فهو قد راى جنازة شاب كان وحيداً لأمه (لوقا ٧:١٢) فتحنن عليها واعاد اليه الحياة — دخل الى ابنة يائير الميتة فارجع اليها الحياة وامر ان تُعطى طعاماً فأكلت (متى ٩:١٨ ـ ٢٥) — راى حبيبه لعازر في القبر منذ اربعة ايام ورقّ لبكاء اختيه — فامره بالخروج من القبر فخرج، ويداه ورجلاه مربوطة فقال حلوه ودعوه يذهب (يوحنا ١١)

ذكر الانجيليون بعض عجائبه . وكثيراً ما ذكروا عجائبه جُملةً بقولهم « فقدموا له مرضى فشفاهم » ولم يقدروا ان يذكروا عجائبه كلها، لان الانجيل يقول وآيات اخرى صنعها يسوع لو انها كُتبت واحدة فواحدة لما كان العالم على ما اظنّ يسع الصُحف المكتوبة عنه » (يوحنا ٢١:٢٥) — فهذا مما يدلّ على كثرة عجائب السيد المسيح

هذه العجائب حقيقية وقد أقرّ الاعداء بها . فان عجائب المسيح كانت غالباً أمام الجماهير، ولم يسع احداً انكارها . بل ان اعداءه انفسهم سلّموا له بحقيقتها . فقد قالوا للاعمى الذي

شفاه يوم السبت « اعطِ مجداً لله فانّ هذا الرجل خاطئ فاجابهم الاعمى : ان كان خاطئاً لا اعلم . ولكن اعلم أني كنت اعمى والآن ابصر » (يوحنا ٩ : ٢٤ و ٢٥) . أقرّ اعداؤه بالعجيبة بعد رؤيتهم لعازر قائماً من بين الاموات بقولهم « ان هذا الرجل يعمل عجائب . وإن تركناه فكل الشعب يؤمن به فخيرٌ أن يموت رجل عن الأمة من أن تهلك الأمة كلها » (يوحنا ١١ : ٤٧ ـ ٥٠) فليسكت العلماء وليصمت الاطباء فان علمهم وطبهم يقرّان بعجزهم — نعم ان الجراحة ترداد نجاحاً ، والطبّ له ادوية فعّالة ، وان عصرنا له اختراعات مدهشة . ولكن لا الجراحة ولا الطبّ يفتحان عيني من وُلد اعمى ولا يُقيمان الموتى . والاختراعات ليست الا اكتشاف نواميس الطبيعة الكامنة فيها التي وضعها الله واما الاعجوبة لا تُدعى بهذا الاسم الّا اذا فاقت قوى الطبيعة بأسرها وصدرت من الله وحده

٣ الغاية من هذه العجائب

رأينا أن السيد المسيح عمل عجائب حقيقية أقرّ بها الاعداء ولكن ما كانت الغاية من هذه العجائب ؟ قد صنع السيد المسيح عجائب لاظهار رحمته وشفقته لانه لم يردّ طلب تعيس ولا مريض — بل ان الانجيل يقول مراراً « تحنن على المرضى فشفاهم » . ولم يُرد السيد المسيح ان يستعمل سلطته لضرر

اعدائه – لما مرّ في السامرة ولم يُرد اهلها ان يستقبلوه لأنه كان محوّلاً وجهه الى اورشليم، قال له يوحنا «أتريد ان تنزل نار من السماء وتفنيهم» اجابهم السيد المسيح وقال «لستم تعلمون من اي روح انتم . لان ابن البشر لم يأتِ ليُهلك الناس بل ليخلّصهم» (لوقا ٩:٥٢ ـ ٥٩)

قد حاول اعداؤه مراراً ان يضرّوه، فامسكوه وعزموا على قتله وعلى رجمه بالحجارة . فلم يستعمل سُلطته لضررهم، بل كان يجتاز في وسطهم لان ساعته لم تكن قد جاءت بعد . ولم يستعمل سُلطة العجائب لضرر اعدائه حتى عند صلبه . فان اليهود لما ارادوا ان يمسكوه بعد ان سقطوا جميعهم الى الوراء سلم يسوع نفسه الى ايديهم وقال لهم «هذه ساعتكم وسلطان الظلمة» (لوقا ٢٢:٥٣) . ولما قطع بطرس بالسيف أذن عبد رئيس الكهنة، استعمل حينئذ السيد المسيح سُلطته ليشفيه، وقال لبطرس «اردُد سيفك الى غمده لان من قتل بالسيف بالسيف يقتل» (متى ٢٦:٥٢) هذه السلطة العجيبة لم يستعملها قطّ الا لفعل الخير: ليطعم الجياع في البرية، ويغيث الملهوفين، ويفتح أعين العميان، ويشفي آذان الصمّ، ويطهّر البرص، ويقيم الموتى ويظهر حنوّه ورأفته بالتعِس والمسكين والبائس

يعمل السيد المسيح عجائب ليشفي الاجساد ولكنه له اهتمام اعظم بشفاء النفوس . قبل ان شفى المخلع قال لهُ «ثِق يا بُني . مغفورة لك خطاياك» (متى ٩:٢) . وبعد ان شفى مخلع بيت

حسدا قال له : قد عوفيت فلا تعد تخطأ بعد (يوحنا ٥:١٤)

قد اجترح السيد المسيح عجائب ليبرهن بنوع خاص انه إله — لما راى يسوع المخلع (لوقا ٥:١٧-٢٥) قال له «مغفورة لك خطاياك» فاخذ الفريسيون يتذمّرون قائلين ان هذا يجدّف. من يغفر الخطايا الا الله وحده فعلم يسوع افكارهم وقال لهم ما معناه — نعم ان الله وحده يغفر الخطايا ولكي تعلموا ان لي هذا السلطان وان لي القدرة الالهية فهاءنذا اقيم المخلع امامكم وأثبت سلطاني. ثم اتجه نحو المخلع وقال «قم احمل سريرك واذهب» فقام المخلع امام الجميع. وأثبت السيد المسيح بشفائه قوله انه إله

لما أقام السيد المسيح لعازر (يوحنا ١١) برهن انه إله اذ قال امام الشعب ليثبت الوهيته «اشكرك يا أبتِ لانك سمعت لي وقد علمت انك تسمع لي في كل حين» فالسيد المسيح يعرف ان كل ما يريده يعمله. ولكن ليثبت ذلك امام اليهود الحاضرين فيؤمنوا به، امر بقوة سلطانه لعازر الموجود في القبر منذ اربعة ايام وقال له: «يا لعازر هلمّ خارجاً» فخرج الميت ويداه ورجلاه مربوطة بلفائف ووجهه ملفوف بمنديل. فآمن به كثير من اليهود الذين جاءوا الى مريم

وأما اعجوبة العجائب التي تُثبت ألوهيته والتي نُفرد لها فصلًا خاصاً فهي قيامته التي هي في الوقت نفسه موضوع نبوءة له. فانه انبأ انه سيُصلَب ويموت ويقوم في اليوم الثالث.

وعلمت بذلك السلطة الدينية والمدنيـة . فان روساء الكهنة أخبروا بيلاطس بأنه انبأ بقيامته فوضعوا حرّاساً وختموا القبر فاتّخذت السلطة الدينية والمدنية كلّ التدابير المانعة قيامته وهو إله الحياة . فارجع الى جسده الحياة وقام في اليـوم الثالث كما قال . ولم يَقـدر الحرّاس ولا بيلاطس ولا روساء الكهنة ان يمنعوا هذه القيامة — بل أثبتها برؤى عديدة مدّة اربعين يوماً وهي الاعجوبة الباهرة التي تكفي وحدها لاثبات الوهية السيد المسيح

وقد شهد الرسل بهذه العجيبة وختموها بدمهم فماتوا شهداء لهذه الحقيقة ليؤمن الناس بأن يسوع المسيح هو ابن الله ولكي تكون لهم اذا آمنوا الحياة باسمه

فالعجائب كما رأينا ممكنة وعجائب المسيح حقيقـة يشهد بها التأريخ واعداء المسيح انفسهم وقـد صنع السيد المسيح عجائب رحمةً بالتعسين وغـيرة على خلاص النفوس — واجترح آياتٍ برهن بنوع خاصّ انه إله. فمن الواجب ان نؤمن بتعاليمه ونحذو حذوه ونحفظ وصاياه حتى إذا آمنا وعملنا كانت لنا الحياة باسمه

نبوءات السيد المسيح

سمعنا تعليم السيد المسيح ورأينا انه تعليم إلهي. ولم نكتف بذلك بل تطلبنا الحُجَّة الدامغة على مصدر هذا التعليم الالهي — فوجدنا ختم الالوهية عليه بالقوّات والمعجزات اذ رأينا انه صنع عجائب بقوته الخاصة بقدرة مطلقة وبسلطة ذاتية له. ولم يستعمل قط هذه السلطة للضرر بل كانت منه دائماً للترفق والرحمة، لشفاء الامراض ولغفران الخطايا وكانت منه بنوع خاص لاثبات انه ابن الله، انه والآب واحد. والآن نتساءل هل نستطيع ان نجد على اقوال السيد المسيح ختماً آخر إلهياً غير العجائب والمعجزات — هل أيّد اقواله بالنبوءات وهل تمت هذه النبوءات؟ — هذا ما نثبته في هذه المحاضرة

١ً هل أيد اقواله بالنبوءات

بدأةَ ذي بدءٍ ينبغي ان نعرف بوضوح ما هي النبوءة. اذا أنبأ طبيب عن مريض مصدور بانه سيعيش مدة محدودة من الزمان يقاسي في اثنائها عذابات متنوعة وبعد ان يمرّ بثلاث درجات يموت منطفئاً كمصباح في وقت معلوم، — هل يسمَّى

هذا الطبيب نبيًّا ؟ — لا — ان هذه المعرفة صادرة من الخبرة الطبية . وهل يُعدّ الفَلكي نبيًّا بعد ان يكون قد عرف محلّ الكواكب والسيارات وقاس ابعادها وسبر نظام سيرها، اذا حدد ميعادًا دقيقاً لظهور مُذنَّب او لحدوث كسوف او خسوف — كلا. ان تحديد ذلك ليس بنبوءة . فليست معلومات الطبيب والفلكي الا نتائج صادرة من مبادئ علمية مقرّرة تخرج منها خروج الثمرة من الشجرة فهولاء هم علماء وليسوا بانبياء

ان الذين كانوا في سوريا ابّان الحرب العظمى وقد رأوا فقر البلاد وجور الحكام — والمشاحنة والخصام بين الاحزاب وعدم توفّر معدّات القتال مع معرفة قوّة الحلفاء وغناهم — فتكهنوا بتقلص ظلّ الاتراك عن سوريا هل هم انبياء ؟ لا — ان تكهنهم نتائج لمقدّمات توحي اليها الخبرة ويرشد اليها العقل فاذا عرفت المقدّمات عرفت نتائجها الملازمة لها

اذا نظرت الى شاب ذكي الفؤاد ثابت العزم منصرف الى العمل مُحبّ للاقتصاد لا ينفق درهماً الا في محله مبتعد عن ملاهي العصر المضرّة من شُرب ولعب قمار وحضور مسارح خلاعية وقلت ان هذا الشاب سيكون فخر أبويه وشرف أسرته ورجلًا ممتازاً في وطنه . فهل في هذا النظر نبوءة ؟ — لا لعمري — ان العقل السليم يوحي الينا أن كلّ من سار على الدرب وصل . فما هي النبوءة اذاً ؟ — النبوءة هي الاخبار عن حوادث قبل أوانها ولا يقدر عقل مخلوق أن يعرفها . فهي تدلّ على معرفة

المستقبل وعلى معرفة ارادة من يرتّب الامور في اوقاتها . النبوءة هي معرفة اسرار الله في المستقبل ومن يعرف سرّ الله الا الله وحده ومن يشاء الله ان يوحي اليه ؟

فهل جاء في كلام السيد المسيح نبوءات بهذا المعنى — اننا لا نتكلم عما ورد في شأنه من النبوءات ولا نذكر كيف تحققت في حياته اقوال الانبياء من المهد الى اللحد — ذلك ما رأيناه في انجيل القديس متى ولا نذكر كل ما ورد عن معرفة السيد المسيح لخفايا القلوب كمثل ما جرى له مع الشيوخ الذين أتوه بامرأة أُخذت في زنى وأراد ان يحكم عليها، فأخذ يخطّ على الارض عادًّا خطاياهم حتى خاف جميعهم ان يعلنها . فانسلّوا جميعاً الواحد وراء الآخر . وليس في وسعي ان اسرد لكم نبوءات السيد المسيح كلها لذلك اقتصر على ذكر أربع منها أنبأ بها عن آخرته، وعن تلاميذه، وعن شعبه، وعن كنيسته . وهي حوادث لا يقدر ان يعرفها مخلوق تدلّ في قائلها على معرفته اسرار الله وعلى معرفة المستقبل وعلى سلطة تُجري الحوادث المذكورة في وقتها

فلنقرأ هذه النبوءات في الانجيل ولنتصفح التأريخ ولنرَ كيف تحققت — قد أنبأ السيد المسيح عن نفسه فقال لتلاميذه « ها نحن صاعدون الى اورشليم وسيسلَّم ابن البشر الى روساء الكهنة والكتبة فيحكمون عليه بالموت ويسلِّمونه الى الامم فيضربونه ويجلدونه ويصلبونه وفي اليوم الثالث يقوم » (متى ٢٠ : ١٧ ـ ١٩) . « انقضوا هذا الهيكل وانا اقيمه بثلاثة ايام »

(يوحنا ٢:١٩) «كما كان يونان في بطن الحوت ثلاثة ايام هكذا ينبغي ان يكون ابن البشر ثلاثة ايام وثلاث ليال في بطن الارض» (متى ١٢ : ٤٠)

فهذه نبوءة لا يقدر انسان ان يعرفها اذ هي من الامور التي لا يمكن بشراً ان يعرفها قبل حلولها لعدم ارتباطها بالحاضر ولتوقفها على حرية الاختيار، ومع ذلك ينبئ السيد المسيح انه يسلم الى روساء الكهنة اي الى حنان وقيافا فيقولون انه مستوجب الموت – ثم يسلم الى الامم اي الى بيلاطس فيضربونه ويجلدونه ويصلبونه – ينبئ انه يموت وان له سلطة بان يسترجع الحياة متى شاء بعد ثلاثة ايام من يدي الموت. يقيم على ما تقدّم ذلك التشبيه الغريب الذي سمح الله ان يكون رمزاً لموت المسيح وقيامته. ويقول «انه كما كان يونان في بطن الحوت ثلاثة ايام هكذا يكون ابن البشر في بطن الارض». وهل نحن في حاجة الى التذكير بان كل ذلك قد تمّ حرفياً ونحن جميعاً نعرف ما نعرف من امر صلب المسيح وموته وقيامته

ولم ينبئ السيد المسيح عن نفسه فقط بل أنبأ ايضاً بمصير رسله انهم سيتركونه، وان واحداً منهم سيخونه، وواحداً منهم سينكره، وانهم اخيراً سيكونون لهُ شهوداً في اليهودية والسامرية والجليل وفي اقصى الارض: «كلكم تشكون بي في هذه الليلة فقد قيل – اضرب الراعي فتتبدّد الخراف» (متى ٢٦ : ٣١) «الحقّ اقول لكم ان واحداً منكم يسلمني وهو الذي يضع

يده معي في الصحفة » (متى ٢٦: ٢١ ـ ٢٣) وقال لبطرس الذي اكد لهُ انه لو اضطر ان يموت لما انكره « يا بطرس قبل أن يصيح الديك تنكرني ثلاث مرات » (متى ٢٦: ٣٣و٣٤) . ولكنه قال ايضاً — متى حلّ روحي عليهم . يشهدون باسمي أمام الولاة والملوك

فهل تحقق في الرسل ما أنبا به يسوع ؟ — اننا نعرف ان اسم يهوذا اصبح مرادفاً للخيانة وعنواناً لها . كلنا نعرف ان القديس بطرس بعد ان انكر السيد المسيح ثلاث مرات صاح الديك . فتذكّر كلام الرب وخرج الى الخارج يبكي بكاءً مرّاً . وظل يذرف الدموع كل حياته ندماً على جحوده هذا حتى تشقق خدّاه من مسيل العبرات الحارّة فيهما

كلكم تعلمون ايضاً كيف انه بعد حلول الروح القدس على التلاميذ تغيَّر هؤلاء الرجال الاميون الضعفاء تغيراً تاماً، فأصبحوا يجاهرون بالايمان بيسوع المسيح باقدام وشجاعة ويجيبون من يأمرونهم بالسكوت « ان الله اولى من الناس ان يطاع » (اعمال ٥: ٢٩) . واذا ضربوهم وجلدوهم رجعوا فرحين، لانهم أُعدّوا أهلاً لان يتعذّبوا لاجل الرب يسوع . وكلّهم ماتوا شهداء خاتمين شهادتهم بدمهم

ومن نبوءات السيد المسيح ما قاله لتلميذيه بطرس واندراوس بينما كان ماراً على شاطئ بُحيرة طبريّة، رأى بطرس واندراوس يُصلحان شباكهما . فقال لهما « اتبعاني فسأجعلكما صيادَي الناس

(متى ٤: ١٩) – وبالحقيقة بعد ان كان القديس بطرس يصيد الاسماك بشبكة ممزقة في بحيرة طبريّة اصبح اكبر صياد للناس . وبعد حلول الروح القدس على التلاميذ، رمى القديس بطرس شبكته لأوّل مرة في خطاب ألقاه، فآمن بالسيد المسيح اكثر من ثلاثة الاف رجل ثم امتدّت شبكته الى آسيا واوروبا حتى الى روما وقد اصبحت في هذه الايام شبكة خليفة القديس بطرس تحتوي على اكثر من ثلاث مئة واربعين مليوناً من الكاثوليك، وتمتدّ من اقصى الارض الى اقصاها من القُطب الى القُطب ومن الشرق الى الغرب

وكما انبأ السيد المسيح بحوادث حياته الاخيرة انبأ بنهاية وطنه بخراب اورشليم وخراب الهيكل وتشتت أمة اليهود واضمحلال وطنها . وهذا ما قاله وهو في موكب عظيم نازلاً من جبل الزيتون وقد راى اورشليم منبسطة مجمَّلة بقصورها زاهية بهيكلها الفخيم فحرّكت نفسه ما سيؤول اليه كل ذلك من خراب ودمار وسبي وشقاء بسبب قساوة قلوب بنيها فبكى عليها قائلاً « يا اورشليم يا اورشليم – يا قاتلة الانبياء وراجمة المرسَلين اليها . كم من مرة اردت ان اجمع بنيك فيك كما تجمع الدجاجة فراخها تحت جناحيها . هوذا بيتكم يترك لكم خراباً » (متى ٢٣: ٣٧ و٣٨) ولما كان السيد المسيح جالساً يوماً على جبل الزيتون ازاء الهيكل، أخذ الرسل يتباهون بالهيكل تحفة التحف ويعجبون بجماله . فقال لهم « اترون هذا الهيكل إنه سيأتي يوم لا يُترَك

فيه حجر على حجر» (متى٢٤: ١ و٢) — وقال ايضاً: «لا ينتهي هذا الجيل حتى يتمّ هذا كله — السماء والارض تزولان وكلامي لا يزول» (متى ٢٤: ٣٤ و٣٥)

كلكم تعرفون كيف تحقق قول السيد المسيح: اتى تيطس الى اورشليم سنة ٧٠ بعد المسيح فحفر حولها خنادق أحاطت بها - ولم تزل آثارها باقية الى الآن، وبعد ان حاصرها زمناً طويلاً فحلّ بها الضيق الشديد حتى اكلت بعض الامهات ثمرة احشائهن، فتحها اخيراً وقتل عدداً كبيراً من سكانها بحدّ السيف وباع عدداً اكبر بابخس الاثمان وهدم اسوارها ولكنه أمر بالابقاء على الهيكل. الا ان قوّةً خفية جعلت احد الجنود الرومانيين يرمي مشعلاً في الهيكل فاندلعت السنة اللهيب في كل جهة منه واندكت جدرانه حتى لم يبقَ فيه حجر على حجر

الّا انه كان لا يزال في اساساته بعض الحجارة قائمة على حالها مما يوهم ان النبوءة لم تتم بكمالها. فجاء الامبراطور الروماني يوليانوس الجاحد متمماً لها بالرغم منه في حين كان يحاول تكذيبها فقد أمر باعادة بناء الهيكل. فحفروا لاجل ذلك اساساته القديمة واقتلعوها ليخطّوا أساساً جديداً. وبينما كان اليهود يشتغلون بفرحٍ مستعينين بالوثنيين ومفتخرين بتكذيب نبوءة المسيح خرجت نار من الارض على ما يقرّ به المؤرخون الوثنيون أنفسهم فأحرقت عدداً من الفعلة ونقضت الاساسات الباقية. فاضطرّ يوليانوس الجاحد أن يعدل عن مقصده بعد ان ساعد

بالرغم منه على اتمام نبوءة السيد المسيح بالحرف

وكما أنبأ السيد المسيح بمصير رسله ومصير وطنه، تكلّم عن مصير الكنيسة فقال «وسيُكرَز بانجيل الملكوت في العالم بأسره» (متى٢٦:١٣) ووعد كنيسته التي جعل اساسها القديس بطرس بأنها ستبقى الى مُنتهى الدهر «انت الصخرة وعلى هذه الصخرة أبني كنيستي وابواب الجحيم لن تقوى عليها» (متى١٦: ١٨) «هوذا انا معكم كل الايام والى منتهى الدهر» (متى٢٨: ٢٠) فاسألكم هل هذا الكلام كلام بشريّ ؟ — هل يضع انسان عاقل أساساً لعمله العظيم رجلًا صياداً جاهلًا فقيراً ويؤكد ان ابواب الجحيم عاجزة ان تقوى على الكنيسة التي يسلّم شؤونها الى ذلك الصياد. هذا ما عمله السيد المسيح الذي جعل القديس بطرس أساس كنيسته ووعدها بأن ابواب الجحيم لن تقوى عليها. وأنبأ ان تعليمه سينتشر في العالم بأسره وانه سيبقى مع كنيسته كل الايام الى منتهى الدهر

فعلامَ يتّكل السيد المسيح حتى يتكلم بمثل هذه الثقة ؟ — هل اعتمد كالغزاة الفاتحين على جيشٍ عرمرم كامل السلاح من مدافع كبيرة العيار وصغيرتها، وعلى اسطول بحريّ واسطول جويّ وقواد محنّكين، وثروة طائلة تمدّه وتساعده على قهر اعدائه ذلك ما تلجأ اليه القوى البشرية لتنال غايتها — علامَ اعتمد السيد المسيح ليقوى على ابواب الجحيم ويضمن لكنيسته الدوام الى منتهى الدهر ؟ — هل استلّ سيف اجداده ملوك يهوذا

وجرّده ؟ – هل هدّد بذاك السيف من لا يؤمنون به او أطلق لمتبعيه عنان اهوائهم وشهواتهم ترغيباً لهم في ديانته ؟ لا لعمري انه اتخذ الوسائل الضعيفة ليخزي الاقوياء واختار الجهال ليخزي الحكماء . اتخذ وسائل لم يلجأ اليها البشر – اتخذ الصليب قاعدةً لملكه اذ قال « اذا ارتفعت عن الارض جذبت اليَّ الجميع » (يوحنا ١٢ : ٣٢) « هوذا نحن صاعدون الى اورشليم وابن البشر يسلَّم الى روساء الكهنة فيقتلونه وفي اليوم الثالث يقوم » (متى ٢٠ : ١٨)

وبعد ان وضع أساس مُلكه وموته على الصليب تغلَّب على الجحيم بوعده بانه يبقى مع رسله الى منتهى الدهر . فانتخب اثني عشر صياداً من الفقراء والجهلة وأرسلهم ليبشروا في العالم اجمع – ولم يَعدهم الا بالاضطهاد . فقال لهم : « ان كانوا اضطهدوني فسيضطهدونكم ايضاً » (يوحنا ١٥ : ٢٠) سمح بان يستشهد من اتباعه نحو ١٠ ملايين في خلال ثلاثة اجيال فقط . – بهذه الوسائط الضعيفة أظهر قوته واكتفى تشجيعاً لرسلهِ بأن وعدهم ببقائه معهم الى الابد وبهذا الوعد وحده انتصرت ديانة المسيح فاصبحت بعد الاضطهاد الديانة الرسمية في العالم ابتداءً من الجيل الرابع على عهد الامبراطور ثاودوسيوس الكبير

حمل على الكنيسة القياصرة في الاجيال الثلاثة الاولى حملات عنيفة . الا ان القياصرة بادوا وبقيت الكنيسة ظافرة لان ابواب الجحيم لن تقوى عليها

قام الهراطقة بفلسفتهم وفصاحتهم ولجأوا الى كل الوسائل الممكنة لكي يفسدوا تعليمها ويعبثوا بآدابها . فباء الهراطقة بالخذلان والخيبة وظلت الكنيسة في مجدها ومنعتها

صدمها البرابرة صدمةً هائلة وأرادوا ان يمحوا تمدنها، فكانت النتيجة ان عنا هولاء البرابرة لسلطانها، فعبدوا على ما قال احد اساقفتهم ما كانوا يحرقون وأحرقوا ما كانوا يعبدون

قام هنريكوس الثامن ملك انجلترا واراد ان يغيّر آية من الانجيل تهدم سر الزواج وتبيح تعدُّد الزوجات، فأوقع الجزء الاكبر من مملكته في ضلاله . وقد فني هنريكوس وبقيت الكنيسة وحيث ظن انه دفنها في مملكته عادت تنتشر وتزدهر، لان ابواب الجحيم لن تقوى عليها

قام فلاسفة الجيل الثامن عشر وارادوا ان يمحقوا تعاليم الكنيسة بكفرهم . الا ان هولاء الفلاسفة قد بليت عظامهم وها هي الكنيسة تزداد انتشاراً

ومهما توغّل عصرنا الحاضر في الضلال والفساد فالنفوس الشريفة ترجع منهوكة القوى الى تعليم الكنيسة . ومهما فُسدت الاخلاق فالمحافظون على ضميرهم وخير الانسانية يرجعون الى وصايا السيد المسيح ليصونوا العالم من الخراب

فالسيد المسيح برهن بعجائبه انه إله وبرهن بنبوءاته ان عنده معرفة اسرار الله وان بين يديه مقاليد امور العالم يديرها كيفما شاء — فهذا المنبئ الالهي الذي رأينا نبوءاته الى الآن قد تمت

لا بُدّ أن تتم ايضاً نبوءاته في الدينونة الاخيرة. فهو الذي سيقيمنا في اليوم الاخير وهو الذي ياتي ليدين الاحياء والاموات. وهو الذي يحاسبنا عن الايمان بتعاليمه والعمل بوصاياه. فعلينا ان نحيي ايماننا بالاعمال وعلينا ان نتمسك بتعاليمه ووصاياه، فنستحق سماع قوله « تعالوا يا مباركي ابي رثوا المُلك المعدّ لكم منذ انشاء العالم » (متى ٢٥: ٣٤)

قداسة السيد المسيح

بعد أَن تكلَّمنا عن شخص السيد المسيح وتعاليمه وعجائبه ونبوءاته، نواصل السير ونتعمق في درس اخلاقه، ونلِج بالاحترام والتهيُّب هيكل قلبه الاقدس، ونرى على نور تعاليمه السماوية كيف انّ كل اعماله وأقوالهِ كانت تعبيراً عن مبادئهِ وافكارهِ وأخلاقهِ

قد حار مصاقع الخطباء في وصف السيد المسيح، ورأوا أنفسهم في محاولتهم هذه كالسمك الذي لا صوتَ له . وحار فُحول الشعراء بعد كدّ مخيّلتهم في تصوُّر مثال الكلام هذا، فعادوا يُقرّون بضعفهم وعجزهم، ويرَون شعرهم تافهاً ركيكاً تُجاه الجمال الذي عُرض لهم . وهنالك أيضاً اصحاب الفنّ والتصوير نرى أنهم بعد الصلاة والتأمل العميق يرمون ريشتهم بيأس، لان ما ابرزته بعد الجهد والعناية، جاء قاصراً جدًّا عن الكمال الذي حاولوا تصويره . إنّ كلّ من أَراد ان يتكلم عن فضائل السيد المسيح يشعر ان ذلك لا يتأتى إلّا لمن يكون قديساً ونابغةً . وها نحن مع ذلك على الرُّغم من ضعفنا نغوص في بحر الكمال الطامي، ونصفُ من قداسة السيد المسيح ما تستطيع مداركُنا أَن تتناوله ونرى : أَولاً انه بريء من العيب . ثانياً انه حاوٍ كلّ الفضائل السامية

١ً انه بريء من العيب

ليس انسان بريئاً من العيب، ما عدا العذراء مريم التي صانها الله من الفساد لتكون أمًّا له . قال القديس يوحنا «من يظنّ نفسه بلا خطيئة فهو كاذب» وقال الكاتب الافرنسي الشهير «جوزيف ديمستر» اني لا اعرف قلب الرجل الشرّير ولكني اعرف قلب الرجل المستقيم – انّ فيه من الفظاعة ما يُنفَر منه وقال شاعرنا المتنبي : إنّ الفضائل في عصره غدت تنحصر في عدم الضرر وترك القبيح

إنّا لفي زمنٍ ترك القبيح بهِ من أكثرِ الناس إحسانٌ وإجمالُ

وما قالهُ الشاعر عن عصره يُقال عن كلّ العصور، لاننا نولد كلنا ملوّثين بالخطيئة الاصلية خطيئة جدّنا السارية في عروقنا . وهذا ما يُقرّ بهِ النبي داود بقوله «هاءنذا بالآثام حُبل بي وبالخطايا ولدتني أمّي» كلنا نولد في حالة الخطيئة، وبنا على ضعفنا ميلٌ الى الكبرياء والى حبّ الذات وتفضيل نفسنا على غيرنا – نُولَد وفي قلبنا ميلٌ عظيم الى التعلّق بخيرات الارض وبحُطام الدنيا . وفي جسدنا نيران الشهوات تتأجج، فنشعر في داخلنا بعاملَين، عامل يذكّرنا أننا على صورة الله ومثالهِ وأن آخرتنا وسعادتنا في السماء، وعاملٌ آخر أقوى من الاول يجرّنا الى اتباع الشهوات السفليّة وحبّ العالم وخيراته . فما حياتنا الّا

جهاد على الارض لكيلا نسقط في الخطيئة . ومَن لا يُجاهد فهو مغلوبٌ لا محالة – لذلك نرى القديسين يجعلون الكفر بالذات وقهر الشهوات والتوبة أساساً لفضيلتهم – وهذا ما جعل القديس بولس يصرخ « الويل لي انا الانسان الشقي – من يُنقذني من جسد الموت هذا ؟ » (رومة ٧ : ٢٤) لذلك نرى القديسين يُمارسون التوبة ليكفّروا عن خطاياهم، ويبنون فضيلتهم على قهر الشهوات والكفر بالنفس والابتعاد عن اسباب الخطيئة

على أن السيد المسيح خلافاً للقديسين لا يشعر بحاجة الى التوبة فهو يقول لنا « توبوا فقد اقترب ملكوت السماوات » (متى ٣ : ٢) . لا يشعر بحاجة في نفسه الى التوبة لانه ابن العذراء البريء من كل عيب . فهو لم يخطأ قطّ، ولذلك لا يشعر بحاجة الى الندامة ولا الى شيء من مقاصد الاصلاح – إنه يبغض الخطيئة البُغض الكليّ لانه اتى ليمحوها بموته . يهتمّ بغفران خطايا الناس اذ يقول للمريض مراراً « مغفورة لك خطاياك ها قد عُوفيتَ فلا تخطأ بعد » ولكن لا نراه أصلاً يقرع صدره ندامةً . فنفسه دائماً في هدوء وسلام، لا يعتريها وخزُ ضمير ولا تبكيت، وكلُّ انفاسه تُعبّر عن انه قدّوس قدّوس قدّوس كليّ القداسة وبريء من كل عيب

ان الانسان كلما عرفته وتعمَّقت في درسه شاهدت فيه عيوباً جديدة، وان عظماء الرجال انفسهم مهما تعالوا وعظموا يبقون صغاراً من بعض الوجوه، ويبقى في حياتهم فترات لا

تظهر فيها عظمتهم — ولكن السيد المسيح كلما درسته أعجبت بفضيلته وازددتَ رغبةً في أن ترتمي على قدميه لقداسته . لم يعترِ حياته فتور ولم يقدر احد ان ينسب اليه عملًا غيرَ لائقٍ بقداسته الالهية

قد حاول أعداؤه بكل ما امكنهم من الوسائط أن يروا منه عملًا غير لائق باسم ابن الله الذي تسمَّى به اذ قال عن نفسه « انه ابن الله » فلم يسمعوا منه كلمة مُنحرفةً — نصَبَتْ مكائدهم له الشباك مرارًا ليصطادوه بكلمة، وسألوه سؤالات يضطرّ فيها كيفما اجابهم أن يظهَر مُخطئاً في عيونهم . لكنه أخزى مكائدهم بجوابه « أعطوا ما لقيصر لقيصر وما لله لله » (متى ٢٢:٢٢) « من كان منكم بلا خطيئة فليرمها بأول حجر » (يوحنا ٨:٧) وعلى الرغم من كل ما اتصفوا به من البُغض، عجزوا عن ان يروا فيه عيباً، وأمكنه ان يقول لهم بكل جُرأة تلك الكلمات التي لا يقدر انسان أن ينطق بها « من منكم يُثبت عليَّ خطيئة » فلم يتجاسر احد ان يكذّبه، بل اضطرّ رُسُل اعدائه المأمورين بالقبض عليه أن يعودوا من حيث أتوا وهم يقولون « ما نطق إنسان بمثل ما نطق هذا » (يوحنا ٧:٤٦) وقالوا ايضاً « ما أحسن كلّ شيء صنع » (مرقس ٧:٣٧)

تلك القداسة هي حجر الزاوية الماسي الذي بُنيت عليه الكنيسة، وهو الذي يسنُد تلك البناية الشاهقة التي هي الكنيسة . — فلو كان في السيد المسيح نقصٌ أو عيب أو

سُمع عنه كلمة منحرفة لما ثبتت الوهيته ولا ارتفع بنيان الكنيسة، بل كان نصيبه الفشل والاخفاق كسائر اعمال البشر. لو ادّعى انسان لنفسه أنه ارجح قومه عقلًا وادباً، لما عجز الناس ان يجدوا فيه عيوباً ينزلونه بها من عُنفوانه. أمّا السيد المسيح فقد قال عن نفسه «إنه إله ولم يجدوا ما يكذّبونه بهِ»

٢ انه حاوٍ كل الفضائل السامية

لم يظهر في السيد المسيح عيب، بل ظهرت فيه الفضائل كلها؛ ففيه يجد الانسان كلّ صفات الكمال، وكلما اقترب منه اقترب الى الكمال. فقد قال «كونوا قدّيسين فاني قدّوس» وظهرت فيه هذه القداسة بأبهى مجاليها، ومارس كلّ الفضائل التي حرّض عليها. ومجموع هذه الفضائل ومجموع الوصايا في حبّ الله وحبّ القريب — فمحبة الله تتجسم خاصة في اتمام ارادة الله. والذي يتمم دائماً ارادة الله هو الانسان الكامل. امّا السيد المسيح فقد أتم ارادة ابيه السماوي في كل حياته. وفي كل حركاته وسكناته، إذ حقق اقوال الانبياء. فوُلد في مغارة حقيرةٍ، وعاش عيشة خفيّة مدّة اعوام طوال، وقضى حياته العلنية في الاتعاب — وفي اعمال الرحمة والشفقة وفي صُنع العجائب — أتم ارادة ابيه حتى الموت موت الصليب. ولما هال الطبيعة البشرية شدّة ما كان قادماً عليه من عذاب وامتهان، أخذ يتوسل الى

ابيه السماوي أن يبعدعنه تلك الكأس – ولكنه كان يُضيف الى توسّله : « لا تكن ارادتي بل ارادتك » – ولما رأى أن ارادة ابيه السماوي في شُرب كأس الآلام والموت التي يقدّمها له سلَّم ارادته البشرية الى الارادة الالهية وسلَّم نفسه بشجاعة الى اعدائه . وبعد أن اتمّ اقوال الانبياء وإرادة أبيه السماوي قال « قد تم » وأسلم الروح

امَّا فضيلة المحبة نحو القريب فلم تكن فيه أقلّ ظهوراً من محبته للآب « أحبّ البشر الى الغاية » حبًّا شديداً، حبًّا فعّالاً . شفى المرضى وطهَّر البُرص وفتح عيون العميان وأقام الموتى وأطعم الجياع . أعطانا جسده ودمه مأكلاً ومشرباً ومات لاجل خلاصنا على الصليب . « وليس حبّ أعظم من هذا أن يبذل الانسان نفسه فداءً عن أحبائه »

أحبّ وطنه واورشليم عاصمة وطنه وبكى عليها لما رآها مُصرّةً على خرابها . أحبَّ أصدقاءه وبكى على لعازر في القبر وطلب منا حُبّ الاعداء واصبح لنا قُدوة في حبهم . فقال ليهوذا الذي اتى يقبّله ويسلّمه « يا صاح أبقُبلةٍ تسلّم ابن البشر » (لوقا ٢٢ : ٤٨) وبينما أعداؤه يُذيقونه أمرّ العذابات ويصلبونه كان يصلّي لأبيه الأزلي قائلاً « يا أبتاه اغفر لهم لانهم لا يدرون ما يفعلون » (لوقا ٢٣ : ٣٤)

مارس فضيلة الحب نحو الله ونحو البشر، ومع علمه بأنه إله اظهر وداعةً وتواضعاً مُدهشَين، حتى ان الفلاسفة لا يجدون شيئاً

أعجب من ممارسة السيد المسيح لفضيلة التواضع مع معرفته أنه إله . فيعجَبون كيف يقول عن نفسه إنه إله ويكون متواضعاً . إنه تواضع وطلب منا أن نحذو حذوه في ممارسة فضيلة التواضع، فقال : « تعلَّموا مني فاني وديع ومتواضع القلب » (متى ١١ : ٢٩) فعلَّمناه التواضع بحياته الخفيَّة، علَّمنا إذ كان يستر ما يجترح من العجائب، وعلَّمناه في العشاء السرّي إذ جثا، وهو الرب، على أرجل تلاميذه وغسَلها

كل فضيلة يطلبها منا ابن البشر يبتدئ هو بممارستها . يقول « طوبى للمساكين بالروح فان لهم ملكوت السموات » (متى ٥ : ٣) وهو قد وُلد فقيراً في مغارة وعاش بعرق جبينه ومات عرياناً على الصليب — يقول « طوبى للودعاء » (لوقا ٥ : ٤) وهو قد اظهر وداعةً غريبةً أمام أعدائه ومعذّبيه الذين كانوا يزأرون حوله كذئاب خاطفة — ومع مقدرته على ضرّهم لم يُعاملهم الّا بالحُسنى فتمَّم بوداعته قول النبي اشعيا « هوذا فتاي الذي اخترته حبيبي الذي سُرَّت به نفسي — لا يُماري ولا يصيح — قصبةً مرضوضةً لا يكسر وكتاناً مدّخناً لا يُطفئ حتى يُخرج الحكم الى الغلبة » (متى ١٢ : ١٨ اشعيا ٤٢ : ١ ـ ٤)

يقول « طوبى للجياع والعطاش الى البرّ » (متى ٥ : ٦) وقد كان جائعاً لخلاصنا وعطِشاً لنفوسنا — ولما قال للسامرية « انا عطشان » كان عطشه لخلاص النفوس . أجل انه عطش لخلاص النفوس، وكان ينتظر وقت الفداء بفروغ صبر الى ان أروى

عطشه بالموت على الصليب : « ولي صبغة ينبغي لي ان اصطبغ بها وما اشدّ تضايقي حتى تتمّ » (لوقا ١٢ : ٥٠)

يقول « طوبى للرحماء » (متى ٥ : ٧) وهو لم يكن مجيئه الى الارض وحياته بين البشر وميتته على الصليب الا سلسلة أعمال رحمة

يقول « طوبى للانقياء القلوب » (متى ٥ : ٨) وهو ابن العذراء وقد سمح بأن تُعزى عجائبه الى اركون الشياطين – لكنه لم يسمح بأن يفوهوا بكلمة تمسّ طهارته

يقول « طوبى لصانعي السلام » (متى ٥ : ٩) وهو أتى ليُعطي العالم السلام، فنسمعه يقول مراراً « السلام استودعكم، سلامي أعطيكم، لست كما يُعطي العالم سلامه أعطيكم » (يوحنا ١٤ : ٢٧)

يقول طوبى « للمضطهَدين من اجل البر » (متى ٥ : ٦) وهو اكبر مضطهَد في هذا السبيل – أضطهِد لاجل الفضيلة، اضطهِد لاجل صُنع العجائب أضطهِد لانه قال عن نفسه : « انه إله » ولا يقدر ان يكذب. عمل البرّ ولم ينل مكافأة. لا بل عوضاً عن المعروف قابلوه بكفران الجميل وجازوه بدل الخير شرًّا. ولم يتشكّ ولم يتذمّر

كل هذه الفضائل، محبة الله والقريب والتواضع والكفر بالذات والتجرُّد من خيرات الدنيا والوداعة والغيرة والرحمة والطهارة والسلام والصبر والاحتمال أتمّ ممارستها على اكمل وجه. فقد ظهرت فيه متلائمة متناسبةً على ما كان بينها من التباين

فمارس الحزم بلا تصلُّب، والتواضع بلا تذلُّل. والصبر بلا كبرياء، والمحبة بلا ضعف. عرف الناس وعرف عيوبهم ولم يحتقرهم، بل أحبهم وظهر في كل هذه الفضائل التي مارسها المثل الاعلى. ومتى ظهرت فضيلة السيد المسيح، فكل فضائل القديسين تتوارى كما تتوارى النجوم بأسرها اذا طلعت الشمس

فأيُّ مقابلة بين كل قدّيسي العهدين القديم والجديد. وبين السيد المسيح؟ ما غيرة ايليا، وما تقشُّف القديس يوحنا المعمدان، وما وداعة هابيل، وما طهارة العذارى، وما عذاب الشهداء، وبالجملة ما فضائل القديسين جميعاً تُجاه كمالات السيد المسيح الا كالسُّرج الضئيلة تُجاه أنوار الشمس الساطعة. بل يجب القول ان كل قداسة وكمال في القديسين باجمعهم مستمدّ من فيض قداسة المسيح التي هي الاصل والينبوع

وتلك القداسة بارتفاعها وبلوغها ذُرى الكمال، كالشمس التي تُنير الآفاق العالية وتُنير الوديان العميقة. فالمسيح مثال لا يُدانيه اعظم القديسين ولا يخشى المبتدئون بالفضيلة ان يمشوا على آثاره

الأُم اذا ارادت ان تُصلح اخلاق ابنها وتردّه الى وجه الصواب، تُريه صورة السيد المسيح في الناصرة فيعود صالحاً ووديعاً

والعذراء اذا ارادت مشجّعاً على حفظ بتوليتها، تتأمل في طهارة المسيح ابن العذراء وحبيب الاطهار

والفقير اذا اراد مسكِّناً لآلام فقره، ينظر الى السيد المسيح الذي لم يكن له موضع يسند اليه رأسه

والغني اذا اراد أن يجرّد قلبه من التعلق بخيرات الدنيا، ينظر الى السيد المسيح مائتاً عُرياناً كما عاش متجرّداً من كل شيء مع انه ربّ كل الخيرات

والمريض المتألم اذا طلب وسيلة لاحتمال اوجاعه الاليمة، ينظر الى السيد المسيح مصلوباً حاملاً أوجاعنا

هذه بعض فضائل السيد المسيح، وهذه نظرة وجيزة الى قداسة المسيح، تلك القداسة المستمدّة من الطبيعة الالهية المتحدة بالطبيعة البشرية في اقنوم السيد المسيح، وقد صارت بها كل اعماله وتعاليمه وعجائبه ونبوءاته الهيَّة

لقد سمعت ايها السيد تعاليمك، وفهمت أنها تعاليم إله، رأيت عجائبك وفهمت أنها عجائب إله، وسمعت نبوءاتك وفهمت أنها نبوءات إله، وها قد شاهدت فضائلك وقداستك وعرفت انها فضائل وقداسة إله . فلم يبقَ إلّا ان اسجد لك واقتدي بك لكي أجد الطريق والحق والحياة

الوهية السيد المسيح

شهادة المسيح لنفسه انه اله

بعد أن درسنا الاناجيل ورأينا ما يمتاز به كلّ انجيلي من غيره وتأملنا في شخص السيد المسيح وتعاليمه وعجائبه وقداسته وفهمنا أنها كلها ناطقة بأنه اله، نبحث الآن في شهادة السيد المسيح عن نفسه، فهو يُعلن أنه ابن الله حقاً ومساوي أبيه الازلي وانه حاوي الكمالات الالهية

قد اجمع الكتبة والفلاسفة من كل الامم والنِّحل على مديح واطراء صفات السيد المسيح . وعلى انه في أعلى منزلة من الذكاء والاستقامة والقداسة . لا بل وان المعطّلين الذين لا يدينون بديانةٍ يُقرون هم انفسهم بانه اقدس انسان في العالم، وأنه يفوق كل نوابغ البشر تفوّقاً لا يُدانيه به أحد . يقول بعضهم ذلك لكي يُنكروا عليه الالوهية ويتملّصوا من وجوب الايمان به والعمَل بشرائعه . ويُضيفون الى ذلك أن السيد المسيح لم يشهد لنفسه في الانجيل أنه ابن الله وإنه، إن قال ذلك، فبالمعنى المجازي لا الحقيقي، أي بمعنى أنه قدّوس الله، وحبيب الله، كما أن المسيحيين يسمّون أنفسهم ابناء الله ويسمّون اولياء الله ابناء الله

فلنُطالع الانجيل ولنسمع شهادته . فهو يقول سرًّا وعلناً إنه ابن الله بالمعنى الحقيقي : أي انه ابن الله الوحيد المولود من الآب قبل كل الدهور، وينسُب الى نفسه كمالات الله وأعمالاً لا يعملها الا الله . وبعد أن نسمع هذه الشهادة نُثبت أنها صادقة أي شهادة مُنزّه عليم، لا هو مخدوع ولا خادع . فلا يبقى لنا الّا وجوب الاذعان لما يشهد به

١ً شهادة المسيح لنفسه انه اله

يدّعي بعض الكفرة أن السيد المسيح لم يسمِّ نفسه ابن الله بالمعنى الحقيقي . وها نحن نبرهن أنه شهد لنفسه بذلك حقاً ويقيناً امام بعض الافراد وأمام الجمهور وفي وسط المحاكم . شهادة لا يمكننا أن نُفسّرها بمعنى آخر سوى أنه ابن الله الوحيد المولود من الآب قبل كل الدهور

شهد لنفسه امام بعض الافراد أنه ابن الله الحقيقي . بعد أن شفى رجلاً وُلد اعمى رآه في الهيكل، فقال لهُ يسوع : هل تؤمن بالله (يوحنا ٩ : ٣٥) فقال لهُ ومن هو يا سيدي لأومن بهِ . قال لهُ يسوع قد رأيته وهو الذي يكلمك . فانفتحت بصيرة الاعمى كما انفتحت من قبل باصرتاه، فخرّ على قدميه وسجد لهُ . — هل اعترض السيد المسيح على هذا السجود، وعمل كما عمل بولس وبرنابا لمّا رأيا الشعب مستعدًّا لأن يذبح لهما ذبائح كآلهة

هل شقّ ثيابه مثلهما ؟ هل قال للاعمى ماذا تعمل، إني رجل مثلك ؟ لا . انه قبِل سجوده وعبادته . أفلا يكون السيد المسيح قد ارتكب اثماً فظيعاً لو لم يكن إلهاً

شهد لنفسه أنه ابن الله الوحيد امام نيقوديمس الذي جاء ليلاً ليزوره، فقال لهُ بكل صراحة « هكذا أحب الله العالم حتى إنه بذل ابنه الوحيد » (يوحنا ٣:١٦) اي ابنه المولود من الآب والموجود في حضن الآب . انه يقول ابنه الوحيد ولا ابن الله بالمعنى العام . ثم اردف في حديثه مع نيقوديمس بما لا يترك شبهة « لم يصعد أحد الى السماء الّا الذي نزل من السماء ابن البشر الذي هو في السماء » (يوحنا ٣:١٣) فمَن هو ذاك الذي نزل من السماء وصَعِد الى السماء ولم يزل في السماء سوى ابن الله ؟ من يحقّ له أن يكون في السماء ثم ينزل منها وهو باقٍ فيها سوى ابن الله؟

قبل شهادة تلاميذه لهُ أنه ابن الله بكل سرور وطلب هذه الشهادة قائلاً (متى ١٦:١٣ ـ ٢٠) « ماذا تقول الناس إني أنا » فقالوا « قوم يقولون انك أيليا او إرميا أو احد الانبياء » . وانتم من تقولون اني أنا ؟ . فقال له بطرس « انت المسيح ابن الله الحي » انّا نرى القديسين يتواضعون عندما يُمدَحون . ونسمع القديس يوحنا المعمدان (يوحنا ١:١٩ ـ ٢٣) عندما يقولون له « هل أنت المسيح » ينكر ويقول « أنا صوت صارخ في البرية .... اني لستُ مستحقاً أن أحلّ سيور حذائه » – وتعرفون كيف بذل

موسى النبي جهده ليَخفي قبره عن شعبه المستعدّ لعبادته . وها نحن نرى مع ذلك من كان اكثر تواضعاً من جميع بني البشر، يُسَرّ لدى سماعه هذه الشهادة ويقول لسمعان انه مُلهَم من الله «طوبى لك ياسمعان بن يونا لأن ليس لحم ولا دم أعلن لك ذلك ولكن مشيئة أبي الذي في السموات» أي ليست الاهواء ولا الطبيعة البشرية أعلنت لك ذلك ولكن إلهام الله . وقد كافأه على ذلك احسن مكافأة اذ جعله أساس كنيسته فقال لهُ «انت الصفاة وعلى هذه الصفاة سأبني كنيستي . وابواب الجحيم لن تقوى عليها» ثم وعده باعطائه مفاتيح ملكوت السموات

وما قاله يسوع أمام بعض الافراد أكّده علناً على رؤوس الملا والاشهاد، وأثبت السيد ألوهيته ووحدته مع الآب بعباراتٍ جعلتْ اليهود يتميزون غيظاً ويُصمّون آذانهم ويأخذون حجارة ليرجموه كان يسوع ماشياً في الهيكل في رواق سليمان (يوحنا ١٠: ٢٣ـ ٣٨) فاحاط به اليهود وقالوا له «حتى متى تُريب انفسنا . ان كنت انت المسيح فقل لنا علانيةً» اجابهم يسوع «قلت لكم ولم تؤمنوا والأعمال التي اعمل باسم أبي هي تشهد لي . لكنكم لستم تؤمنون . لانكم لستم من خرافي . ان خرافي تسمع صوتي وانا اعرفها وهي تتبعني وأنا اعطيها الحياة الابدية . انا والآب واحد» . فتناول اليهود حجارة ليرجموه، لانهم فهموا مؤدّى كلامه فنادوا انه جدّف . فاستشهد السيد المسيح بالاعمال التي عملها وقال لهم «لاي عمل ترجموني» فقالوا له «لسنا لاجل

عملٍ نرجمك لكن لانك جعلت نفسك ابن الله مساوياً ذاتك بالله» فقال لهم يسوع «ان لم اعمل اعمال أبي لا تؤمنوا بي ... ولكن آمنوا لاجل الاعمال»

فهل يبقى شكّ بعد سماع هذه العبارة بأن السيد المسيح سمّى نفسه ابن الله وأنه مساوٍ لله الآب؟

وما شهِد به المسيح لنفسه وامام الشعب، شهد به امام المحاكم ايضاً وفي احرج الظروف، وهو عالم ان هذه الشهادة تُفضي الى الحكم عليه بالموت. ثبت عليها راضياً بما تجرّ عليه من عذاب ذريع وموت شنيع لانه وهو الحق بالذات لا يسعه في الحقّ هوادة

كان الرؤساء وكل المحفل يطلبون على يسوع شهادة زورٍ ليقتلوه (متى ٢٦: ٥٩-٦٦) فلم يجدوا فقال له رئيس الكهنة «اما تُجيب بشيء عما يشهد به هولاء عليك؟ أما يسوع فكان صامتاً فقال له رئيس الكهنة أُقسم عليك بالله الحيّ ان تقول لنا هل أنت المسيح ابن الله. فاجابه يسوع احتراماً لاسم الله انت قلت إني أنا هو. وأيضاً أقول لكم انكم من الآن ترَون ابن البشر جالساً عن يمين القدرة وآتياً على سحاب السماء». وهذه العبارة تعني أنه سيأتي يوماً ويدينه. والديّان هو ابن الله. ففهم رئيس الكهنة تمام الفهم أنه يشهد لنفسه انه ابن الله حقاً. فامتلأ غيظاً وشقّ ثيابه وقال «لقد جدّف فما حاجتنا الى شهود. ها إنكم سمعتم تجديفه. فماذا ترون؟ فاجابوا وقالوا إنه مستوجب

الموت ». ولمّا أتى اليهود بيسوع الى بيلاطس طالبين الحكم عليه قالوا له « ينبغي أن يموت لانه جعل نفسه ابن الله » (يوحنا ١٩ : ٧) فمن الواضح ان السيد المسيح قد مات ليختم بدمه شهادته انه ابن الله

فلو كان اسم ابن الله بمعنى أنه قدّيس أو مُرسَل من الله او انّ روح الله حالّ فيهِ، لما كان في ذلك ما يستوجب حنق الشعب عليه ورجمه بالحجارة والحكم عليه بالموت

والبرهان أن يسوع سمّى نفسه ابن الله بالمعنى الحقيقي . هو نسبته الى نفسه الصفات والاعمال والتصرّفات الخاصّة بالله

فهو يعرّفنا بصراحةٍ ان له صفات الله فاذا لم يكن السيد المسيح يعني بقولهِ ابن الله انه ابن الله الحقيقي المولود من الآب قبل كل الدهور، فما معنى قوله عن نفسه (يوحنا ١٤ : ٦ ـ ١٧) « انا الطريق والحق والحياة . لا أحد يأتي الى الآب إلّا بي ؟ » قال له فيلبس « أرِنا الآب وحسبنا » فقال له يسوع « انا معكم كل هذا الزمان ولا تعرفني يا فيلبس . من رآني فقد رأى الآب فكيف تقول أَرِنا الآب . ألا تعلم أني في الآب وأن الآب فيَّ . وإلّا فآمن لاجل الاعمال . الحقَّ الحقَّ أقول لك إنّ من يؤمن بي فهو يعمل اعمال أبي التي انا اعملها . ويعمل أعظم منها لأني ماضٍ الى أبي . وكل ما تطلبونه من الآب باسمي، فاني افعله ليتمجد الآب بالابن . وانا اطلب الى الآب ليُرسل اليكم بارقليطاً آخر يبقى معكم . روح الحقّ الذي لا يقدر العالم أن

يقبله». فترون من هذا النصّ التميّز بين الاقانيم الثلاثة واتحادهم في لاهوتٍ واحد

واذا كان السيد المسيح لم يعنِ انه إله، فماذا كان يعني بهذه العبارة «الحقّ اقول لكم، قبل أن يكون ابرهيم إنا كائن» (يوحنا ٨:٥٨). وما معنى تلك الصلاة بعد العشاء السرّي لو لم يكن إلهاً: «والآن ايها الآب مجّدني بالمجد الذي لي عندك منذ انشاء العالم»؟ (يوحنا ١٧:٥). ما معنى هذه العبارات إن لم يكن قائلها الهاً: «انا نور العالم من يتبعني لا يمشي في الظلام (يوحنا ٨:١٢). انا الطريق والحق والحياة (يوحنا ١٤:٦). أنا القيامة والحياة (يوحنا ١١:٢٥). أنا الخبز الذي نزل من السماء» (يوحنا ٦:٤١) فكيف يدّعي بعض الكفَرة ان السيد المسيح لم يقل عن نفسه إنه إله

كلام السيد المسيح كلامُ إله وتصرّفه أيضاً تصرّف إله. نسمعه يأمر كإله مُشترع: «قد قيل للاقدمين. العين بالعين والسنّ بالسنّ. أما أنا فأقول لكم....» (متى ٥:٣٨) يأمر تلاميذه بأن يبشروا في العالم وهو واثق بأن يبقى معهم الى انتهاء الدهور «اذهبوا وتلمذوا كل الامم وعلموهم ان يحفظوا ما أوصيتكم به وها أناذا معكم كل الايام الى منتهى الدهر» (متى ٢٨:١٩ و٢٠)

يغفر الخطايا كإله. لكي تعلموا أن لي سلطةً أن اغفر

الخطايا فأنا آمرك ايها المخلَّع قم احمل سريرك واذهب الى بيتك. (لوقا ٥:١٧ ـ ٢٦)

ولما اراد ان يكافئ مريم المجدلية على حبها له غفر لها خطاياها وتكلم بما يُشعر أن الخطيئة موجّهة اليه فقال: (لوقا ٧:٤٧) «ان خطاياها الكثيرة مغفورة لها لانها أحبت كثيراً» يُعلن انه هو الاله الديّان الرهيب فيقول (متى ٢٤:٣) انه سيظهر في آخر الاجيال بمجدٍ وجلال عظيمَين، وتُحشد في حضرته كل الامم وتقوم مرتعدةً بين يديه، وهو يحكم الحكم النهائي القاضي بسعادة الانسان او بتعسه

ينسب لنفسه صفات الله، ويقول انه يعمل اعمال الله، ويطلب لنفسه العبادة الخاصّة بالله

يطلب الايمان بهِ «انتم تؤمنون بالله فآمنوا بي» (يوحنا ١٤: ١) يطلب الصلاة باسمه «كلّ ما تطلبون الى الآب باسمي فأنا أفعله ليتمجد الآب بالابن» (يوحنا ١٤:١٣) يطلب حباً أعظم من حبّ الاب والامّ والزوجة والابن (متى ١٠:٣٧) «من أحبّ أباً او أمّاً او زوجةً او ابناً أكثر مني فلن يستحقني» وقبل أن يتوارى عن العالم أمر تلاميذه بان يتمموا عمله على الارض «قد أُعطيتُ كل سلطان على الارض. اذهبوا وتلمذوا كلّ الامم وعمّدوهم باسم الآب والابن والروح القدس. وها أنا ذا معكم كلّ الايام الى منتهى الدهر» (متى ٢٨:١٨ ـ ٢٠)

٢ً هذه الشهادة صادقة

مما لا شكّ فيه اذاً ان السيد المسيح سمّى نفسه إلهاً واتخذ صفات الله وطلب العبادة الواجبة لله . فلكي يُقدم على عملٍ كهذا ينبغي أن يكون إمّا مغشوشاً او غاشّاً فيحقّ نبذُ شهادتهِ . واما صادقاً فيجب الايمان به

فهل يقال يا تُرى ان السيد المسيح مغشوش ؟ إنّ من يُغَشّ في معرفة نفسه حتى يظنّ ذاتهُ الهاً، لا يُعَدّ في اقصى درك الجهل والتغفُّل فقط، بل يُحسَب مختلّ الشعور معتوهاً، اذ لا يخطر لعاقلٍ أن يدّعي انهُ اله . فهل يجوز لنا أن ننسب شيئاً من التغفل للسيد المسيح ؟ ذلك ما لم يخطر لبشر، حتى إن اعداء النصرانية أنفسهم يقولون ان السيد المسيح هو أعقل رجلٍ ظهر في العالم وان لا نظير لهُ في الانسانية

ليس لعقله الرائق الراجح نظيرٌ في الذكاء، حتى ان اكبر مفكري الانسانية يتأمّلون في أقواله منذُ عشرين جيلاً وهم لم يتمكنوا من أن يسبروا غورَها، على ما فيها من وُضوح وجلاءٍ، قد شهد لحكمته اليهود الذين أتوا ليمسكوه فقالوا « لم يتكلم أحدٌ بمثل ما تكلم هذا » (يوحنا ٧ : ٤٦) هذا العقلُ الذي كان يسبر غور القلوب فيقولُ للسامرية تاريخ حياتها لاول مرةٍ يراها، ويخرق حجاب المستقبل فينبئ بخراب أورشليم وتشتُّت الامة اليهودية كانه يتكلّمُ عن امر ماثلٍ أمامهُ . هذا العقلُ

الذي اعطانا ديانةً فريدةً ساميةً لا يُدانيها ديانة بقداسة شرائعها، وسموّ تعاليمها، فأصبحت اساس العمران. يقول «طوبى للفقراء» فيؤسس طغمة الرهبان، «طوبى للانقياء القلوب» فيؤسس طغمة العذارى، «طوبى للرحماء» فيؤسس الجمعيات الخيرية بأنواعها. يُفرق بين الحكم الروحي والزمني بقوله «اعطوا ما لقيصر لقيصر وما لله لله». يعلمنا اننا جميعاً إخوة ويريد ان ندعو جميعنا الله أبانا

لا. ان مثل هذا العقل الرائق الثاقب الذي وضع شريعةً هي أساس المدنية ليس مغشوشاً في شهادته لنفسه انه ابن الله

ولكن إذا لم يكن السيد المسيح مغشوشاً في شهادته، فهل كان غاشاً مُخاتلاً؟ انّ من يغش العالم الى حد ان يدعوه الى عبادة كاذبة هو اكبر زنديق لانه يدّعي الالوهية، واعظمُ كافر لانه يُبعد الناس عن تمجيد الله، واعظم مُبغض للانسانية لانه يبعدها عن الوصول الى غايتها وسعادتها، وهو اعظم متكبر لانهُ يدّعي الالوهية

وهل يُنسب الكفر الى من سعى كل حياته في اعلاء مجد الله ابيهِ وقال اني لا اطلب مجدي بل مجد من ارسلني (يوحنا ٨:٥) — هل يُنسب الكفر الى من قال في خطابهِ الاخير قبل موتهِ: «قد مجدتك على الارض وأتممتُ العمل الذي عملته» (يوحنا ١٧:٤) هل يُنسب اليهِ شيء من ذلك وهو في كل حياته من المهد الى اللحد قد تمم ارادة ابيه السماويّ

هل يقدر احد ان يتهم بخدع العالم ذلك الذي مات لاجل خلاص العالم؟ هل يُنسب الغشّ الى مَن احب الكبير والصغير والغني والفقير، الى من احب اعداءه انفسهم وصلّى لاجل من يصلبونه؟ وهل ننسب الغش الى من كان ديدُنهُ صنع الخير والاحسان، الى من لم يستعمل سُلطته في عمل العجائب الا لشفاء المرضى وقيامة الموتى وتخفيف وطأة المصائب على الانسانية؟ فهل يجتمع النور والظلام معاً او الغش والمحبة الى هذا الحدّ؟

كيف يجوز لنا ان ننسب الغش الى من علّمنا كلَّ حياتهِ التواضع قائلًا «تعلموا مني فاني وديع ومتواضع القلب؟» كيف ننسب الغش الى من علمنا ان يكون كلامنا نعم نعم ولا لا؟ وأيّ غاية كانت لهُ في الغشّ، هو الذي وُلد فقيراً في مغارة بيت لحم ومات عُرياناً على الصليب وكان يقول في مدّة حياته «ان للثعالب أوجرةً ولطيور السماء أوكاراً وأمّا ابنُ البشر فليس له حجرٌ يسند اليهِ رأسه»؟ كيف ننسب الغشّ الى من كان يحبُّ ان يخفي عجائبهُ عن الناس، ولما ارادوا ان ينصّبوه ملكاً هرب منهم. لا. لم يفتكر أحدٌ بانَّ يسوع غاشٌّ. ان اعظم المفكرين حتى ممن لم يؤمنوا بالسيد المسيح يقولون انه اقدس انسانٍ وُجد في العالم. فجت الشاعر الالماني يسميه الانسان الالهي، وشانين الفيلسوف الاميركي يقول انَّ كمالات السيد المسيح هي بالنسبة الى كمالات العالم كالنور تُجاه الظلام، وباركرُ ورينانُ يقولان ليس بوسع الانسانية ان تأتي بمثلهِ. ونابليون

بعد ما هزَّ ممالك أوربا وأخضع عدداً من ملوكها وكان جنوده يحبونه الى درجة غريبة كان يقول في تأملاتهِ في جزيرة القديسة هيلانة « إني أعرف نفسي أني انسانٌ . وأمَّا يسوع فليس بانسان . إنه إلهٌ »

فان لم يكن السيد المسيح مغشوشاً في شهادتهِ ولا غاشاً أفليس من الواجب علينا أن نقول انهُ صادق . أجل ان هذه الشهادة هي صادقة، وقد أيّدها بالآيات والنبوءات كما ذكرنا وهي ختم الله على صدق كلامهِ . أيّدها بتعليم إلهي وبتصرُّف إلهي . فلم يبقَ لنا الا ان نؤمن بكل ما أوحاه الينا وان يكن فيهِ أسرار غامضة وان نتمسك بشرائعهِ مهما كانت صعبة شاقّة لانهُ هو نفسه يؤيدنا في تتميمها قائلاً لكلّ منا ما قالهُ يوماً لبولس الرسول « تكفيك نعمتي » . فلنكن مسيحيين حقيقيين، أي فلنتَّبع المسيح بالقول والعمل في طريق الكمال . إني أومن ايها السيد المسيح أنك أنت ابن الله الحي . فاجعل ايماني حيًّا بأعمالي

حب العالم للمسيح

قد اراد السيد المسيح الله يحبه العالم فاحبه فهو اله

اتضحت لنا الوهية السيد المسيح في تعاليمه وأمثالهِ وقداسته وعجائبه . سمعنا شهادته لنفسه أنه ابن الله وثبت لنا صدق هذه الشهادة المقدّسة؛ فسطع لنا نور الحقيقة كالشمس في رائعة النهار، وقام من البراهين الراهنة على ايماننا ما يجعلهُ أرسخ من الجبال الراسيات

على أنّ السيد المسيح الذي فرض على العالم عبادته قد طلب من العبادة أصعب ما فيها، أعني الحبّ . فهذا الطلب وهذا الفوز بهِ، قد تفرّد بهما يسوع، يُثبتان أنه إله . ومما أنبأ بهِ السيد المسيح أنه يُسيطر على قلوب الناس بعد موتهِ قولهُ : «وأنا اذا ارتفعتُ عن الارض جذبتُ اليَّ الجميع» (يوحنا ١٢: ٣٢) . فهو الذي لم يكن قط قد طَمع بخيرات الدنيا طمع في الحصول على القلوب، بل طلب منها حبًّا يفوق كلّ حب : «من أحب أباً أو أمًّا او ابناً أو زوجةً او اخوةً أكثر مني فلن يستحقني» . طلب كل ذلك فنالهُ . وهذا ما لم يتجاسر على طلبهِ انسان ولن ينالهُ من بشر طالب، مهما كان عظيماً، ومهما اشتدّت رغبتهُ في الحصول على منزلة رفيعة في القلوب

فان اصعب ما يطمع فيه الانسان هو اكتساب محبة القلوب. فالقلوب أعصى وأمنع من أن تُنال بالقوّة، وأضعف من أن تثبت على محبة، وأبعد من أن تستسلم لمخلوق استسلاماً مطلقاً. والانسان قد يقدر بالقوة أن ينال من غيره ما شاء، إلّا الحب، فهو لا يُنال بالقوّة، وانما يُنال بعضهُ بالمعروف، وكم قيل مع ذلك: اتقّ شرّ من أحسنت اليه. ما اكثر ما يرغب الانسانُ في ان يُحبه الناس، وما اكثر الذين خابت آمالهم في الاستيلاء على القلوب. سمعتُ مراراً مثل هذا القول: قد عملت الخير كل حياتي، ومع ذلك لم أرَ لي خِلًّا وفيًّا

لذلك لا يطمع الناس في الحصول على محبة بعض الاصحاب. فنرى الولد طفلًا يجد سعادته ببعض قُبلاتٍ من والدته وذويهِ ومداعبة اخوته اياه وابتسامات الزائرين له. واذا ما نشأ وترعرع اكتفى بمحبة والديهِ واخوتهِ وبعض اقاربه واصحابه. وعند ما يشبّ وتضطرم لواعج الحب في قلبهِ يطلب شريكةً لحياتهِ، ويجعلها مستودع اسراره ومخزن حبهِ. واذا تقدّم في السنّ ارتاح الى معاشرة قليل من الاصحاب قد يترددون اليهِ في بيتهِ. اما سائر اصحابه الكثيرين الذين طالما عاشرهم وتظاهروا بالوداد، فها انهم قد صدّوا وقاطعوا، لان الاخلاص نادر ويبقى دائماً قلبهُ محروقاً لكونهِ لا يُلاقي أصحاباً كما شاء، ولا بقدر ما كان يرجو

لقد عاشره الناس ما دامت الايام تتبسم لهُ. فلما قلبَت لهُ ظَهْر المِجنّ ابتعدوا عنهُ ولم يبقَ خِلٌّ يصادقه. والصداقة اذا

كانت خالصة تدوم بدوام الحياة فقط . وأمَّا بعد الموت فعلى بال من نخطر ؟ فان اصحابنا يكتفون ببعض عبرات يذرفونها علينا واذا وارتنا حُفرة القبر فهيهات أَن يبقى لنا ذكرٌ في القلوب إلّا في قلب أُمٍّ أَو أَبٍ أَو أَخٍ أَو شريكة حياة الى حينٍ ما . وكثيرًا ما يصدق المثل القائل : « ما يبعد عن العين يبعُد عن القلب » . فهذا هو الحبّ الذي نطلبه ونكاد لا نحصل على بعضهِ إلّا من بعض الافراد، وهو مع ذلك لا يرافقنا إلَّا مدة الحياة، ويضلّنا اذا وارانا القبر . وامَّا السيد المسيح فانه طلب ما هو اعظم من ذلك جدًّا، وأَعلن بثقة انه سيدعو القلوب فتلبّيه ويسيطر عليها مدى الاجيال ويحلّ منها محلًّا لا يطمع بهِ أب ولا أم ولا أخ ولا زوج، بل لا يطمع به انسان من نفسه لنفسهِ . أَعلن وطلب فقال : « وأَنا اذا ارتفعت عن الارض جذبت اليَّ الجميع »

طلب أَن يُحبوه اكثر من حبهم للمخلوقات بأسرها (متى ١٠ : ٣٧) : « من أَحب أَباً أَو أُمًّا ... او ابناً او بنتاً اكثر مني فلن يستحقني » . وقد فاز بكل ما طلب

نراه مدة حياته بعد ما شفى المرضى وأَقام الموتى وصنع الخير الكثير لم يحصل إلَّا على قليل من الاصدقاء . وفي آلامهِ وموتهِ لم يرَ قلباً مُحبًّا يدنو منه إلَّا قلب أُمّهِ الطاهرة وتلميذه الحبيب وبضع عابدات تقيّات . ولكنه قد أَنبأَ قائلًا : « وانا اذا ارتفعت عن الارض جذبت اليَّ الجميع » (يوحنا ١٢ : ٣٢) . فمذ صُلب ومات جذب اليهِ الجميع

أخذ قائد المئة يقول : بالحقيقة كان هذا ابن الله . وقد أصبح صليبه أثمن وأجلّ ما في العالم، يُفاخر الملوك والكبراء بحصولهم على ذخيرةٍ منه ولو طفيفة صغيرة

ثم انه من بعد صعوده الى السماء زادت قلوب تلاميذه شغَفاً حتى اصبحوا يرون العذاب في سبيله حظاً وسعادةً لهم وانتشروا في الارض كلها يُنادون بتعاليمه ويؤيّدون شهادتهم لها بدمهم، حتى ماتوا كلهم شهداء، ما عدا القديس يوحنا الحبيب، الذي بعد أن وُضع في مِرجل ماء يغلي نجا ومات طاعناً في السن . مات الرسل كلهم محافظةً على عهود حبهم ليسوع

ومن بعد الرسل نهج المسيحيون نهجهم في سبيل الرب يسوع، فاستشهد عدد كبير منهم على توالي الاجيال، مفضّلين أن يضحّوا بحياتهم وأن يقاسوا أمر الاعذبة على أن يُنكروا اسم الرب يسوع . وليس في غير الديانة المسيحية مثل هؤلاء الشهداء

أحبه النسّاك والمتعبدون فهجروا الدنيا الغرور وملذّاتها الخدّاعة خوفاً من أن يكدّروا صفاء ضميرهم ويُضعفوا في قلوبهم حبّ المسيح العَذب، وهم يعلمون انه تعالى يحفظ لهم اكليل الظفر

جذب الى حبهِ الجميع حتى اصبح مُحبوه وعابدوه يؤلفون السواد الاعظم في كل البلاد الراقية . فما عرفه بشَرٌ إلّا أحبه . ولا أَحبَهُ قلبٌ الّا وحبهُ فيهِ وسمٌ لا يُمحى . أجل انه قد

انفصل ويا للأسف جزء كبير من الكنائس الشرقية عن وحدة الكنيسة، وحاول هنريكوس الثامن أن يفصل انكلترا عن كنيسة المسيح الحقيقية، فأفلح في سعيه . وحاول لوتيرس أن يفصل المانيا عن وحدة الكنيسة، فنجح . غير ان سموم الشكوك ومظالم الملوك وحِيَل الهراطقة والمشاقين لم تستطع أن تستأصل من قلوب هولاء المخدوعين جذور محبة يسوع العذبة، ولم يتجاسر احد ان يجاهر بالعداء لشخص يسوع المعبود ويدعو الى غير محبتهِ

ومهما طغَت الثورة وروح فولتير وروسو روح الزندقة العصرية لاخماد الديانة في القلوب فان حبّ يسوع لا يزال يزداد انتشاراً في عصرنا، كما قال رينان، الف مرة اكثر مما كان عليه في حياته . ولو اكتفى يسوع بمجرّد حب الرقة والاعجاب لعُدَّ مسيحياً كل من اطلع على انجيلهِ، ولكنه تعالى لا يقبل من الحبّ الّا ما كان تفضيلياً مثبتاً بقبول كل تعاليمه وحفظ جميع وصاياه . هذا هو الحب الذي طلبه يسوع من العالم بأسره وقد طلبه بقوّة حقوق الوهيته، وعظمة كمالاته الالهية . وما اعظم ما استحقه فطلبه، فناله

ان لك اباً وأمّاً تحبهما بشغَف . وكلما تقدّما في العمر وجب ان تزداد محبتك لهما، لانك لا تستطيع ان تقدر اتعابهما عليك حق قدرها . على ان السيد المسيح يطلب أن تحبه اكثر من الاب والأم : « من أحبّ أباً او أمّاً اكثر مني فلن يستحقني » ولك ابن تكاد محبتك اياه تقرب من العبادة، لانك ترى فيه

صورة نفسك وتمديداً لوجودك، على ان السيد له المجد يطلب أن تحبه اكثر من محبتك لولدك : «من أحب ابناً اكثر مني فلن يستحقني»

ومهما كانت محبة الزوجين وثيقة لانها بركةٌ من الله حتى تجعل الاثنين واحداً، فالسيد المسيح يطلب أن يكون حبهما له اكثر من الحب الذي يتبادلانه : «من أحب زوجاً او زوجةً اكثر مني فلن يستحقني»

ولكن أمن الممكن طلب هذا الحبّ ؟ أليس من يطلب ذلك يعرّض نفسه للاحتقار والهزء والسخرية ؟ من يطلب حباً أشدّ من حب الاب والام والولد والزوجة الا الله ؟ فهذا مع ذلك ما طلبه السيد المسيح . وهذا ما ناله

الا اقرعوا باب احد الديورة التي تكاد لا تحصى، كدير الكرمل ودير راهبات العجّز، واسألوا تلك الفتاة التي سجنت نفسها سجناً اختيارياً مُضحية بشبابها وحياتها وجمالها ومستقبلها، وقد حُظر عليها ان كانت كرملية مثلاً ان ترى العالم الا بعد خمسين سنة من دخولها الدير . سَلوها ما الذي يُشجعكِ ويحملكِ على ان تعيشي هذه العيشة الخفية القشِفة . فهي تجيبكم إني أجد ملذتي وسعادتي في حبّ يسوع . سَلوا تلك الفتاة العذراء ما الذي يجعلها ترفض كلّ فكر او تصوُّر من شأنه ان يغبّر زنبقة عفافها البهية ولو بذرّةٍ من غُبار الاهواء المُنحرفة، فهي تقول لكم اني احفظ بتوليتي من كل شائبة لتليق بيسوع حبيبي

أسألوا ذاك الكاهن المُرسل الذي يضحي بملذاته ومستقبله ويهجُر بلاده ليذهب الى صحاري افريقيا ومجاهل الهند، حيث يعيش عيشة التقشف والحرمان، ويستهدف للاخطار والعذاب والموت في سبيل خدمة النفوس، وانارة الجهال، وعيادة المرضى، ومساعدة الفقراء . قولوا له ما الذي يبعثك على كل هذا ويساعدك على احتمال هذه العيشة الشاقة . فانه يجيبكم : هو يسوع حبيبي الذي أمرني ان ابشّر به في العالم؛ حسبي حبهُ العذب مكافأةً وغبطةً وفخرًا لي . سلُوا ذاك الشهيد، وما اكثر الشهداء في النصرانية، ما الذي يدفعك الى فراق الدنيا وملذّاتها وبذل الحياة التي لا شيء اعزّ منها، ومن ذا الذي يساعدك على ذلك . فهو يجيبك : ان يسوع مات لاجلي وانا استعذبُ الموت في سبيله، أموت بالجسد ولكن نفسي تحيا بحبه، وحين اموت تبتدئ افراحي بمشاهدته والاتحاد به في السماء

اسألوا المسيحيين الاتقياء كلهم يجيبوكم مع القديس بولس : «من يفصلنا عن محبة المسيح ؟أشدةٌ ام ضيقٌ ام جوع ام عري ام خطر ام اضطهاد ام سيف ؟ » (رومة ٨: ٣٥) اننا نُريد ان ننحلّ لنكون مع المسيح (فيلبي ١: ٢٣)

بيد أنّ حُب يسوع قد أرانا نوعاً آخر من السيطرة على النفوس يُذهل الافكار، فقد جعل في قلوب الامهات قلوب اشد الابطال بأساً . ففُهن بكلامٍ حازمٍ تُنكره الانوثة والامومة، ووقفن موقف جُرأةٍ أخزَتْ قواد العالم وملوكه . فتلك بلانش

دي كاستيل ملكة فرنسا كانت تقول لوحيدها لويس التاسع ملك فرنسا، في عهد حداثتهِ : « اني افضِّل يا ولدي ان اراك ميتاً على ان اسمع عنك انك تُهين الرب يسوع بخطيئة مميتة ». وكم من أمٍّ روى عنها التاريخ انها قالت لابنها، وقد طُلب منه ان يقدّم قرباناً للصنم : تذكَّر يا ابني اني حملتك في احشائي وغذوتك من لبني، فارحم امك ولا تكن خائناً للمسيح . اشترِ بهذه الدنيا الشقية سعادة الآخرة حيث اجتمع بك فيها وأقدمك ليسوع إلهنا . هذا ما فعلته القديسة سنفوروزا والقديسة سعدى وكثيرات من امثالهما . هذا ما فعلته القديسة بربارة اذ حاول ابوها ان يحملها على تقديم الذبيحة للوثن، ففضلت ان تموت على ان تستجيب في هذا السبيل دموعه متوسلًا او تهديداته مستبسلًا، وصبرت على رؤيته هو نفسه جلادها الذي قطع بيده الاثيمة رأسها

لا، ان حب يسوع يقتضي اكثر من ذلك . يطلب ان يستولي على قلبنا بعد أن نُفرغ منه حب الذات . يطلب أن نُميت أهواءنا، وأن ندوس شهواتنا وأن نعاكس أميال الطبيعة السافلة ليبقى حبه في قلبنا كاملًا . ويطلب منا ان نكفر بنفسنا، اي ان ننسى نفسنا ونُنكرها لتسود محبة يسوع فيها : « من اراد ان يتبعني فليكفر بنفسه ويحمل صليبه ويتبعني » . ان حب يسوع وحبّ اميالنا ككفتي ميزان ترجح الواحدة منهما على قدر ما تخفّ وترتفع الاخرى

فارجو منكم ان تتبصروا في شخص ذلك الذي قام في قرية صغيرة من فلسطين وتجاسر ان يقول : اني اريد ان يحبني العالم ولا يشرك بحبي احداً، فنال ما اراد . اني اريد ان يحبوني بعد موتي، فنال ما اراد . اني اريد ان يحبوني فوق كل حب، فوق حب الام والاخ والزوجة والابن، فنال ما اراد . اني أُريد أَن يبغض الانسان نفسه ليحبني، فنال ما اراد . هل من يفوه بهذا الكلام هو انسان ؟ وهل من يحقق هذه الرغبات هو انسان ؟ لا — انه كلام اله — انها سلطة إله حي يريد ان يحيا في القلوب، انها سلطة من بيده الحياة والموت ومَن بيده قلوب البشر يطلب منها ما يُريد ويحصل على ما يشاء

ان هذا التأمل كان اكبر برهان لدى نابليون على ألوهية السيد المسيح فانه لما كان منفياً في خلوة جزيرة القديسة هيلانه أَخذ يتأمل في هذا المشهد فقال : « ان يسوع بطلبه حب البشر قد طلب اصعب شيء، فطلب ما لا يناله الحكماء من اتباعهم . طلب ما يصعب أحياناً على الاباء أن ينالوه من اولادهم، وعلى الزوجة من زوجها . طلب القلب واقتضى حبه، فنال ما أَراد . فانا استنتج من ذلك انه اله » . ثم اضاف الى ذلك فقال : « ان المسيح تكلم وكل الاجيال اصبحت ملكه مرتبطة به باشدّ الروابط واقدسها . انه اشعل في القلوب الحب الحقيقي الذي يميت الحب الذاتي، أَشعل حباً يفوق كلّ حبّ . لقد تفكَّرت في ذلك ملياً وأنا ازداد دهشاً . وهذا ما يبرهن لي تماماً ان المسيح هو إله . قد جعلت

الجيوش تعشقني وتموت لاجلي ولكن حصلت على ذلك بحضوري بينها بكهربائية نظري وبصوتي . والآن وانا وحدي في جزيرة القديسة هيلانه، مسمَّر على هذه الصخرة، من يتحرك لاجلي في اوربا ؟ اين اصحابي ؟ . . . »

ثم اخذ نابليون يذكر الملك لويس الرابع عشر وما كان عليه من المجد . فقال : « ان هـذا الملك العظيم لم يكَد يلفظ روحه حتى تركوه وحده، واصبح موضوع الاهمال والسخرية . فلم يعاملوه بعـد موته كسيدهم ولم يروا فيه الا جثة هامدة ستنحل عن قريب ويُلقي منظرها الذعر في القلوب » .

ثم قال نابليون : « وهذا ما سيحلّ بي انا ايضاً . فاي هوّة ساحقة بين ضعفي المتناهي وقوة ذلك الملك السيد المحبوب المعبود الحي في العالم بأسره ؟ . . . »

فأحرِ بهذا الكلام ان يكون موضوع تأمل كل انسان . اي نعم ان حب العالم ليسوع هو حيّ لان المسيح حيّ . وخير ما نختم به هذا الموضوع كلمة قالها باسكال الكاتب النابغة الذي يعبّر بكلمة واحدة عما لا يسع غيره أن يوضحه الّا بعبارات طويلة لمضاء فكره وبعد نظره، قال : « لقد اراد السيد المسيح ان يُحبه العالم، فأحبه . فهو إذن إله »

آلام المسيح

هذا حمل الله رافع خطايا العالم

انّ القديس يوحنا المعمدان لما اراد ان يعرّف الى تلاميذه يسوع المسيح أشار اليه قائلًا: « هذا حملُ الله رافع خطايا العالم » (يوحنا ١: ٢٩). فيا لها من عبارةٍ ألهم بها الروح القدس القديس يوحنا المعمدان. فهي تعرّفنا بأوجز مقال ان الله لم يُرسل ابنه الى الارض الا ليُذبح كحمل بريء صامت، وتكون غاية هذه الذبيحة غفران خطايا العالم. لذلك لا نرى شرحاً أوفى في وصف آلام السيد المسيح من ان نشرح أولاً كيف ذُبح حملُ الله. ثانياً كيف ذُبح ليرفع خطايا العالم

١ً كيف ذُبح حمل الله

هوذا وقتُ ذبح حمل الله قد آن. فما هذا الانقلاب الفجائي في هذه الضحية؟ فبعد ان كنا نسمع السيد المسيح يردد بشجاعة: « ينبغي لابن البشر ان يُرذَل من مشايخ الشعب ويتألّم ويموت »، ويقول ذلك وهو يتقدّم تلاميذه صاعداً بنشاط الى اورشليم، بعد ان كان يقول متهللًا: « ولي صبغة ينبغي ان اصطبغ بها وما

اشد تضايقي حتى تتمّ »، بعد ان القى خطابه الاخير البديع الرائق وهو نازلٌ الى الجتسمانية : « لا تضطرب قلوبكم ولا تجزع، السلام استودعكم، سلامي اعطيكم» (يوحنا ١٤-١٧)، بعد ان صلى صلاته الاخيرة السماوية لاجل تلاميذه : « ايها الآب القدوس احفظ باسمك الذين اعطيتهم لي ليكونوا واحداً كما نحن واحد»، نراه الآن، وقد وصل الى بستان الزيتون مُمتقع اللون، يحزَن ويكتئب ويغيّر لهجته الى الخوف والاضطراب، فيقول : « ان نفسي حزينة حتى الموت » (مرقس ١٤:٣٤)، اي انّ ما بي من الحزن لكافٍ لان يسبب لي الموت. نراه في هذا الحزن العميق يشعر بحاجة الى الصلاة، فيقول لتلاميذه : أُمكثوا ههنا لامضي واصلّي هناك . وبعد ان يتباعد عنهم نحوَ رمية حجرٍ في هدوء الليل وسكينته يجثو تحت شجرة زيتون يتخلل ظلالها نورُ القمر بل يخرّ على الارض معفِّراً جبينه بالتراب ويصرخ بقلب جريح: « يا ابتِ ان كان يُستطاع فلتعبر عني هذا الكأس ». قد اشتاق اذن الى تلك الساعة، فلما اتت خاف من تلك الكأس التي يقدمها لهُ ابوه السماوي. رأى فيها اعذبةً جسدية واعذبة نفسية لا تُطاق . رأى في هذه الاعذبة الجسدية عنف خدام الهيكل والجنود وكبرياء روساء الكهنة ورياءهم وعذاب الجلد وإكليل الشوك وسخرية هيرودس والحكم عليه بالموت وحمل الصليب مع سائر آلام الصلب . ورأى في الاعذبة النفسية خيانة يهوذا وترك الرسل اياه وكفران الشعب جميله، بعد ما غمرهم بنعمه وعجائبه، وتفضيلهم

لصًّا عليه واستهزاء روساء الكهنة به حتى على الصليب . رأى اكثر من ذلك، رأى خطايا العالم متراكمةً على عاتقه وهو القداسة بالذات، لا يحتمل ولو شِبه الخطيئة . وهذا ما رأى فيه شدة هول العذاب : ان يكون ابن الله البريء من العيب بل البرارة بالذات، ويعامَل كمجرم، حتى ان اباه الازلي عند رؤيته اياه حاملًا خطايا العالم تركه يتعذّب بلا تعزية . وما زاد في مرارة تلك الكأس معرفته ان عدداً عظيماً من البشر لن ينتفعوا من دمه الاطهر، بل انه يهراق لاجلهم عبثاً . راى يسوع هذه الكأس وما فيها من العذاب الجسدي والنفسي فارتعشت جوارحه وانقبضت جوانحه وصرخ معفّراً جبينه بالتراب : « يا ابتِ ان كان يُستطاع فلتعبر عني هذه الكأس » (متى ٢٦ : ٣٩) . ولشدّة ما قاسى من العذاب ذكر الانجيل المقدّس أن عرقه صار كقطرات دمٍ يتساقط على الارض (لوقا ٢٢ : ٤٤) . فمن يتصوّر عذاباً يجعل كل مسامّ الجسم جراحاً تقطر العرق دماً ؟ جرَت هذه المعركة الداخلية في نفسه ثلاث مرات، وهو في كل منها يختم كلامه بقوله : يا ابتِ « ليس كمشيئتي بل كمشيئتك » (متى ٢٦ : ٣٦). ولما راى ان إرادة ابيه السماوي ان يشرب الكأس قال : « ان كان لا يستطاع ان تعبر عني هذه الكأس الا ان اشربها فلتكُن مشيتك » (متى ٢٦ : ٤٢) . واذ ذاك تجلّد وقبل الضحية وسلم ارادته الى ابيه السماوي، وقام وقال لتلاميذه : « ناموا الآن واستريحوا فهوذا قد قرب الذي يسلمني » (متى ٢٦ : ٤٥) . ثم

تقدّم وأسلم نفسه الى ايدي اعدائه . فبدأ عذابه بخيانة يهوذا الذي انتحل اكبر علامة المحبة واسطةً لاقبح خيانة . فكان جواب السيد المسيح له : « يا صاح أَبقُبلةٍ تسلم ابن البشر ؟ » (لوقا ٢٢ : ٤٨)

ومنذئذ نشاهد هذا الحمل البريء من العيب يُساق كشاة الى الذبح وكحمل امام الذين يجزّونه لم يفتح فاه (اشعيا ٥٣ : ٧)، لم يفتح فاه الا للضرورة او لتتميم اقوال الانبياء . وقبل أن يُسلم نفسه الى ايديهم اراهم انه انما يسلمها مختاراً لا مضطراً، اذ لما سألهم من تطلبون وقالوا يسوع الناصري كفاه ان قال : « انا هو » حتى ارتدوا الى الوراء وسقطوا على الارض . وهو نفسه يحامي عن اعدائه بقوله لبطرس، لما استلّ سيفه وقطع أذن احدهم: « اردد سيفك الى غمده ... أتظن أني لا استطيع أن اسأل ابي فيقيم لي الحال اكثر من اثنتي عشرة جوقة من الملائكة (متى ٢٦ : ٥٢ و٥٣) ولكن هذه ساعتكم وهذا سلطان الظلمة (لوقا ٢٢ : ٥٣) وانما كان هذا كله لتتم كتب الانبياء » (متى ٢٦ : ٥٦)

قادوا الحمل الالهي الى حنّان واخذوا يُوردون عليه الشكايات الكاذبة المدبرة وهو ساكت . وهناك لطمه احد الخدّام فلم يُجبهُ يسوع الّا بقولهِ : « ان كنت تكلمت بسوءٍ فاشهد عليّ بالسوء وان بخيرٍ فلماذا تضربني ؟ » (يوحنا ١٨ : ٢٣) قادوه امام محكمة قيافا وأوردوا عليهِ شهادات زور كثيرة، ويسوع ساكت

لم يفتح فاه، الّا عندما استحلفه قيافا باسم الله الحيّ هل هو المسيح . فاعتباراً لاسم الله واظهاراً للحقيقة أجاب : « انت قلت، انا هو » (متى ٢٦:٦٤ ومرقس ١٤:٦٢) وافهمه أنه هو الديان الذي سيأتي يوماً ليدينه : « وايضاً اقول لكم انكم من الآن ترون ابن البشر جالساً عن يمين القدرة وآتياً على سحاب السماء . حينئذ شقّ رئيس الكهنة ثيابه وقال : لقد جدّف فما حاجتنا الى شهود ؟ ها انكم قد سمعتم تجديفه . فماذا ترَون ؟ فاجابوا وقالوا : انه مستوجب الموت » (متى ٢٦:٦٤-٦٦) فما كان منهم إلّا « ان بصقوا في وجهه ولكموه وآخرون لطموه » (متى ٢٦:٦٧)، ويسوع لم يفتح فاه

وفي الغد جاء رؤساء الكهنة وشيوخ الشعب والجمع فاوثقوه وقادوه الى بيلاطس البنطي وقالوا: إنّا وجدنا هذا الرجل يبلبل الأمة ويمنع الجزية عن قيصر، فكانوا يشكونه ويسوع لا يفتح فاه . فقال بيلاطس : أما تسمع ما يشهدون به عليك ؟ فلم يُجبه بكلمة حتى تعجب الوالي جدًّا وقال لهُ : «أما تعلم أن لي سلطاناً ان أطلقك ولي سُلطاناً ان اصلبك ؟ فاجاب يسوع : ما كان لك عليَّ من سلطان لو لم يُعطَ لك من فوق» (يوحنا ١٩:١٠ و١١) . فاراد بيلاطس ان يتبرأ من تبعة الحكم عليهِ فارسلهُ الى هيرودس لمعرفته انه جليلي . فاراد هيرودس ان يتخذه واسطة للتسلية ليرى عجائبه . اما يسوع فلم يفتح فاه، ولم يجب بشيء عن شكايات روساء الكهنة والشيوخ . وكان هيرودس يتمنى لو

يسمع منه كلمة واحدة، فلم يسمعها . حينئذٍ عامله كأحد المجانين وألبسه ثوباً لامعاً وردّه الى بيلاطس

واراد بيلاطس ان يخلصه، فقدّمه مع لصٍّ مشهور وخيَّرهم في إطلاق من يريدون، ففضلوا إطلاق اللصّ، وطلبوا صلبَ يسوع . واذ ذاك عزم بيلاطس ان يحرّك شفقتهم بان يُريهم يسوع في أشدّ حالة من الذلّ والعذاب : فأمر بجلده واسلمه الى فِرقة كاملةٍ من الجنود وهؤلاء استعملوا قوّتهم الوحشية في جلدِهِ حتى أوسعوه جراحاً، واستنزفوا دمه . وزادوا على ذلك اكليل شوك جعلوه على رأسه . وأضافوا الى العذاب السخرية فنزعوا ثيابه وألبسوه رداءً قرمزيًّا . وجعلوا في يمينه قصبة . ثم جثوا قدّامه وهزأوا به وهم يقولون : « السلام يا ملك اليهود » . ثم شرعوا يلطمونه وأخذوا القصبة وضربوا بها رأسه وبصقوا عليه، وهو ساكت كالحمل . ولما اراد بيلاطس ان يعطف بقلب الشعب على يسوع اخرجه وهو لابس مهزأة ثوب الارجوان، واكليل الشوك على رأسه وقال لهم : « هوذا الرجل » . فلما رآه روساء الكهنة والخدّام صرخوا قائلين : « اصلبهُ اصلبهُ » . فقال لهم بيلاطس : خذوه انتم واصلبوه فاني لا اجد فيه علّة . أجاب اليهود : انَّ لنا ناموساً وبحسب هذا الناموس هو مستوجب الموت لانه جعل نفسه ابن الله . واذ رأوا ان بيلاطس لم يرَ رأيهم اخذوا يهدّدونه قائلين : ان انت اطلقته فلست محباً لقيصر، لان كلّ من يجعل نفسه ملكاً يقاوم قيصر . فلما رأى بيلاطس

انه لا ينتفع شيئاً ولكن يزداد البلبال، اخذ ماءً وغسل يديه قدّام الجمع وقال إني بريء من دم هذا الصديق ابصروا انتم . فاجاب جميع الشعب قائلين : « دمه علينا وعلى بنينا » . فأراد بيلاطس ان يرضي الجمع . ففضل منصبه على سماع صوت ضميره، وارضاء الشعب على ارضاء الله . فحكم بنذالة وجُبن ان يُجرَى مطلبهم واسلم يسوع لارادتهم ليُصلَب

وقد سمع الحمل الالهي الحُكم عليه بالصلب، وهو ساكن ساكت . فتمت بذلك النبوءة : « كشاة سيق الى الذبح وكحمل صامت امام الذين يجزّونه، ولم يفتح فاه » (اشعيا ٥٣ : ٧)

حمَّلوه ذلك الصليب الثقيل الكبير . ولم يعد ليسوع قوّة على مواصلة السير، وقد زاد في انكساره التقاؤه وهو في هذه الحالة بأمّه الحزينة، ويا له من ملتقى ! ما اوجعه ! طعن في نفسها السيف الذي أنبأ به سمعان الشيخ . واذا كانت لم تمت لمشاهدتها ابنها في تلك الحالة، فما ذلك الا بأعجوبة من الله . تابع يسوع سيره، وقد خارت قواه، فسقط تحت الصليب وخاف اعداؤه ان يموت قبل ان يُصلب، فسخَّروا رجلاً من السابلة اسمه سمعان القيرواني بحمل الصليب . ومع كل ما قدَّم يسوع من الخير واجرى من الآيات، لم يجد في طريقه مَن يشفق عليه او يجرؤ على اظهار الشفقة، إلا بعض النساء كالقديسة فيرونكا التي لمَّا رأت وجه يسوع مخضَّباً بالدم اجتازت بين الشعب ومسحت وجهه، فكافأها يسوع بطبع ملامحه على منديلها

هناك ايضاً سربٌ من بنات اورشليم أخذن يلطُمن وجوههن وينُحن عليه . اما يسوع الذي يطلب ممن يرى عذابه دموع التوبة لا دموع الرّقة، لانه يتعذّب لاجلنا، فالتفت وقال لهن : « يا بنات اورشليم لا تبكين عليَّ . بل ابكين على انفسكن وعلى بنيكن . فها إنها تأتي أيّام يُقال فيها : طوبى للعواقر والبطون التي لم تلد والثدي التي لم ترضع . حينئذ يبتدئون يقولون للجبال اسقُطي علينا، وللاكام غطينا، لانهم ان كانوا صنعوا هذا بالعود الرّطب فماذا يكون باليابس ؟ » (لوقا ٢٣ : ٢٨ ـ ٣١)

هوذا قد بلغ الحمل الالهي محل الذبح . فمدّ يديه وانبسط على الصليب . فثقبوا يديه ورجليه، ومزّقوا اعصابه، واسالوا دمه، ورفعوه على الصليب بين السماء والارض، وجعلوا لصَّين عن يمينه ويساره . حينئذ فتح الحمل الالهي فاه ليتكلم فماذا قال ؟ هل تشكّى او عاتب او لام ؟ كلا . لا شيء من ذلك . بل اسمعوا كلامه الذي لا يخطر لبشر : انه طلب من أبيه الازلي ان يسامحهم وينتحل لهم العذر في خطيئتهم الفظيعة بقوله : « يا ابتِ اغفر لهم لانهم لا يدرون ما يعملون » (لوقا ٢٣ : ٣٤)

هوذا الضحية تُذبح . والام المسيح لا يقدر ان يصفها الا من عاناها، وحق له ان يقول : هل من وجع كوجعي . وقد دامت هذه الآلام على الصليب نحو ثلاث ساعات، ويسوع يحتملها بصبرٍ وهدوء، ولم يفتح فاهِ الا ليغفر للصّ التائب ويعده بالفردوس : « الحق اقول لك اليوم تكون معي في الفردوس » .

لم يفتح فاه الا ليولينا منةً لا تُقوّم بثمن: فانه، بعد ان اعطانا جسده ودمه، بقيت أمّه وهي اعزّ ما لديه من المخلوقات باسرها. فأعطاناها امًّا بشخص يوحنا الحبيب: اذ التفت الى التلميذ الذي كان يحبه وقال لأمّه: «يا امراة هوذا ابنكِ» ثم قال للتلميذ: «هذه أمك» (يوحنا ١٩: ٢٦ و٢٧). لم يفتح فاه الا ليتمّ قول الكتاب فقال: «أنا عطشان» (يوحنا ١٩: ٢٨) فسقوه خلًّا ومرارة. لم يفتح فاه الا لينطق بتلك العبارة التي ذكرها النبي داود، وهي تدلّ على أشدّ عذابٍ لحق بيسوع، ذلك العذاب عندما رأى أباه الازلي قد أهمله ليكفر عن الخطيئة، فصاح: «إلهي إلهي لماذا تركتني؟» (متى ٢٧: ٤٦) واخيراً لما رأى ان ضحيته قد تمت وانه أتم ارادة ابيه الازلي سلّم الروح بقوة سُلطانه قائلًا: «يا ابتِ في يديك استودع روحي» (لوقا ٢٣: ٤٦)

فلبست الطبيعة ثوب الحداد امام هذا المشهد: فاخفت الشمس اشعتها بلا غيوم ولا كسوف. وانشق حجاب الهيكل اثنين من فوق الى أسفل دلالةً على نهاية تأريخ الشعب الاسرائيلي كشعب الله المختار. وزلزلت الارض زلزالها، وتشققت الصخور، ولم تزل هذه الصدوع بادية الى الآن في حجر الجلجلة حيث يُشاهد الصخر مشقوقاً الى عمق متر ونصف متر ككتابة جبّارية تشهد على ممر الاجيال بهذا الحادث الرهيب واستعاد كثير من الراقدين اجسادهم. فخاف قائد المئة ومن معه واخذ يقرع صدره

قائلًا : « في الحقيقة كان هـذا الرجل ابن الله » (مرقس ١٥ : ٣٩) . فتلك هي ذبيحة الحمل الالهي . فذلك هو حمل الله الآتي ليرفع خطايا العالم

٢ كيف حمل الله يرفع خطايا العالم

ان على العالم خطايا، أتى حمل الله ليرفعها . فهناك الخطيئة الاصلية تتناول كل مولود من سُلالة آدم حاشى يسوع وأمه العذراء، وذلك بجريرة ابوينا الاولين، اذ تمرّدا فخسرا نعمة الله والحق في الملكوت السماوي، واصبحا في حالة عداوة مع الله جديرين بغضبه ونقمته . فحكم عليهما بالطَّرد من الفردوس، بالضعف والجهل، بالامراض والمشقات والموت . هـذه الخطيئة الاصلية ورثناها من ابينا آدم، وكلنا نُولَد ملطخين بها، متحملين تبعاتها، فاقدين نعمة البرارة والحق في الارث السماوي، شبيهين بجدول ماء أجاج يستمد مرارته من أصل ينبوعه ـ فهذه الخطيئة الاصلية رفعها حمل الله بموته على الصليب

ان على العالم خطايا فعلية : وهي الخطايا التي يرتكبها كل من البشر من اوّل جريمة قائين الى آخر اثم يرتكبه خاطئ قبل الدينونة . خطايا لا تكاد تحصى من كفر وكبرياء وقتل ونميمةٍ وحسد وسرقة وبُخل وزنى وكسل وكذب وشراهة . وكلها شوّهت وجه الانسانية وزادتها شناعةً امام الله . فهذه الخطايا الفعلية

قد رفعها حمل الله رافع خطايا العالم

ان على كل منا خطايا ككفران الجميل ونقص محبة لله وللقريب، وغير ذلك من الخطايا مما يجعلنا شركاء اليهود في صلب المسيح، لان كلّ من يُهين الله بالخطيئة المُميتة يصلب المسيح ثانية كما قال الرسول . فهذه الخطايا قد رفعها ابن الله بموته على الصليب واصبح في وسعنا التخلص من وزرها وتبعتها وعقابها بسرّ التوبة الصادقة، وبالاسرار التي أعطاناها للاستفادة من فيض استحقاقاته الغير المتناهية

قد رفع السيد المسيح بآلامه خطايا العالم وأتمّ كل النبوءات . وهذا ظاهر من أقواله واقوال الانبياء . قال النبي اشعيا: (٥٣: ٥ـ٧) «جُرح لاجل معاصينا وسُحق لاجل آثامنا... كلنا ضللنا كالغنم . كلّ واحد مال الى طريقه . فألقى الرب عليه إثم كلنا . قُدّم وهو خاضع ولم يفتح فاه . كشاةٍ سيق الى الذبح وكحملٍ صامت امام الذين يجزّونه ولم يفتح فاه» . ذكر النبي داود آلام صلبه كأنه شاهد عياني فقال (مز ٢١) : «ثقبوا يديّ ورجليّ إني أعدّ عظامي كلها . أنا دودة لا انسان عارٌ عند البشر ورذالةٌ في الشعب . كل الذين يبصرونني يستهزئون بي يفغرون الشفاه ويهزّون الرؤوس . يقتسمون ثيابي وعلى لباسي يقترعون . جعلوا في طعامي مرارةً وفي عطشي سقوني خلًّا . إلهي إلهي لماذا تركتني»

والسيد المسيح نفسه ألم يعرّفنا انه سيموت ليرفع خطايا

العالم ؟ ألم يقل ان جسده يُكسر لاجل خطايانا، ودمه يُهراق لاجل خطايانا ؟ ألم يقُل لنا صريحاً انه انما يموت باختياره وانه يستردّ الحياة بقدرته : « اني أبذل نفسي لآخذها ايضاً . ليس احد ياخذها مني . ولكني أبذلها باختياري، ولي سلطانٌ ان ابذلها، ولي سلطان أن آخذها ايضاً » (يوحنا ١٠ : ١٨)

ألم يقل لنا ان هذه إرادة ابيه السماوي ان يشرب الكأس التي يقدّمها له ؟ ألم يقال لتلميذَي عماوس وهما راجعان حزينَين كئيبين الى بلدهما : « يا قليلَي الفهم وبطيئَي القلب في الايمان بكلّ ما نطقت به الانبياء . اما كان ينبغي للمسيح أن يتألم هذه الآلام ثم يدخل الى مجده ؟ » (لوقا ٢٤ : ٢٥ و ٢٦)

فإن كان الله أظهر عدله بموت ابنه على الصليب اذ طلب تكفيراً تامًّا عن الخطايا، أفلم يُظهر لنا رحمته غير المتناهية إذ قبل أن يموت ابنهُ لاجل خطايانا ؟ فهل من محبة اعظم من هذه ان يبذُل الانسان نفسه عن أحبائه ؟ فهل نفهم سرّ المحبة هذا ان يموت ابن الله لاجل خاطئ ؟ فيا لعمق اسرار الله ! ما ابعد احكامهُ عن الادراك وطرقه عن الاستقصاء !

إفرحي ايتها الانسانية لان الآب السماوي قد رضي عنك : فها هي ابواب السماء قد فُتحت لكِ . هوذا الانسان يسترجع النعمة ويصير ابن الله وهيكل الروح القدس وأخاً للسيد المسيح ومقرًّا للثالوث الاقدس . وله حق الميراث وسُكنى الملكوت السماوي . قد رفع هذا الحمل خطيئة العالم، فاصبح صليبهُ عرشاً

أقرّ به اللصّ فصاح قائلاً: «اذكرني يا رب إذا أتيت في ملكوتك» (لوقا ٢٣:٤٢) . قد رفع هذا الحمل خطيئة العالم، فجذب اليه الجميع، فأقر قائد المئة بانه ابنُ الله . وهوذا الصليب الذي هو شكّ لليهود وجهالة عند الامم قد جذَب صُفوَة الشعب اليهودي وأرفع طبقات الامم، وفي مقدّمتها مملكة الرومان . هذا الصليب ساعد الشهداء على احتمال جميع الاعذبة بشجاعة وصبر بل بسرور وشكر . هذا الصليب ظهر في عرض السماء لقسطنطين، وقد كُتب عليه : « بهذه العلامة تغلب »، فغلب به بنوع عجيب، وهو أسس المملكة المسيحية في العالم. هذا الصليب استرجعه هِرقل من الفرس وحمله ودخل به حافياً الى كنيسة القيامة بعد استرجاعه من الفرس . هذا الصليب أصبح ذخراً ثميناً وحرزاً أميناً يتمنى اكبر واحد منّا ان يحصل على أصغر قطعة منه . هذا الصليب عُنوان العار والشك أصبح عُنوان الفخر والمباهاة، يرتفع فوق أبراج الحصون وقُبب القصور ويزيّن تيجان الملوك ورايات الشعوب وصدور النبلاء والابطال . هذا الصليب الذي سيظهر يوم القيامة مع ابن البشر يكون موضوع فرح للمختارين ويأس للهالكين . هذا الصليب يطلب منكم الان ان لا تكون قلوبكم اقسى من الصخور التي تشققت يوم صلب الفادي الالهي.

فاذرفوا دموع الندم على خطاياكم التي كلفت مخلصكم كل هذه الآلام . وأثبتوا انها دموع توبة نصوح لا دموع رقّة حسية كدموع بنات اورشليم . أثبتوا ذلك بالاعتراف الصادق

أثبتوه بالرجوع الى الله ابيكم والبعد عن الخطيئة وكل اسبابها. أثبتوه بأن تتأسّوا بمن غفر لكم كما غفر لاعدائه . فتُسامحوا كلّ من اساء اليكم . وتكونوا إخوة صالحين ليسوع، وبنين بررة لتلك الام الحزينة التي تبنتكم بالاوجاع تحت اقدام الصليب . حاشا لكم ان تُهملوا كل ذلك وتجعلوا دماء الفادي الزكية ودموع امّه العذراء تذهب هدراً وعبثاً

والآن اقتربوا كلكم من الصليب . فهوذا المسيح واقف ينتظركم . قلبه مفتوح، وهو مستعدّ أن يضمّكم اليه . هوذا راسه منحنٍ ليقبّلكم قبلة الصفح والحب . فقدّموا حياتكم ضحية له وامزجوا آلامكم بآلامه لكي تستحقوا أن تتمتعوا بأفراح قيامته

قيامة المسيح

اذ كان قد اتّضح لنا الى الآن ان الديانة الالهية التي ينبغي لنا ان نعتنقها هي الديانة المسيحية، وذلك لان المسيح مؤسسها هو إله تشعّ الوهيته في تعاليمه واعماله وعجائبه ونبوءاته، فان هناك ايضاً على ألوهية هـذه الديانة المقدسة برهاناً اوضح من الشمس في ريعان الضحى، واعني بهِ قيامة المسيح من بين الاموات، وهي موضوع كلامي الآن: فنرى اولاً ان قيامة المسيح من بين الاموات حادث تأريخي لا شكّ فيه. ثانياً مـا هي نتيجة انتصار السيد المسيح على الموت

١ً ان قيامة السيد المسيح من بين الاموات حادث تاريخي لا شك فيه

قد أنبأَ الانبياء بقيامة المسيح فقالوا: لايدَع قدوسه يرى فساداً. وقد اتخـذ السيد المسيح حادث قيامته الآية العظمى الدالّة على ألوهيته، فسبق أن قال لليهود: انقضوا هذا الهيكل، وعنى بذلك جسده، وانا ابنيه في ثلاثة ايام (يوحنا ٢:١٩) وهي الآية التي اعطاها اليهود ليُثبت رسالته، قال: «ان هذا الجيل الفاسد يطلب آية فلا يُعطى إلّا آية يونان النبي. فكما ان يونان

النبي كان في بطن الحوت ثلاثة ايام وثلاث ليالٍ، هكذا يكون ابن البشر » (متى ١٢: ٣٩ و ٤٠) . وقال لتلاميذه بلا تشبيه ولا مجاز : « هوذا نحن صاعدون الى اورشليم وابن البشر يُسلَم الى أيدي الامم فيهزأون بهِ ويجلدونه ويصلبونه وفي اليوم الثالث يقوم (مرقس ١٠: ٣٣ و ٣٤) . وبعد ان اقوم اسبقكم الى الجليل» (متى ٢٦: ٣٢)

فهل تمت هذه النبوءة ؟ اي نعم انها تمت بالحرف . فالسيد المسيح مات حقاً، وقام حقاً

مات السيد المسيح بعد عذاب الجلد وإكليل الشوك، وبعد ما سُمّر بالمسامير وعُلّق على خشبة، وبعد ان عانى الآلام المبرّحة أسلم الروح . وقد تحقّق الجنود الرومانيون موته، ولكي يزدادوا تحقُّقاً طعنوا قلبه بحربةٍ فخرج منه دم وماء . وبعد ان تأكد لليهود دفنه تذكّروا نبوءته بقيامته، فطلبوا من بيلاطس أن يحفظ الجنود قبره، وقالوا لهُ : قد سمعنا هذا الضال قبل أن يموت يقول : « اني بعد ثلاثة ايام اقوم » فقال لهم بيلاطس: إن عندكم حرّاساً فاضبطوا القبر كما تعلمون . فذهبوا وختموا القبر وأقاموا عليه الحرّاس (متى ٢٧: ٦٣ ـ ٦٦) . وكأني بالحرّاس واقفون أمام القبر بسلاحهم يكشّرون عن أنيابهم كالوحوش ويقولون ان المائت تحت قبضتنا وقبره مختوم تحت أقدامنا فليقم الآن ان استطاع

وقد اراد الرب ان يلجأ الاعداء الى هذه الحيطة وهذه

الوسائط كلها لكي يزيدنا ثباتاً في ايماننا : فان ختمهم للقبر كان كمن يختم الظلام ليلاً ويُحاول ان يمنع الشمس من بزوغها، أو كمن يُحاول ان يضع حدوداً للنهر المتدفق التابع مجراه . فعبثاً يغالون في المراقبة لئلا تسرقه يدٌ من الخارج، فان القوة التي ستنشله من القبر ومن بين ايديهم انما هي من الداخل

فبعد أن مات المسيح حقاً قام حقًّا

وبعد ان قضى في القبر ثلاثة ايام خرج منه بذات سُلطانه بدون ان يفضّ الاختام او يقلب الحجر، كما يخرق النور الزجاج ولا يصدعه، هكذا ارجع نفسه الى جسده بقوة لاهوته، وقام من بين الاموات ظافرًا . فالارض تزلزلت والحرّاس هربوا . وملاكٌ لابس ثياباً بيضاء كالثلج دحرج حجر القبر وجلس عليه . ولم يبقَ في داخل القبر الا الاكفان والسَّباني لتشهد بقيامته كما شهدت بموته

حقًّا لقد قام المسيح . وظهوره لشهود كثيرين نحو احدى عشرة مرة يشهد بقيامته . قد ظهر في اماكن متعدّدة في الليل وفي النهار، في علية صهيون وعلى بُحيرة طبريّة وعلى جبل الزيتون . ظهر لاناس متعدّدين، ظهر لنساء ولرجال، لأناس يؤمنون واناس لا يؤمنون . وظلّ هذا الظهور يتوالى في خلال اربعين يوماً . والانجيل المقدس يذكر اعظم الآيات التي جرت بعد قيامة المسيح بابسط عبارة، وليس في سرد هذه الحوادث تصنُّع ولا تكلُّف

ظهر لمريم المجدلية التي حملها حبها ان تذهب قبل الفجر لترى قبر ربّها الحبيب . فرأت هناك ملاكين فقالت لهما : « انهم قد اخذوا ربي ولا اعلم اين وضعوه » . ثم لما ظهر لها السيد المسيح ظنت انه البستاني، لان الحزن قد غشّى على بصرها فقالت له : « يا سيدي ان كنت انت حملته، فقل لي اين وضعته، وانا آخذه » . فاكتفى يسوع بان قال لها : « مريم » . فعرفته وخرّت عند قدميه وسجدت لهُ . فقال لها يسوع : « لا تلمسيني لاني لم اصعد بعد الى ابي » (يوحنا ٢٠ : ١١ ـ ١٨)

رأت النساء القديسات حجر القبر مدحرجاً وملاكاً جالساً عليه يقول لهنّ : « لِمَ تطلبنَ الحي مع الموتى قد قام ليس هو ههنا » (متى ٢٨ : ٦)

ظهر لتلميذَي عماوس اذ كانا راجعَين الى بلدهما حزينين يائسَين، فاخذ يؤنبهما على قلّة ايمانهما وقال لهما : « يا قليلي الفهم وبطيئَي القلب في الايمان بكل ما نطقت بهِ الانبياء أما كان ينبغي للمسيح ان يتألم هذه الآلام، ثم يدخل الى مجده » . وقد تنازل فدخل بيتهما . ولم يعرّفهما بنفسه الّا بعد أن كسر لهما الخبز، فتوارى . فقالا : « أما كانت قلوبنا مضطرمة فينا حين كان يخاطبنا في الطريق ويشرح لنا الكتب » (لوقا ٢٤ : ١٣ ـ ٣٣)

ظهر للرسل مجتمعين في علية صهيون . فدخل عليهم والابواب مغلقة وقال لهم : « السلام لكم » . واذ رآهم خائفين ظانّين أنه روح قال لهم : « ما بالكم مرتعدين ؟ ولماذ ثارت الاوهام في

قلوبكم ؟ انظروا يديَّ ورجليَّ . إني انا هو . جسُّوني وانظروا فان الروح لا لحم لهُ ولا عظام كما ترون لي ... واذ كانوا غير مصدّقين بعد » جلس بينهم واكل معهم . ولم يتركهم حتى عزّاهم ووعدهم بمجيء الروح القدس (لوقا ٢٤: ٣٦ الخ ويوحنا ٢٠: ١٩ـ٢٣)

ظهر للرسل مجتمعين وتوما معهم ولما كان هذا الرسول يقول: إن لم أَضع اصبعي في اثر المسامير ويدي في جنبه لست أومن، قال لهُ يسوع : « هاتِ اصبعك الى ههنا وعاين يدي . وهاتِ يدك وضعها في جنبي . ولا تكن غير مؤمنٍ بل مؤمناً . فاجاب توما وقال لهُ : ربي والهي . قال لهُ يسوع : لانك رأيتني يا توما آمنت طوبى للذين لم يروا وآمنوا » (يوحنا ٢٠: ٢٤ـ٢٩)

ظهر للرسل في الجليل على بحيرة طبريه . حيث كانوا يصطادون فقال لهم : « يا فتيان هل عندكم شيء من المأكول ؟ فقالوا لا . فقال لهم : ألقوا الشبكة من جانب السفينة الأيمن فتجدوا . فالقَوها فلم يعودوا يقدرون أَن يجذبوها من كثرة السمك . فقال ذلك التلميذ الذي كان يسوع يحبه لبطرس : هو الرب . فلما سمع سمعان بطرس أَنه الرب ائتزر بثوبه لانه كان عرياناً وطرح نفسه في البحر ... فلما نزلوا الى الارض رأوا جمراً موضوعاً وسمكاً عليه وخبزاً . » فاخذ يسوع الخبز واعطاهم وكذلك السمك . ولم يتوارَ عنهم الّا بعد ان طلب من بطرس أَن يكفِّر عن جحوده بثلاثة افعال محبة وجعلَهُ راعياً لرعاة غنَمه (يوحنا ٢١: ١ـ١٧)

ظهر في الجبل لاكثر من مئة تلميذ وقال لرُسلهِ : « اني قد أُعطيتُ كلّ سلطان في السماء والارض . اذهبوا الآن وتلمذوا كلّ الامم، معمّدين اياهم باسم الآب والابن والروح القدس . وعلّموهم أن يحفظوا جميع ما أوصيتكم به . وها أنا ذا معكم كل الايام الى مُنتهى الدهر » (متى ٢٨ : ١٦ ـ ٢٠)

ظهر أخيراً لاكثر من خمس مئة تلميذ (١ كور ١٥ : ٦) . وقبل ان يفارقهم وبعد ان علمهم أموراً كثيرة ووعدهم بمجيء الروح القدس، خرج بهم الى بيت عنيا ورفع يديه وباركهم وفيما هو يباركهم انفرد عنهم وصعد الى السماء . فأخذته سحابة عن عيونهم

لقد قام المسيح حقاً . ولم يبقَ لليهود من حيلة للانكار والتضليل الا ان يُرشوا الحرّاس ويقولوا لهم : « قولوا انّ تلاميذه أتوا ليلاً وسرقوه » . وهو عذرٌ يزيدهم ذنباً على ذنب . وكيف يتجاسر التلاميذ الذين كان زعيمهم يخشى من صوت جارية ان يقتحموا الجنود ويُدحرجوا الحجر ليلاً ويسرقوا الميت والحراس واقفون بحرابهم ساهرين ؟ اما ان كان الحراس نياماً حينئذ فكيف رأوا السرقة ؟

لقد قام المسيح واخذت آثار انتصاراته تظهر في الرسل : اذ تبدّل جُبنهم شجاعةً، واندفعوا بعد قيامته ينادون بها أمام الشعب كله . فلم يخشَ القديس بطرس ان يقول لليهود : انتم قتلتم الصدّيق لكن الله قد أقامه بذات سُلطانه . ولم يجترئ احد ان يكذّبه بالاشارة الى جثّة المسيح . بل آمن بكلامه اول

مرة ثلاثة آلاف نفس وثاني مرة خمسة آلاف نفس (اعمال ٢ : ٤١ وف ٣:١٥ وف ٤:١٠ و١١ و٤)

لقد قام المسيح وقيامته أعطت تلاميذه الذين كانوا مساكين وجهّالاً وضعفاء حكمة وقوةً لينتشروا في العالم بأسره ويبشّروا بالانجيل كل الامم . وقد ختم جميعهم شهادتهم بدمهم . ففضّلوا الموت على ان يكذّبوا ما رأته اعينهم وما سمعت بهِ آذانهم وكانوا يفرَحون اذا عُذِّبوا لاجل الرب يسوع ويقولون ان الله أحق من الناس بان يطاع (اعمال ٥:٤١ و٢٩)

٢ً نتيجة انتصاره على الموت

قام المسيح . فأثبت باتمام النبوءة بقيامته انه ملك الازمنة، يتكلم عن المستقبَل كما يتكلم عن الحاضر، ويجري الامور في كل الاوقات التي تعيّنها مشيئته

قام المسيح . فثبتت لنا ألوهيته : لان الاله وحده يقدر ان يسترجع الحياة بمشيئته من يد الموت، وهو الذي قال : ان حياتي بين يديّ لي سلطانٌ ان آخذها . ولي سلطان ان اسلّمها . ولي سلطان ان استرجعها ايضاً (يوحنا ١٠:١٨)

قام المسيح . إذ اعاد نفسه الى جسده، ولم يبقَ للموت عليه من سلطان

قام المسيح . وبقيامته أثبت تعليمه، واوضح ألوهيته، واخزى

اعداءه، وغلب الموت والجحيم، وظهر انه ملك الموت والحياة، وخلّص جنس البشر من مخالب ابليس، وفتح للمؤمنين ابواب السماء.

قام المسيح . فوطّد بهِ ايماننا وثبّت فيه رجاءنا وعزّز في قلوبنا محبته . قام المسيح . ولا بدّ أن يُقيمنا معه، لانه بكر الراقدين ويحقّق لنا مواعيده اذ قال : « الحقّ الحق اقول لكم انها تأتي ساعة وهي الآن حاضرة يسمع فيها الاموات صوت ابن الله والذين يسمعون يحيَون » (يوحنا ٥ : ٢٥)

قام المسيح . ولِذا نرى الآباء القديسين يتكلمون ثملين بنشوة انتصاره . فلنسمع القديس يوحنا فم الذهب يهتف قائلًا : « لا يخشَ الموت احد : لان موت المخلص قد حرّرنا جميعاً . لانه أباد الموت لما خضع له . سبى الجحيم لما انحدر اليها . مسّت الجحيم جسده فقضي عليها، كما تنبأ اشعيا عند ما صرخ قائلًا : قضي على الجحيم لما نهض من أسفل لتلتقيك . قُضي عليها وهُدمت . قضي عليها وهُزئ بها . قُضي عليها وأُميتت . قضي عليها وسبيت . قُضي عليها وقُيّدت . امسكت جسداً فصادفت إلهاً . تناولت ارضاً فصادفت سماءً . اخذت ما نظرت فسقطت من حيث لم تنظر . أين شوكتك يا موت ؟ أين غلبتكِ يا جحيم ؟ قام المسيح وانت هُدمتِ . قام المسيح والابالسة سقطت . قام المسيح والملائكة جذِلت . قام المسيح والحياة أُعيدت . قام المسيح ولم يبقَ ميتٌ في القبر . لان المسيح اذ قام من بين الاموات صار باكورة الراقدين »

قيامة المسيح هي الحادث الجلل الذي يدور عليه محوَر التأريخ، وبدونه لم يبقَ للتاريخ معنى، ولا للدين المسيحي اساس : « فان كان المسيح لم يقم فايماننا باطل » (١ كور ١٥ : ١٧)

قيامة المسيح جرّأت الرسل على أن يبشروا بتعاليمه في العالم بأسره، حتى ان ترتوليانس يقول في اواسط القرن الثاني : « نحن من البارحة وقد ملأنا بيوتكم وساحاتكم ومُجتمعاتكم ولم ندع لكم إلّا هيا كلكم فارغة » . قيامة المسيح جعلت الشهداء على توالي الاجيال يفضّلون الموت وأعذبته المبرّحة على أن ينكروا ايمانهم بالوهيته

ان المسيح الظافر هو الذي أظهر صورة صليبه لقسطنطين في سهول رومة، وكتب لهُ في السماء باحرف ذهبية : « بهذه العلامة تغلِب »

ان يسوع المنتصر قد جعل كلوفيس الملك يبتهل الى إله زوجته كلوتلد المسيحية وينال الظفر على اعدائه . فعلى الايمان بالمسيح الظافر المنتصر على الموت والجحيم تأسست المملكة الرومانية والمملكة الفرنسية

لاجل الايمان بقيامة المسيح امتلأت القفار بشبان تركوا العالم وأفراحه ومارسوا اعظم اعمال التوبة والزهد ليميتوا اهواءهم مع المسيح ويقوموا معه

ان الايمان بقيامة المسيح قدّ هزّ اوربا في القرون المتوسطة . وجمعها ثماني مرات للقيام بالحملات الصليبية وتحرير قبر المسيح الفادي

ان الايمان بقيامة المسيح جعل اعظم ممالك العالم وأكثرها تمدّناً تتشبّث بالديانة المسيحية . وفي ساعات الضيق نسمع اعظم

رجالها كنابليون يقول: « إني أومن بأن المسيح إله » . والماريشال فوش يدخل الى كنيسة في اشدّ ساعات الحرب هولاً، يوم كان العدو على ابواب باريس، ويقول : اني اعدك أن أقف لخدمتك جيوشي ان منحتني الظفر . ومنذ ذاك اليوم قد ابتدأ الظفر واخذ النصر يُعقَد على ألويته . واخذت جيوش الالمان تتقهقر

لم ينشأ شيء عظيم من قبور عظماء الرجال، لا من قبر افلاطون وسقراط الحكيمين، ولا من قبر شيشرون وديموستين الخطيبين، ولا من قبر ليكورغوس وصولون المشترعين، ولا من قبور القواد العظام كالقيصر والاسكندر وأنيبال وسيبيون وأغسطس . ولم تنبت فوق عظامهم البالية فضيلة ما

ولكن من قبر المسيح انبعث النور الذي انار العالم بالعلوم الراهنة وفاح شذا الفضيلة الذي عبَّق العالم بأريجها العطر . ففاحت وردة الحب المسيحي، وزنبقة الطهارة، وعُطر الصلاة، وبنفسج التواضع

لاجل الايمان بقيامة المسيح وقف الكهنة انفسهم لخدمة النفوس وحافظوا على العفاف الملائكي، ونذرت العذارى عفتهنّ لله

لاجل الايمان بقيامة المسيح أزهرت الفضيلة المسيحية في العالم، فانتشرت الاعمال الخيرية بانواعها من الاهتمام بالطفل اللقيط ومعالجة المرضى ومساعد الفقراء، الى أيواء الشيخ العاجز الذي لم يبقَ له سند في هذا العالم

فالمسيح القائم من بين الاموات لم يزل هو المسيح المنتصِر وهو الذي سيأتي يوماً ليدين العالم

المسيح القائم من بين الاموات هو الاله . اذن لم يبقَ من محلّ في البشرية ولا من داعٍ لوجود ديانة اخرى غير ديانته . وكل خليقة ناطقة مُلزمة ان تؤمن بألوهية السيد المسيح القائل: «من آمن واعتمد (باسمي) يخلص ومن لم يؤمن يدان» (مر ١٦:١٦)

المسيح القائم من بين الاموات هو الاله . فعلينا ان نسمع تعاليمه ونتّبع شريعته

ان من لا يُريد ان يؤمن يسمع هذه البراهين القاطعة، ويبقى على حالته من عدم الايمان ولا عجب في ذلك. لانه لا يسلك الطريق المبلّغة اليه . فالايمان نعمة مجانية يهبها الله لغير المؤمن . ولكن لا بدّ لاغتنامها من تلبية الارادة الحرّة للدعوة الالهية . وذلك بنبذ الاهواء، والبحث عن الحقيقة بتواضع القلب وصفاء السريرة لان يسوع يقول: «طوبى للانقياء القلوب . فانهم يعاينون الله» (متى ٥:٨) . وعليه ان يبتعد عن الاثم ويُحافظ على نقاء الضمير ثم يبتهل بتواضع الى الله لكي يُنيره والى الفادي القائل: «لا يقدر احد أن يُقبل اليّ ما لم يُعطَ له ذلك من ابي» (يوحنا ٦:٦٦) وبعد أن يكون قد قام بما عليه من تأمل وطهارةِ قلب وصلاة واجتهاد في حفظ الوصايا الطبيعية، فالنعمة الالهية تعمل عملها، والله يُنير كل انسان آتٍ الى العالم، ويُريد ان جميع الناس يخلصون والى معرفة الحق يُقبلون . فطوبى لمن يحفظ هذا الكلام ويضعه في قالب العمل . والمجد لمن تألم وقُبر وقام في اليوم الثالث

يسوع المسيح حياتنا في القربان الاقدس

« ان لم تأكلوا جسد ابن البشر وتشربوا دمه فلا حياة لكم في انفسكم » (يوحنا ٦ : ٥٤)

جاء في اساطير الاولين وآداب الشعوب القديمة حكاية شهيرة عن طائر كبير أبيض يدعى « البجع » يقولون عنه أنهُ اذا طاف في الشواطئ والبحور ولم يجد الطعام الضروري لفراخهِ يرجع الى وكره عند المساء حزيناً فيمزّق صدره ويقدّم لها مأكلاً من دم قلبهِ . وقد كان المسيحيون الاولون يرَون في هذا الطائر مثال السيد المسيح مغذّياً نفوسنا بجسده ودمهِ الاطهرين. ولذلك سمَّى الآباء القديسون يسوع المسيح « البجع الالهي » . وقد مثّله اصحاب النقش والتصوير في جنايا الكنائس وابواب المذابح ونسجوه على السجوف والرايات . ولكن هذا التشبيه على جماله لايزال دون الحقيقة بازاء ذلك الفادي الالهي الذي اراد أن يعطينا جسده ودمهُ مأكلاً ومشرباً حقيقيين لنفوسنا . ولعلمهِ أننا لا نفهم خيرنا ولا نقدّر هذه العطية حق قدرها جعل تناول هذا الطعام فرضاً واجباً علينا . بل زاد ان جعله شرطاً للحياة الروحية؛ بل هدَّدنا بالموت ان لم نأكل جسده ونشرب دمه : « ان لم تأكلوا جسد ابن البشر وتشربوا دمه فلا حياة

لكم في انفسكم » . وبما ان هذه العطية أجل واثمن مواهب الله، وبما ان حياتنا الروحية والابدية منوطة بحسن استعمالها، فمن الواجب أن أكلّمكم أولاً عن حقيقة وجود السيد المسيح في سر القربان المقدس . ثانياً عن وجوب تناول هذا القربان لحياة نفوسنا

١ً حقيقة وجود السيد المسيح في سر القربان المقدس

لو كان الله تعالى خيَّر البشر في طلب ما يرونه أثمن ما يكون من المواهب لما خطر لهم قط ان يطلبوا جسد ابن الله ودمه قوتاً لحياتهم . على أن ما لم نحلم نحن به قد أعطاناه الله مجاناً، إذ اراد أن يرفع الطبيعة البشرية فيجعلنا شركاء الطبيعة الالهية، مغذّياً ايانا بجسده ودمه الاقدسين، ومنضماً بذلك الينا انضماماً اسمى وافعل من انضمام النفس الى الجسد، ممّا يغبطنا عليه الملائكة انفسهم

ليس في آيات الكتاب المقدس نصّ اوضح من اعطاء السيد المسيح ايانا جسده ودمه مأكلاً ومشرباً حقيقيين . ذلك مايظهر صريحاً في الوعد بهذا السر، ثم في رسم السر

ان السيد له المجد كان يبشر بالانجيل على شواطئ بحيرة طبرية . ولما رأى الشعب يتبعه في البرّية ولم يكن لهُ ما يأكل كثَّر خمس خبزات وسمكتين واطعم منها خمسة آلاف ما عدا النساء والصبيان . واذ اجتاز البحر ورآهم يتبعونه رأى الفرصة موافقة

ليكلمهم عن سر جسده ودمه الذي سيوزّعه ليس على بضعة آلاف فقط، بل على ملايين من النفوس ليس في محلّ واحد ووقت واحد، ولكن في كل مكان والى انقضاء الدهر

لما رأى يسوع الجمع يتبعه ويقول لهُ : «يا معلم متى صرت ههنا ؟»[1] (٦ : ٢٥) قال لهم : «الحق الحقّ أقول لكم إنكم لم تطلبوني لانكم عاينتم الآيات بل لانكم اكلتم الخبز وشبعتم. إعملوا لا للطعام الفاني بل للطعام الباقي للحياة الابدية الذي يعطيكموه ابن البشر... قالوا لهُ : أية آية تصنع لنراها ونؤمن بك ؟ ماذا تصنع ؟ آباؤنا اكلوا المن في البرية كما هو مكتوب انه اعطاهم خبزاً ليأكلوا» (٦ : ٢٦ ـ ٣١). فاراد يسوع ان يعطي آية حبه، كما اعطى في القيامة آية لاهوته. وقد شبَّه الخبز الذي سيُعطيه بالمنّ السماوي بل فضَّله عليه، فاجاب : «الحق الحق أقول لكم ان موسى لم يُعطِكم الخبز من السماء لكن أبي هو الذي يعطيكم الخبز الحقيقي من السماء. لان خبز الله هو النازل من السماء والواهب الحياة للعالم ... انا خبز الحياة» (٦ : ٣٢ـ٣٥). فلو كان ما وعدهم به انما هو الخبز المعروف، لما فضَّله على المنّ اللذيذ السماوي. وهل فهم اليهود كلامه ؟ نعم انهم فهموه لان الانجيل يقول : قد تذمّروا لانه قال انا هو الخبز الذي نزل من

---

(١) لاجل كل ما يلي من كلام الوعد راجع الفصل السادس من انجيل القديس يوحنا. وفي النص نشير الى آيات هذا الفصل فقط

السماء (٤١:) . وبعد ان فهموا ذلك هل رجع السيد المسيح عن كلامه ؟ لا، بل انه ازداد صراحةً فقال : « انا خبز الحياة آباؤكم اكلوا المن في البرية وماتوا . هـذا هو الخبز النازل من السماء لكيلا يموت كل من يأكل منه . انا الخبز الحي الذي نزل من السماء . من يأكل من هذا الخبز يحيا الى الابد . والخبز الذي سأعطيه انا هو جسدي لحياة العالم » (٤٨:٥٢)

ان في هذا الكلام من الصراحة ما جعل اليهود لا يتذمرون فقط بل يتخاصمون : « فخاصم اليهود بعضهم بعضاً قائلين : كيف يقدر هذا ان يعطينا جسده لنأكله ؟ » (٥٣:) وهل فسَّر السيد المسيح كلامه حينئذٍ بمعنى مجازي، كما فسَّره لما قال لتلاميذه : « احذروا من خمير الفريسيين »، ولما رآهم لم يفهموا قال احذروا من خمير الفريسيين الذي هو الرئاء (متى ١٦:٦-١٢ ولوقا ١٢:١)؟ لا . ان الخبز لا يحتمل ان يكون مع الانسان احد طرفَي التشبيه، فيقال مثلاً : فلان أسد، او فلان حملٌ للدلالة على الشجاعة او الوداعة . ولكن لا يقال : فلان خبز للدلالة على صفة، لان العادة لا تجيز مثل هذا المجاز . ولا يرى فيه التصوّرُ وجه الشبه . وعليه أفلم يكن السيد المسيح إزاء هـذا الخصام وفي مثل هذا الموضوع الخطير قد احتاط لمراده من كلامه بما ينفي عنه سوء التأويل، وهو جلّ جلاله الحقيقة والحكمة بالذات، لو لم يكن ظاهر كلامه هو عين ما يريده ؟ والحال انه لم يمنع الخصام بل اجاب ما عزّز سابق تصريحه إذ هدَّدهم بالموت، ان

لم يأكلوا جسده، قائلاً : « الحق الحق اقول لكم ان لم تأكلوا جسد ابن البشر وتشربوا دمه فلا حياة لكم في انفسكم . من يأكل جسدي ويشرب دمي فله الحياة الابدية، وانا اقيمه في اليوم الاخير . لان جسدي مأكل حقيقي ودمي مشربٌ حقيقي . من يأكل جسدي ويشرب دمي يثبت فيّ وانا فيه . كما ارسلني الآب الحي وانا احيا بالآب فالذي يأكلني يحيا هو أيضاً بي . هذا هو الخبز الذي نزل من السماء . ليس كالمنّ الذي أكله اباؤكم وماتوا . من يأكل من هذا الخبز فانه يعيش الى الابد » (٥٤:٥٩) . فهل بعد هذا الكلام من زيادة في الصراحة ؟ فالشعب قد فهم ولم يكتفِ بأن تذمّر، ولم يكتفِ بأن تخاصم، بل نسمع تلاميذه انفسهم يقولون : « هذا الكلام صعبٌ من يستطيع سماعه ؟ » (٦١ :) فهل ارضاهم يسوع بتغيير المعنى ؟ — لا . بل قال لهم : « أهذا يشكّكم ؟ » (٦١ :) ... ولما رأى كثيرين من تلاميذه يرجعون الى الوراء ولم يعودوا يمشون معه تخلّى عنهم، ولم يرجع عن عطيته . فقال لتلاميذه الاثني عشر : « ألعلكم أنتم ايضاً تريدون ان تمضوا ؟ فأجاب سمعان بطرس : يا رب الى من نذهب؟ ان كلام الحياة الابدية هو عندك » (٦٨ : و٦٩)

ذلك هو وعْد السيد المسيح الصريح . فهل قام بوعده ؟ نعم انه قام به ليلة آلامه، ليلة الكفران والجحود، ليلة الحكم عليه بالموت مصلوباً، الليلة التي عرف بها انه عن قريب يفارق

العالم، اخترع تلك الواسطة العجيبة للبقاء في العالم ... في الليلة التي اظهر فيها العالم سرّ بغضه، اراد هو أن يُظهر سرّ محبته، اراد قبل أن يموت أن يوصي لأحبائه. فماذا تكون وصية هذا الفقير الذي لم يكن له حجر يسند اليه رأسه ؟ لا أعلم. ولكني أعلم أنه يستعد لهذه الوصية استعداداً عظيماً. فالقديس يوحنا الحبيب يقول : « لما كان يسوع يعلم أن ساعته قد أتت لينتقل من هذا العالم الى الآب، وكان قد أحب خاصته الذين في العالم، أحبهم الى الغاية... اذ كان يعلم أن الآب جعل الكل في يديه وأنه من الله خرج والى الله يمضي، قام عن العشاء » واخذ يغسل أرجل تلاميذه (يوحنا ١٣ : ١ ـ ١٠)، ليعدّهم لعمل يقتضي طهارةً عظيمة. ثم قال لهم : « لقد اشتهيت شهوة ان آكل هذا الفصح معكم قبل أن اتألم. فاني اقول لكم اني لا آكله بعد حتى يتم في ملكوت الله » (لوقا ٢٢ : ١٥ و١٦). ثم اخذ خبزاً فبارکه وقسّمه واعطاه تلاميذه قائلاً : « خذوا فكلوا هذا هو جسدي الذي يكسر من اجلكم لمغفرة الخطايا. ثم اخذ الكأس فشكر واعطاها قائلاً : اشربوا من هذا كلكم. هذا هو دمي العهد الجديد الذي يهراق عن كثيرين لمغفرة الخطايا. اصنعوا هذا لذكري » (متى ٢٦ : ٢٦ ـ ٢٨ ولوقا ٢٢ : ١٩ و٢٠)

ان الاعمال العظيمة لا يُعرَب عنها إلّا بعبارة واضحة بسيطة. وهل من تعبير أوضح من قوله: « خذوا فكلوا هذا » ؟ وما معنى هذا ؟ اي ان ما ترونهُ خبزاً ليس هو خبزاً، بل انما

هو جسدي، هو جسد ابن الله المتأنس . اخذ الكأس فقال : « اشربوا من هذا كلكم » . هذا، اي ان الذي ترونه خمراً ليس هو خمراً . بل انما هو دمي، دم ابن الله المتأنس . سمع الرسل هذا الكلام هذه المرة، ولم يتعجبوا ولم يعترضوا عليه، بعد كل ما كانوا قد سمعوه من كلام الوعد . والذي كانوا يسمعونه في تلك الساعة لم يكن والوعد السابق الا سلسلة متصلة الحلقات . هذه هي وصية يسوع الاخيرة أعطانا جسده ودمه مأكلاً ومشرباً لنفوسنا . فهو لاجل ذلك يظلّ سجيناً طوعياً في هياكلنا ليبقى معنا كل الايام الى منتهى الدهر

هل يشكّ في تصديق هذا السر من يؤمن بان المسيح إله؟ أفلا يقدر الله ان يعمل ما لا نقدر أن نتصوّره ؟ هل نشبّه قوة الله بضعفنا ؟ ألم يخلق السماء والارض بمجرّد قوله كوني فكانت ؟ أليس هو المعلّق الاجرام السماوية في الفضاء ؟ أفلا يحوّل البذرة الى شجرة ؟ أو لم يُطعم خمسة الاف من خمسة ارغفة ؟ أفلا يقدر السيد المسيح ان يحوّل جوهر الخبز والخمر الى جوهر جسده ودمه ؟ تقولون ان هذا لَسرّ . نعم بل انه سرّ الاسرار . ولكن ها ان الطبيعة نفسها ملأى بالاسرار . فهل نفهم كيف تتحد النفس بالجسد وتحييه ؟ كيف تتحرك اعضاؤنا بأمر الارادة ؟ وهل نفهم سر الحياة والموت ؟ لذلك يقول لنا المسيح : ان كنتُ قلت لكم الارضيات ولم تفهموا فكيف اذا قلت لكم السماويات ؟ نعم انه سرّ . ولكن ذلك لا يعني ان الله عاجز عن صنعه

فهذا السر رسمه السيد المسيح واعطى تلاميذه وخلفاءهم من بعدهم السلطة بأَن يجدّدوا رسمه الى منتهى الدهر : ما عملته انا اصنعوه انتم لذكري (لوقا ١٢: ١٩) . وهذا ما فهمه الرسول بولس اذ يقول : « اي انسان اكل خبز الرب او شرب كأسه، وهو على خلاف الاستحقاق، فهو مُجرم الى جسد الرب ودمه . فليختبر الانسان نفسه . وهكذا فليأكل من هذا الخبز ويشرب من هذه الكأس لان من يأكل ويشرب، وهو على خلاف الاستحقاق، انما يأكل ويشرب دينونةً لنفسه إذ لم يميّز جسد الرب » (١ كور ١١: ٢٧-٢٩)

لماذا يكون الآكل من هذا الخبز على خلاف الاستحقاق مُجرماً الى جسد الرب، لو لم يكن حقيقةً هو جسد الرب ؟ لماذا يأكل دينونةً لنفسه لو كان ما يأكله خبزًا بسيطاً ؟ انما سبب جريمته ودينونته هو عدم تمييزه جسد الرب

وهل نحن في حاجة الى ان نُدعم هذه الحقيقة بالبراهين، وهي حقيقة مسلّم بها في كل كنائس الشرق قاطبة على اختلاف مذاهبها، ولم يُخامرها ريبٌ طوالَ عشرين قرناً في هذه العقيدة؟ فكلها في طقوسها وصلواتها وقداديسها تسجد في سر الافخارستيا لجسد ابن الله ودمه، للاهوته وناسوته غير المفترقَين، وتقول بصوت واحد : أومن بحقيقة حضورك في سر القربان

والكنيسة الغربية قضت اجيالاً طوالاً ولم يُسمع فيها صوتٌ جحد هذه الحقيقة بل لنسمع زعيم اصحاب الاصلاح الموهوم

لوتيروس نفسه يقول : « مَن لي برجلٍ ماهر يُبرهن لي أن ليس في سر الافخارستيا إلّا الخبز والخمر؟ إذاً لحسبت ذلك منه خدمةً جليلة فقد طالما تصبَّبت عرقاً في درس هذه المسألة ولكني أراني مقيَّداً . لان نص الانجيل في غاية الوضوح : فبعضهم يقلّبون اسم الاشارة هذا . وغيرهم يحرّفون كلمة جسدي . وآخرون يمسخون النص كله . فليسألوا ولداً لم يتجاوز السابعة من عمره يعرف حروف الهجاء فهو يجيبهم . وهم على كل حال أعجز من ان يأتوا بنسخة واحدة من الانجيل يقرأ فيها هذه هي صورة جسدي » . وقال زميله ميلانتون : « ان كلام يسوع في الافخارستيا يسطع كالبرق، وعقلنا المذعور لا يجد في ذلك موضوعاً للجدال » . الّا ان تلاميذ الاصلاح الموهوم قد سبقوا في عصرنا معلميهم

فاشكرك يا ربي لانك جعلت عبارتك أبيَن من الصبح، حتى اذا تحققنا انك تكلمت وانت الصادق الذي لا يَغُش ولا يُغشّ، نؤمن بحضورك الالهي في سر الافخارستيا على الرغم مما يظهر لحواسنا من أشكال الخبز والخمر، ونسجد لك فيه سجود الشكر والاحترام والمحبة، فقد فهمنا الغاية من رسمك هذا السر العظيم

٢ وجوب التناول لحياة نفوسنا

« الحقَّ الحقَّ اقول لكم إن لم تأكلوا جسد ابن البشر وتشربوا دمه فلا حياة لكم في انفسكم » (يوحنا ٦:٥٤) . لقد

اعطانا الرب جسده للحياة الروحية . فترون أنّا لسنا أحراراً في مسألة التناول اذا أردنا ان نبقى احياء . ترون ان ليس التناول من الكماليّات، ولا هو موضوع لبعض المتعبدين او المتعبدات فقط . فان الرب نفسه يهدّدنا بالموت إن لم نتناول جسده . فإنّ تناولنا عِشنا . وان لم نتناول متنا . فلنختر بين الحياة والموت . ها هي شجرة الحياة موضوعة في وَسط الكنيسة فمن اراد ان يعيش فليأكل منها

قد أُعطينا جسد المسيح بشكل قوت . فما منفعة القوت ؟ ان القوت يغذي الجسم لنموّه وتجديد القوة والنشاط فيه ولتعويض ما يفقده بتأثير العوامل المختلفة . هذا هو تدبير الله في الافخارستيا ان يكون التناول لحياتنا الروحية، كالاكل لحياتنا الطبيعية . فهو يمنعنا من الموت ويزيد فينا الحياة

وقبل ان نتكلّم عن الموت والحياة ينبغي ان نعرف ما تقوم به حياة انفسنا . ان حياة عقلنا تقوم بمعرفة الحق، وحياة إرادتنا قائمة باتّباع الخير . واذا عرفت الحق وتبعت الخير حصلت على الجمال الحقيقي . فالحقّ هو الله، والخير الازلي هو الله، والجمال الحقيقي في الله وحده . فكلما تغذّى عقلنا بالحقّ اتسعت دائرته وازداد حياةً، وكلما تغذّت ارادتنا بالخير ثبتت عزيمتنا، وشرُفت عواطفنا، وسَمَت منازعنا . الا ان الكمالات الادبية في الحياة الطبيعية وحدها، لا تكفينا لان الله منذُ خلقنا جعلنا في حالة فائقة الطبيعة، وجعل سعادتنا في رؤية الله وجهاً الى وجه . ولكن

لا بُدَّ لنا كي نرى الله وجهاً الى وجه من نعمة فائقة الطبيعة . وفي هذه النعمة قد خلق الله آدم . الا ان آدم فقدها بالخطيئة واصبح مستحيلًا عليه استرجاعها . فاسترجعها لنا السيد المسيح بموته على الصليب واوصلها الينا بواسطة الصلاة والاسرار . فهذه النعمة ضرورية للخلاص ولرؤية الله، وهي مصدر اعمالنا الروحية واستحقاقاتنا، فبها نخلُص ونكون مُشاركين للطبيعة الالهية . ولذلك قال القديس اوغسطينس : « ان الله هو حياة نفسنا كما ان نفسنا هي حياة جسدنا . الا ان التناول ليس لاعادة الحياة الى من يكونون قد فقدوها بالخطيئة لانه طعام الاحياء . وكما ان القوت لا يُعطى للاموات، هكذا ينبغي ان يكون المتناول حيًّا بالنعمة . فالتناول يصوننا من الموت اي من فقد النعمة

اراد الله لكي نحفظ حياة النعمة ان نغتذي بجسده . أراد ان يحفظ طبيعتنا المؤلّهة بطعام فيه الالوهية، حتى اننا ان لم نتناول من هذا الطعام نفقد النعمة ونموت

انّ حياتنا الروحية جهادٌ على الارض : جهاد بين الروح والجسد، بين الروح التي تسعى وراء ما هو أزلي، والجسد الذي هو ماديّ ولا يهتمّ الا بالمادة . جهاد بين أهوائنا السفلية التي تدفعنا نحو الملذّات المحرّمة، وضميرنا الذي يعرف ارادته تعالى ولا يسمح لنا من الملذّات الا بقدر ما حلّله الله . وفي هذا الجهاد لنا اعداء داخليّون وأعداء خارجيون يهدّدون حياتنا بالموت

فأهواؤنا تهدّدنا بالموت من داخل : كبرياؤنا تُنسينا أن لنا

ربًّا ينبغي ان نتبع إرادته، وتحاول أن تجعل ملذّتنا الغاية الوحيدة لنا من أفكارنا وأعمالنا وحركاتنا . شهواتُنا الجسدية المتأجّجة فينا نيرانها تغرينا وتغوينا لارضائها بما لا يُحلّله العقل ولا العدل ولا الله تعالى، وتحاول ان تكون نفسنا تحت نير عبوديتها الجائرة . طمعنا الزائد في خيرات الدنيا يكاد ينسينا آخرتنا ويوهمنا ان سعادتنا انما هي في مشتهيات حواسنا . وهذا ما جعل القديس بولس يصرخ : « الويل لي أنا الانسان الشقي ! من يُنقذني من جسد الموت هذا ؟ » (رومة ٧ : ٢٤)

وهناك ايضاً ما عدا هذا العدوّ الداخلي، عدوّ خارجي يهدّدنا بالموت وهو العالم المتضافر مع اميالنا . فكل ما فيه اغراء متواصل لنا لننصرف عن الله غايتنا القصوى، ونتهافت على خيراته الزائلة وكراماته الباطلة ولذاته الخداعة . كما ان الشيطان الذي يتميز منا غيظاً وحسداً لاننا مُعَدُّون للجلوس في السماء على الكراسي التي فقدها بكبريائه، لا يزال يزأر حولنا كالاسد ليفترسنا

فمن يُنقذنا من هؤلاء الاعداء الدائبين في تهديد حياتنا الروحية بالموت ؟ نعمة المسيح المتدفقة من سر جسده الاقدس : جسد المسيح يعلّمنا ان نجعل فخرنا في اتمام مشيئة الله وابتغاء مجده الاعظم . جسد المسيح الذي هو حُنطة المختارين يعلمنا ان الملذة الحقيقية الدائمة انما هي في الله، وان كل الملذات الارضية حقيرة فانية . دم المسيح، الذي هو سُلاف تنبت العذارى ويُضرم فينا

نار المحبة الالهية ويقيمنا أسوداً مرهوبين في وجه اعدائنا . جسد المسيح يعلمنا ان نحتقر كل خيرات هذه الدنيا وأن نسعى وراء الخير الحقيقي الابدي . جسد المسيح يردّ لنا ما تكون قد افقدتنا الخطيئة من القوى التي لا تُستعاد بمجرّد الغفران . جسد المسيح هو الدواء الحقيقي لامراضنا الروحية اليومية

جسد المسيح المسيح لا يقينا من الموت فقط، بل يزيد فينا الحياة : «أنا الكرمة وانتم الاغصان من يثبت فيّ وانا فيه يأتي بثمر كثير لانكم بدوني لا تستطيعون ان تعملوا شيئاً» (يوحنا ١٥:٥) . فينبغي لنا حتى نعطي ثمراً ان نكون اغصاناً غير منقطعة من الجفنة . ينبغي ان نستقي من ماء هذه الكرمة الذي هو دم المسيح . وما اجمل هذه الوسيلة التي اتخذها ليصير لنا غذاء . قال القديس أوغسطينس: «كما أن الأم تحوّل بأكلها الخبز الى لبن لتغذي طفلها، هكذا اراد الله رأفةً بضعفنا ان يجعل نفسه تحت اشكال الخبز والخمر ليغذّي نفسنا الجائعة . فالجسد يأكل اشكال الخبز والخمر، والنفس الجائعة تغتذي بالله . فالله يضم طبيعته الى نفسنا ولكن ليست طبيعتنا التي تحوّل حياة المسيح الى حياتنا، بل الطبيعة العليا تحوّل الطبيعة السفلى . كان القديس اغوسطينس يسمع هذا الكلام : «اني غذاء النفوس الشهمة فاغتذِ بي وكن شهماً . ولكن لست انت الذي تحوّلني اليك، بل انا الذي احوّلك اليّ .» ولهذا قال القديس بولس : «انا حي . لا انا . بل انما المسيح حي فيّ» (غلاطية ٢:٢٠)

المسيح يبقى معنا في التناول الى ان تتحول اشكال الخبز والخمر الى جسدنا . ولكن هل يسكن يسوع في نفسنا ولا يُنعشها ؟ هل تتحد نفسنا بإله الحياة ولا تحصل على الحياة ؟ وبعد أن تتلاشى أشكال الخبز والخمر أفلا تبقى حرارة المسيح فينا ؟ ان الزهرة اذا وُضعت في مسكن عبق برائحتها حتى بعد ذبولها، والبخور يفوح عُرفه بعد حرقه . والشمس تغيب وتُبقي حرارة في الارض . هكذا المسيح بعد ان تتوارى اشكال الخبز والخمر يبقي فينا نعمته وقوّته لازدياد الحياة والقداسة

على انه اذا كان الله قد اعطانا جسده ودمه مأكلًا ومشرباً لنفوسنا، فقد ترتّب علينا ان نتناولهما بتواتر . فكما انه جلَّت حكمته وضع شريعة التغذّي اليومي لحياة اجسادنا، هكذا أراد ان يسنّ شريعة التناول المُتواتر، إن لم نقل اليومي، على شكل الطعام لحياة أنفسنا . وهذا ما جرى عليه المسيحيون الاولون اذ كانوا مواظبين على التناول اليومي . وهذا ما تطلبه منا الكنيسة بتحريضنا على التناول اليومي، مهما تراكمت علينا الاشغال . فلا ضرورة للاعتراف كلّ مرة نتناول ان كان ضميرنا طاهراً من الخطايا المميتة . ولا ضرورة للمكوث طويلًا في الكنيسة للاستعداد والشكر، اذا لم يكن لنا متسع من الوقت لذلك . فالشكر بالافعال أجمل منه بالاقوال . على انكم قد تقولون : اننا لا نستحق ان نتناول كثيراً ولكن من يا ترى، لو لاحظنا الحرارة والاستحقاق، من يتجاسر ان يحسب نفسه اهلًا لان

يغتذي بجسد ابن الله ودمه، حتى ولو جمع في نفسه كل ما في الملائكة والقديسين من الاستحقاقات ؟ ان الاستعداد الذي يطلبه المسيح فينا لتناول هذا المنّ السماوي والطعام الالهي، ليس هو استحقاق الجدارة الذاتية والكفاءة، بل هو استعداد النفس بحياة النعمة المجانية فيها، هو استعداد الايمان والرجاء والمحبة . اننا نتناول لانه هو تعالى يرغب في ذلك ويأمرنا به، وما علينا الا الطاعة . نتناول لاننا محتاجون اليه . انكم في المدُن بنوع خاص محفوفون بالمخاطر الروحية التي تهدّد حياة انفسكم من كل جهة . فينبغي ان تتناولوا اكثر من غيركم لكي تقاوموا هذا التيّار الجارف . عليكم ان تتناولوا بقدر ما تريدون ان تبقوا احياء . ويحتاج الرجال ان يتناولوا اكثر من سواهم لانهم اكثر تعرّضاً للمصاعب والاخطار

فتناول يا اخي فالتناول يعلمك ممارسة الفضائل ويبلّغك الى طريق الكمال . التناول يزيد ايمانك ويُطلعك على اسرار الله اكثر مما تُطلعك عليها الكتب : « اعترف لكَ يا ابتِ ربَّ السماوات والارض، لانك أخفيت هذه عن الحكماء والعقلاء وكشفتها للاطفال » (متى ١١ : ٢٥) . التناول يغنيك بلذة الرجاء المسيحي، ويمنحك القوة لتتغلب على مكاره الحياة، لان الحياة تعسة بدون يسوع، ويهب لك النعم للحصول على الخلاص . فالذي تنازل واعطاك على الارض جسده لا يبخل عليك بسمائه . التناول يزيد فيك المحبة فانّ الذي احبك حتى جعل نفسه مأكلاً

ومشرباً لك يعلمك ان تضحي بنفسك لاجل محبته ويحملك ان تهتف مع القديس بولس : « من يفصلنا عن محبة المسيح ؟ أشدّة أم ضيق أم جوع ... أم اضطهاد ؟ » (رومة ٨ : ٣٥) . ألا ايتها الراهبة التي دفنتِ صباكِ وجمالكِ وملذّات العالم ضمن جُدران الدير أية لذّة تَجدين في هذه العُزلة ؟ — اني أَجد اكبر سعادة بمجاورتي القربان وتناولي المتواتر جسد الرب . الا ايها الكاهن ما الذي يجعلك تعيش عيشة ملائكية في جسم أرضي ؟ — هو القربان الذي يُنبت العذارى . ألا ايها الشاب الورع الحاصل على كل ما يشتهيه العالم من ثروة وجمال ورفعة، ما الذي يحفظك في الفضيلة ؟ — اني اجد في التناول الترياق ضدّ سم العالم . فما اعظم حظك ايها المسيحي المتناول جسد الرب . ليس لك ان تغبط الرسل بحظهم، فهم كانوا يرون يسوع، اما انت فتضمه الى صدرك . ليس لك أن تغبط بهذا الحظ مريم العذراء، فان لك كل يوم ان تضمّ بين جوانحك مَن حبلت به في احشائها البتولية وحملته بين يديها الطاهرتين . ليس لك ان تغبط حظ الملائكة لانك تعانق بدالّة البنين من لا يزالون ينظرون اليه بخشية ومهابة

فالحياة لذيذة مع يسوع المسيح . والايام التي نتناوله فيها تلين شدائدها تجاهه كالشمع امام النار . وكما ان يسوع هو القيامة والحياة، فتناوله حياة للنفوس وعربون للقيامة المجيدة : « من يأكل جسدي ويشرب دمي فله الحياة الابدية وانا أقيمه في اليوم الاخير » (يوحنا ٦ : ٥٥)

وما اسعدنا عند انتقالنا من هذه الحياة اذا كنا نأخذ يسوع زادًا لسفر الآخرة ! فنحمل منه في قلوبنا القيامة والحياة . فلا نخاف الموت ولا نخشى الهلاك بل نكون قد انتقلنا من جوار يسوع المتحجب تحت اشكال الخبز والخمر الى يسوع المجيد الظافر الجالس عن يمين الآب، الذي يكون غذاءنا الدائم مدى الابدية . آمين

يسوع المسيح قدوتنا ومثالنا الاسمى
في ممارسة الفضائل

انا هو الطريق (يوحنا ١٤: ٦)

ان السيد له المجد لم يكتفِ بأن تجسد وتألم ليفتح لنا أبواب السماء . بل اراد ان ينهج لنا بسيرتهِ الطريق المؤدية الى السماء . وهو الذي قال لنا عزّ من قال : انا الطريق التي ينبغي لكم أن تسلكوها لكي تبلغوا السماء . وقال ايضاً : « تعلّموا مني أني وديع ومتواضع القلب » (متى ١١: ٢٩) . اننا نطالع تراجم عظماء الرجال ونحاول أن نقتدي بهم وحسناً نفعل :

فتشبّهوا ان لم تكونوا مثلهم ان التشبُّه بالكرامِ فلاح

ولكنّا ننسى مثالنا الأسمى وإمامنا العظيم الذي نزل من السماء وصار كواحدٍ منا لنحتذي مثاله . أفلا ينطبق علينا قول القديس يوحنا الحبيب : أتى الى خاصتهِ وخاصته لم تعرفه (يوحنا ١: ١١) او قول القديس يوحنا المعمدان : « لكنّ بينكم مَن لستم تعرفونه » (يوحنا ١: ٢٦) . انه الطريق الذي يُبلّغنا سعادتنا، فينبغي ان نتبعه لان القديسين لم يتقدسوا الّا بقدر ما اقتدوا

بهِ . ويقول القديس بولس : « اقتدوا بي كما اقتدي انا بالمسيح » (١كور٤ : ١٦) « ليكن فيكم من الافكار والاخلاق ما هو في المسيح يسوع » (فيلبي ٢ : ٥) . فعلينا ان نقتدي بيسوع في تصرّفاتنا مع الله ومع القريب . وها نحن نحاول ان نذكر لكم شيئاً من علاقات السيد له المجد بالنسبة الى ابيه الازلي وبالنسبة الى البشر لكي نعرف كيف نأتمّ بهِ مثالاً في كل علاقاتنا مع الله ومع القريب :

تعرفون أَن ليسوع المسيح طبيعتين، الالهيـة ولها ارادة الهية، والبشرية ولها ارادة بشرية . وبما ان طبيعة المسيح البشرية تعرف ما للطبيعة الالهية من الكمال، جعلت جُلّ مجهودها وكل خيرها الاسمى على الارض ان تتم الارادة الالهية في كل اطوار الحياة . وقد عرّفها الله ارادته بكل ما ألهم الانبياء . فاتوا في بلاد مختلفة وفي اجيال مختلفة ورسموا ملامح السيد المسيح قبل مجيئه وذكروا تفاصيل حياته . فلم يكن ليسوع المسيح غاية من مجيئهِ سوى تتميم هذه الارادة الالهية المرسومة من قبل بواسطة الانبياء . فقد تممها منذ قال : « ها انا ذا آتٍ ... لأعمل بمشيئتك يا الله » (عبر ١٠ : ٧)، الى آخر كلمة قالها على الصليب : « قد تمّ » وأَسلم الروح (يوحنا ١٩ : ٣٠)

قال احد القديسين : لو رأينا ملاكاً أَو نفساً في حالة النعمة لكان في هذه الرؤية ما من شأنه ان يميتنا فرحاً لشدّة مـا في هذه النفس من البهاء . وقال غـيره : لو كان ممكناً أَن نرى

الله لحظةً واحدة لأصبح من المستحيل أن نرتكب خطيئة مميتة لاننا بعد ان نكون قد رأيناه بجماله وبهائه نرى ضرباً من الجنون أن نخسره لاجل ملذّة وقتية . وعليه فطبيعة المسيح البشرية التي فهمت تمام الفهم ما في طبيعته الالهية من الكمال كم جعلت سعادتها في الخضوع التام للارادة الالهية وبأي فرح ونشاط تممتها في كل ما نطق بهِ الانبياء عن المسيح

وكأن السيد المسيح قد جعل نُصب عينيه اقوال الانبياء عنه ليطّبق عليها كل اعمال حياته :

فلماذا نرى أمه العذراء مريم تُسافر من الناصرة في آخر شهر من حبلها ؟ ولماذا يُصدر قيصر الملك اوامره لكي تُكتتب كل المسكونة كل واحد في بلدته الاصلية ؟ ذلك لكي يتم أمر الرب القائل بفم ميخا النبي : « وانتِ يا بيت لحم أرض يهوذا لستِ الصغيرة في رؤساء يهوذا لان منكِ يخرج المدبّر الذي يرعى شعبي اسرائيل » (متى٢ : ٦ وميخا ٥ : ٢) . لماذا يُعاني القديس يوسف ومريم مع الطفل الالهي مشاق السفر الى مصر في بلاد قَفرة سحابة ايام طوال ؟ ليتم قول النبي الآخر القائل : « من مصر دعوت ابني » (متى ٢ : ١٥ وهوشع ١١ : ١) . قد اتى ليتمم شريعة موسى التي يأمر بها الرب، فدخل الهيكل طفلاً صغيراً ليخصص نفسه بالله طبقاً للشريعة القائلة : « ان كل ذكر فاتح رحم يُدعى مقدّساً للرب » (لوقا ٢ : ٢٣ وخروج ١٣ : ٢) . قضى ثلاثين سنة في عيشة خفية خاضعاً لابيه وامه يشتغل،

فيأكل خبزه بعرق جبينه، ويعيش عيشة كمال لم يكن يراها الا الله أبوه . وقد كان بوسعه ان يبشر العالم كله في هذه المدّة، لكنه أبى إلا ان يتمم الخطة المرسومة وان يعلمنا الرضى بالحالة التي يدعونا الله اليها، وكون بلوغ السماء ليس بصنع العجائب والاعمال الباهرة ولكن بالحياة الصالحة . وسيّان علانيتها وسرّها لدى الله الذي يرى السرائر، ويقبل صلاتنا واعمالنا اليومية

ارادة ابيه السماوي يسميها طعامه : «طعامي ان أعمل مشيئة من أرسلني وأتمم عمله» (يوحنا ٤:٣٤) . ويبشر المساكين ويشفي المرضى ويتحنن عليهم، طبقاً لقول النبي اشعيا: «ان روح السيد الرب عليَّ . لان الرب مسحني لأبشّر المساكين وأرسلني لأجبر المنكسري القلوب وأنادي بعتق للمسبيين وبتخلية للمأسورين لأنادي بسَنة الرب المقبولة» (اشعيا ٦١:١ ولوقا ٤:١٨ و١٩)

قضى تلك الحياة الوديعة بهدوء وسكينة وعمل الخير بلا جلَبة، طبقاً لوصف النبي اشعيا اذ قال : «هوذا فتاي الذي اخترته حبيبي الذي سُرَّت بهِ نفسي ... لا يُماري ولا يصيح ولا يسمع احد صوته في الشوارع . قصبةً مرضوضة لا يكسر، وكتاناً مدخّناً لا يُطفئ حتى يخرج الحكم الى الغلبة . وعلى اسمه تتوكل الامم» (متى ١٢:١٨-٢٢ واشعيا ٤٢:١-٤)

اختار تلك المطية الوضيعة ليدخل اورشليم ساعة كان الشعب يُعلن أنه ابن داود الملك الآتي باسم الرب، ليتمم قول النبي زكريا القائل : «لا تخافي يا ابنة صهيون فهوذا ملكك

يأتيك وديعاً ومتواضعاً راكباً على اتان وجحش ابن اتان » (متى ٥:٢١ ويوحنا ١٢:١٥ وزكريا ٩:٩)

لسنا نعلم ماذا يفهم اليهود من العهد القديم اذا لم يعرفوا فيه حياة يسوع . قد وصف الانبياء عذاب السيد المسيح كأنهم رأوه . فلماذا اختار يسوع آلام الصلب وثُقبت يداه ورجلاه وعُرّي من ثيابه ؟ ليتمم ما قاله النبي داود: (مز ٢١) « أنا دودة لا انسان — عارٌ عند البشر ورذالة في الشعب — كل الذين يُبصرونني يستهزئون بي — يفغرون الشفاه ويهزّون الرؤوس ثَقبوا يديّ ورجليّ — إني اعدّ كل عظامي — يقتسمون ثيابي وعلى لباسي يقترعون » . وما هي الحكمة من صلبه وعذابه ؟ فلنسمع النبي اشعيا يفسّرها لنا (ف ٥٣) : « جُرح لاجل معاصينا، وسُحق لاجل آثامنا ... كلنا ضللنا كالغنم، كل واحد مال الى طريقه . فألقى الرب عليه إثم كلنا . قُدِّم وهو خاضع ولم يفتح فاه . كشاةٍ سيق الى الذبح وكحمل صامتٍ امام الذين يجزّونه ولم يفتح فاه ... أحصي مع الاثمة وحمل خطايا كثيرين وشفع في العصاة » . كان أصعب شيء عليه أن يُحصى بين الاثمة . لذلك نرى السيد المسيح عند ما يستصعب العذاب ومرارة الآلام يحزن ويكتئب ويعرق عرق دمٍ، ويقول لأبيه الازلي : « لا تكن مشيئتي بل مشيئتك » (متى ٣٩:٢٩) . وهذه آخر كلمة قالها على الصليب . بعد ان تمم آخر حرف من اقوال الانبياء قال : « قد تمّ » (يوحنا ٣٠:١٩)

وهو نفسه يفسر لنا سر حياته بعد قيامته من بين الاموات اذ ظهر لتلميذي عماوس، وهما راجعان الى بلدتهما حزينين، يائسين، فاقدَي الايمان بقيامته . فقال لهما : « يا قليلي الفهم وبطيئي القلب في الايمان بكل ما نطقت به الانبياء . اما كان ينبغي للمسيح ان يتألم هذه الآلام ثم يدخل الى مجده ؟ ثم اخذ يفسر لهما من موسى ومن جميع الانبياء ما يختصّ به في الاسفار كلها » (لوقا ٢٤ : ١٣ الخ)

فهذا هو سرّ حياة المسيح كلها كان ينبغي أن يتمم ارادة أبيه السماوي . وهذا ما يفسر لنا صلاته الاخيرة قبل الآمه : « يا أبتِ . . . انا قد مجدتك على الارض وأتممت العمل الذي اعطيتني لاعمله . والان مجدّني انت يا ابت عندك بالمجد الذي كان لي عندك من قبل كون العالم » (يوحنا ١٧ : ١ـ٥) . هذه هي علاقات السيد المسيح مع أبيه السماوي على الارض، وهذه هي القدوة لجميع تصرفاتنا نحو الله ان نتمم مشيئته . وبعد ان رأيناه القدوة العليا في سلوكه بالنسبة الى الله، فلنرَ كيف كانت علاقاته بالنسبة الى البشر

ان حياة السيد المسيح كلها تُلخَّص بكلمة محبة : « هكذا أحب الله العالم حتى انه بذل ابنه الوحيد » (يوحنا ٣ : ١٦) . بذله بَذْلَ من ينفقُ شيئاً ثميناً بسخاء كليّ، كأن الله يهتمّ بافتدائنا اكثر مما يهتمّ بقيمة دم ابنه : « ليس لاحد حبّ اعظم من هذا ان يبذل نفسه عن أحبّائه » (يوحنا ١٥ : ١٣) . بذل

الله ابنه عنّا في سر التجسد . ألا فلنسمع القديس بولس يذكر هذا السر العجيب لنا بهذه العبارة الوجيزة : « لمّا حان كمال الزمان أرسل الله ابنه مولوداً من امرأة » (غلاطية ٤:٤) . لا بل فلنسمع القديس يوحنا الحبيب وهو يحلّق كالنسر في وصفه هذا السر : « في البدء كان الكلمة . والكلمة كان عند الله . وكان الكلمة الله . هذا كان في البدء عند الله . كلٌّ به كُوِّن، وبغيره لم يكوَّن شيء مما كُوِّن ... والكلمة صار جسداً وحلّ فينا » (يوحنا ١:١-١٤) . انه يجب علينا أن نخرّ ساجدين أمام سرّ المحبة هذا، فالاله صار انساناً لكي يجعل الانسان الهاً، القدير صار ضعيفاً ليقوّينا، والغنيّ صار فقيراً ليغنينا، وغير المائت صار مائتاً ليحيينا، فما اعظم قيمتك ايها المسيحي بعد سر التجسد ! فقد أصبحت ابناً لله، وهيكلاً للروح القدس : « نحن أبناء الله ولكن لا يتبين ماذا سنكون فيما بعد » (١ يوحنا ٣:٢) . « ألا تعلمون انكم هيكل الله وان روح الله مستقر فيكم ؟ » (١ كورنتوس ٣:١٦) قد أصبحنا كما قال القديس بطرس : « شركاء في الطبيعة الالهية » (٢ بطرس ١:٤) . أصبحنا اخوة المسيح وشركاءه في ميراثه، ولنا حق ان نرى الله فيما بعد وجهاً الى وجه

هكذا أحبّ الله العالم حتى انه بذل ابنه الوحيد في سر التجسد وبذله بذلاً اعظم في سر الفداء

كيف يموت ابن الله لاجل انسان ؟ كيف يموت لاجل انسان

خاطئ انكر سلطته وداس صورته ؟ قال القديس بولس : لا يكاد انسان يموت عن بارٍ فكيف عن خاطئ ؟ (رومة ٥:٧) كيف يموت ويتعذب كل هذه الاعذبة التي نعرفها في الانجيل لاجل انسان خاطئ ؟ هذا هو سرّ المحبة العظيم . ان الملك ثاودوسيوس الكبير الذي نعدّه من اعظم الملوك المسيحيين لما أهانه أهالي تسالونيكيا ورموا صورته في الوحل أهرق دماء كثيرين منهم لاجل هذه الاهانة . فما تقولون لو ان ابن الملك ثاودوسيوس كان عرض نفسه ضحية لفدى المجرمين رأفة بهم، وصيانة للعدل الذي كان لا بدَّ أن يجري مجراه حفظاً لكرامة الملك ؟ ما لا ذكر لمثله في التأريخ، ولكن ما لم يخطر لبشر قد اجراه ابن الله بالفعل وأتمّهُ بفرحٍ عظيم: «ولي صبغة اصطبغ بها وما اشدّ تضايقي حتى تتم» (لوقا ١٢:٥٠) . «ليس لاحد حب اعظم من هذا أن يبذل نفسه عن أحبائه» (يوحنا ١٥:١٣)

بذل نفسه في التجسد، وبذلها في سر الفداء، وبذلها بذلاً أعظم في سر الافخارستيا . وهذا ايضاً ما لم يخطر لمخلوق . لو ان الله اقترح على البشر ان يسألوه اكبر نعمة لما كان لمخيّلة انسان ان تتصوّر مثل هذه النعمة . ولكن الذي قال: «نعيمي مع بني البشر» (امثال ٨:٣١) قد اخترع هذا السر العجيب واراد ان يتحد بنا اتحاداً تاماً . وقد خرق لذلك نواميس الطبيعة فاحصى اللاهوتيون اكثر من اثنتي عشرة اعجوبة يجمعها الله في سر الافخارستيا ليكون ابن الله مأكلاً ومشرباً لنا . فبالحقيقة

عجيبٌ أَن يُرى الاله بشراً . وأَعجب من ذلك كثيراً أَن يشاهد على الصليب معلقاً. واما مجموع العجائب كافةً فهو وجوده تحت الاعراض السرية . «يا لعمق غنى الله وحكمته وعلمه ! ما ابعد احكامه عن الادراك، وطرقه عن الاستقصاء !» (رومة ١١: ٣٣)

على أَن السيد المسيح ليس قدوة لنا في محبته العامّة فقط، بل في معاملاته الخاصة ايضاً : فقد أَحبّ شعبه حبًّا شديداً، وأَحبّ بنوعٍ خاص المبتلين بمصائب الدهر والمرضى والفقراء، أَحبّ منهم الخطأَة . أَحبّ اصدقاءه حتى بكى عليهم، وأَحبّ أَعداءه محبة اقوى من الموت . أَحب الشعب الاسرائيلي اعظم محبة، واراد له الخير كل الخير، حتى بكى على اورشليم عاصمة ملكه قائلًا : «يا أورشليم يا أورشليم يا قاتلة الانبياء وراجمة المرسَلين اليها، كم من مرة أَردت ان اجمع بنيك فيك كما تجمع الدجاجة فراخها تحت جناحيها ولم تريدوا (متى ٢٣: ٣٧) . لو علمت انتِ ايضاً في يومك هذا ما هو لسلامكِ» (لوقا ١٩: ٤٢) . أَحبّ العشّارين والخطأَة ولم يأنف من مجالستهم حتى ان الفريسيين اخذوا يتذمّرون عليه، فاجابهم: «لا يحتاج الاصحّاء الى طبيب لكن ذوو الاسقام (متى ٩: ١٢) إِني لم آتِ لأَدعو صديقين بل خطأَةً الى التوبة» (لوقا ٥: ٣٢) . احب المرضى والمبتلين بمصائب هذا الدهر وخفّف بلايا الانسانية . فكلما ذكر الانجيل أَنهم قدّموا اليه مرضى، قال انه «تحنن عليهم وابرأ مرضاهم» (متى ١٤: ١٤)

وكما بكى السيد المسيح على عاصمة بلاده التعسة بكى ايضاً على اصدقائه الاوفياء المخلصين . أحبَّ اصدقاءه الاطهار فسالت دموعه على حبيبه لعازر، وهو في القبر

لمَّا وافى يسوع ليقيم لعازر من بين الاموات ذهبت مريم لملاقاته وخرّت على قدميه وقالت له : «يا رب لو كنت ههنا لم يمت اخي . فلما رآها يسوع تبكي ورأى اليهود الذين جاءوا معها يبكون ارتعش بالروح . وحرّك نفسه فقال : أين وضعتموه ؟ فقالوا له : يا رب تعال وانظر» . فلما رأى يسوع صديقه ميّتاً في القبر دمع . فقال اليهود : «انظروا كيف كان يحبه» (يوحنا ١١ : ٣٢ـ٣٦) . فترون ان يسوع لم يكن يبخل على اصدقائه حتى بدموعه

أحبَّ رسله برغم ما كان فيهم من الجهل والنقائص . فهو يسمّيهم تارة احباءه، وتارة اخوته، وطوراً بنيه . وفي خطابه الاخير يقول لهم : «لا ادعكم يتامى اني آتي اليكم (يوحنا ١٤ : ١٨) لا اسمّيكم عبيداً بعد لان العبد لا يعلم ما يصنع سيده . ولكني سمَّيتكم أحبَّائي لاني أعلمتكم بكل ما سمعت من ابي» (يوحنا ١٥ : ١٥)

أحبَّ اعداءه وعلَّمنا كيف نحبّ اعداءنا . فقد كان يعلم علماً الهيًّا سوءَ عاقبة يهوذا وما تكون خيانته له . فاتخذه رسولاً له وغمره بنعمه وجعله وكيلاً على مصروفهِ ولم يظهر له مدة وجوده معه أقلّ نفور بل عامله كسائر الرسل الابرار . لكن

هذا الرسول الغبيّ المحب للمال فضَّل ثلاثين من الفضة على محبة يسوع، واتخذ اعظم واسطة للمحبة وسيلة لتسليمه لاعدائه . وماذا كان جواب السيد المسيح له في هذه الخيانة ؟ اجابه يسوع : « يا صاحِ (اي يا عزيزي) أَبقُبلة تسلّم ابن البشر » (متى ٢٦ : ٥٠ ولوقا ٢٢ : ٤٨) . وكيف كان تصرفه مع اعدائه الذين غمرهم بنعمه فجحدوا جميله وطلبوا موته وحمَّلوه الصليب وسمَّروه عليه ؟ أَي عبارة خرجت من فمه بعد هذه المعاملة ؟ انه يعزو خطيئتهم الى الجهل ويسأَل أَباه الازلي أَن يغفر لهم : « يا أَبت اغفر لهم لانهم لا يدرون ما يعملون » (لوقا ٢٣ : ٣٤)

فهل بوسع البشر ان يأتوا بمثل هذا الحنوّ وهذه الرأفة والمحبة ؟ إنه أَحبَّ البشر، أَحبهم كإله وجعل قياس محبته لنا محبة ابيه الازلي له : « كما أَحبني الآب كذلك انا احببتكم » (يوحنا ١٥ : ٩)

هذا هو مثالنا في حبّ القريب كما هو قدوتنا في حبّ الله . وهذه هي الطريق التي ينبغي أَن نتبعها فنُحسن محبة الله ونحسن محبة القريب وننهجها

قد أَظهر لنا الله كل هذه المحبة، وليس فينا ما يستوجبها . أَفلا نقابله بمثل هذه العاطفة بعدما غمرنا بنعمه ؟ هو الذي خلقنا ووهب لنا كل الخيرات الزمنية والروحية، وفدانا بدمه الاطهر، ومنحنا جسده ودمه مأكلاً ومشرباً . أَفلا نضحّي بحياتنا في سبيل حبه ؟ واذا لم تتجاوز محبتنا الاقوال ولم تبلغ الى الافعال

أفلا نخشى ان يقال عنا ما قيل عن الشعب الاسرائيلي : «هذا الشعب يكرمني بشفتيه واما قلبه فبعيد عني » ؟ أفلم يطلب منا السيد المسيح حفظ وصاياه علامة المحبة له . أوَ ليس هو القائل : « ان كنتم تحبوني فاحفظوا وصاياي (يوحنا ١٤ : ١٥) . ان حفظتم وصاياي ثبتم في محبتي . . . أنتم أحبائي إن صنعتم ما أنا مُوصيكم بهِ » (يوحنا ١٥ : ١٠ و ١٤) . فاذا اردنا أن نظهر حبنا لله فلنسمع صوت الضمير الذي وضعه في اعماق قلوبنا . فمن سمع صوته سمع صوت الله . وعلى قدر ما نخالفه نخالف الله . اذا اردنا ان نُظهر حبنا لله فلنحفظ ما رَسم من الوصايا بفم ابنه الوحيد وبواسطة الكنيسة التي منحها سلطانه على الارض : « من سمع منكم فقد سمع مني » (لوقا ١٠ : ١٦) . ان اردنا ان نظهر حبنا لله فلنقم بواجباتنا الشخصية ونخصه بحبنا حياتنا واوقاتنا . وليكن هو الغاية في أفكارنا وأقوالنا وأفعالنا حتى نقول مع القديس بولس : « انا حيّ ، لا انا ، بل انما المسيح حيّ فيّ » (غلاطية ٢ : ٢٠) . إن أردنا ان نُظهر حبنا لله فلنقبَل من يده كلّ ما ينتابُنا من المضادّات والأمراض والتجارب لانه لا شيء يجري بدون اذنه . ولنقبّل بالحب والاحترام اليد التي تضربنا ، فانها لا تضرب الا لترحم . واذا قويَت علينا المصائب والمحن فصلّوا لكي تخرجوا منها ولكن في الوقت نفسه كونوا مستعدين لاتمام مشيئة الله تعالى ، وقولوا مع يسوع المسيح المتألم : « لا تكن مشيئتي بل مشيئتك »

واحسن واسطة نُظهر بها حبنا لله هي ان نحب القريب . فمحبة القريب برهان أكيد على حبنا الله، لان القديس يوحنا الحبيب يقول : « ان قال احد اني احب الله وهو مبغض لاخيه فهو كاذب : لان من لا يحب اخاه الذي يراه، كيف يستطيع ان يحب الله الذي لا يراه » (١ يوحنا ٤ : ٢٠) . وهذه هي وصيته الخاصة : « اني اعطيكم وصية جديدة ان يحب بعضكم بعضاً . . . » وهذه هي العلامة الفارقة بين المسيحيين وغيرهم : « وبهذا يعرف الجميع انكم تلاميذي اذا كنتم تحبون بعضكم بعضاً » (يوحنا ١٣ : ٣٤ و ٥)

ولكي تكون محبتنا للقريب ذات أجر، ينبغي أن نحبه لاجل الله : لانّا إن أحببنا من يحبنا فليس لنا أجر . ينبغي ان نصنع اليه الخير، ولو لم نرَ منه مكافأة حتى لو قابلنا بانكار الجميل، لان محبتنا على هذا الوجه تكون خالصةً لوجه الله الكريم

ولكي تكون محبتنا عملية، ينبغي ان نحب القريب اولاً بعدم ضرّنا اياه، ثانياً بصنع الخير اليه :

والضرر لا يقوم بما نلحقه بالقريب من الاذى في صحتهِ او حياتهِ فقط، بل يكون ايضاً بقتل القريب في سمعتهِ ومالهِ وعرضهِ وحياتهِ الروحية

ما اكثر ما نرى مَن يدّعون الاستقامة ويقولون اننا لم نقتل احداً، وهم لا يسمُّون قتلاً ادبياً ما يفوهون بهِ ضد القريب من القدح في استقامتهِ وشرفهِ وعرضهِ . ان الصيت الحسن خير من

المال، فاذا تكلمنا عن القريب بما يضر سمعته فنحن نقتله. ومع ذلك نرى عدداً كبيراً من الناس لا يروقهم حديث الا اذا كان قدحاً في صيت قريبهم، فهولاء يذمّون الناس اجمعين ولا يمدحون الا انفسهم، ويحاولون ان يبنوا لهم مجداً على انقاض سُمعة غيرهم

ما اكثر ما نسمع اناساً يجاهرون بانهم لا يعرفون السرقة. نعم انهم ليسوا من اللصوص ولا من قطاع الطرق، ولكن كل مرة يغشّون القريب في البيع والشراء، وكل مرة يصدونه عن الحصول على وظيفة، وكل دَين عليهم لا يوفونه، وكل ربىً فاحش يتقاضونه، وكل ضرر مادّي يلحقونه بالقريب، وهم قادرون ان يمنعوه. كل هذا يُعدّ سرقة وهم مطالبون بالتعويض. وفي هذه المادّة «لا تُغفَر الذنوب الا بردّ المسلوب»

ولسنا نريد ان نشرح الآن ما في خطيئة الزنى من الضرر بالقريب لما فيها من الفظاعة بقتل حياة النفس الادبية، وما فيها من الحَيف بالتعدي على الحقوق الزوجية، وما فيها من تدنيس الجسد الذي هو هيكل الله. فان مسّ العرض وثلم الشرف أفظع من قتل الجسد. وما أصعب التعويض في هذا الامر

تلحقون الضرر بالقريب كلما أوقعتموه في حبائل الخطيئة. وتقتلونه كلما دفعتموه الى عشرة رديئة او الى حضور رواية خلاعية او رقصٍ ذميم او قراءة كتب رديئة. وكل هذا يسمَّى شكًّا وتعرفون ما يقول السيد المسيح عن الشكّ: «الويل للعالم من الشكوك!... ومن شكَّك أحد هولاء الصغار المؤمنين

بي، فاجدر له لو عُلِّق في عنقه حجر الرحى وزُجَّ في لجة البحر» (متى ١٨: ٧ و٦)

واذا اكتفيتم بالامتناع عن ضرر القريب هل تكونون قمتم بوصية المحبة ؟ ان المحبة السلبية هي جزء من شريعة المحبة . أما المحبة الحقيقية فتقضي ان تعامل غيرك كما تريد ان يعاملك سواك : «فكل ما تريدون ان يفعل الناس بكم فافعلوه انتم بهم» (متى ٧: ١٢) . فان كنت قد رُزقت حظًّا وافرًا من العقل، ولك إلمام بالعلوم الدينية والحقائق الراهنة، فان الحقيقة ليست لك وحدك بل للجميع، وانت مُلزَم بتعليم الجهال، مُلزَم بتعليم مَن يلوذ بك من اولادك واقاربك وكلّ من احتاج اليك لان كل مسيحي ينبغي ان يكون رسولاً . واذا كنت رجلًا فاضلًا ومحبًّا لله فانك تبذل كل جهدك لتبثّ الفضيلة وتنشرها في من حولك. فالرجل الفاضل لا يكتفي بأن يكون فاضلًا لنفسه، كما أن الشرير لا يكون شرّيراً لنفسهِ فقط، فحيثما تكون التقوى الحقيقية ومحبة الله تكون الغيرة الحقيقية. لما كانت هذه البلاد راسخةً في التقوى كان يكثر فيها الرسل الذين ينشرون الدين في العالم . فقلّة الرسل من قلة التقوى

واذا رزقك الله مالاً، فالمال هو لله، قد اعطاك اياه لاحتياجاتك وبذل ما يفيض عنك لحاجات القريب . الله ينظر الى كل عمل خير تعملهُ للقريب كأنك تعملهُ لشخصهِ : فان كسوت عُرياناً فقد كسوت يسوع المسيح، وان اطعمته فقد اطعمت المسيح،

وان زرتهُ في سجنهِ او عُدتـهُ في مرضهِ فقد زرت المسيح وعُدتهُ : « الحق اقول لكم انكم كلما فعلتم ذلك باحد اخوتي هولاء الصغار فبي فعلتموه » (متى ٢٥ : ٤٠)

وعليـهِ اختم كلامي بدعوتكم وتحريضكم ان لا تنسوا مثالكم الأسمى، لا تنسوا يسوع المسيح، لا تنسوا الطريق التي تبلّغكم الكمال . أجل انهُ يحسُن بنا ان نقتـدي بالقديسين في جهادهم وحبهم لله، الا انهم هم انفسهم لم يصلحوا لنا قدوة الا لاقتدائهم بيسوع المسيح، فهو مثالنا الاسمى وبغيتنا القصوى . وما القديسون الّا مرشدون اليهِ . ففي مدرستهِ تتعلمون الكمال، وبنعمتهِ تمارسونهُ اذ ليس في مدرستهِ الا فضيلة وقداسة

ان الفرق بين عظماء الرجال ويسوع المسيح هو ان الرجل العظيم يبدو لكم كبيراً لاول وهلة، ولكنه كلما اقتربتم منهُ تبيَّنت لكم نقائصه البشرية وصغُر في عينيكم . اما السيد المسيح فانكم كلما ازددتم بهِ معرفة ازددتم بهِ شغَفاً ورأيتم فيهِ كمالاً

ها ان العالم يدرس يسوع المسيح منذ عشرين قرناً، ولم يقدر ان يستوعب كمالاته، ويتحسر رجال الفن لعجزهم عن رسم صورتهِ . فادرسوا هذه الصورة تزدادوا كمالاً . ادرسوا يسوع المسيح تتألهوا . وبعد ان تكونوا رأيتم سعادة وغبطة في معرفة حياتهِ اذ كان على الارض مقتفين خطاه، تحصلون على السعادة الحقيقية التي هي في معرفة الآب الازلي والـذي ارسله يسوع المسيح

يسوع الملك

هلمّ نسجد ونركع للمسيح ملكنا والهنا

يذكر القديس يوحنا في الفصل السادس من انجيله أن الناس الذين تبعوا يسوع الى جبل عِبْر الجليل، لما عاينوا الآية التي عملها هناك، فاشبع خمسة آلاف من خمسة ارغفة شعير وسمكتين، قالوا : «في الحقيقة هذا هو النبي الآتي الى العالم»، وهمُّوا «ان يختطفوه ويقيموه ملكاً عليهم» (يوحنا ٦:١٤ و١٥). ونحن ما عسانا ان نفعل وقد رأينا في السيد المسيح من الخير والجمال والعظمة ما يسبي الالباب ويذهل العقول ؟

قد رأينا السيد المسيح قطبَ البشرية الذي بهِ كان كلّ شيء، ولاجله كانت تندكّ العروش وتقوم الممالك لتُعد مقتضيات مجيئه السعيد . رأيناه المخلص المنتظَر الذي تنبأت عنه الآباء والانبياء، وطلبته الامم والشعوب، فاشرق في ملء الزمان، وبدَّد الضلال والفساد، مُعيدًا المجد لله والسلام للبشر بعدما سلبتهما معصية آدم . رأيناه المُصلح العظيم الذي تولّى هو بنفسه اصلاح ما افسدته الكبرياء، وتسهيل ما اقتضاه العدل الالهي بعد سقطة الابوين . فرأيناه منذ صباه النضير لم يستنكف

أن يحجب أشعة فضائله وقدرته وحكمته في حانوت النجارة، حيث زاول تلك المهنة ليقدّس العمل ويشجّعنا على المشقات وينصرنا على الكبرياء. رأيناه المعلم الاسمى «معلم الامم ومعلم العدل» كما وصفته الانبياء، يُلقي من تعاليمه السامية ما يوافق كل الامصار والاعصار، وما يفيد جميع الافراد والطبقات. ثم انه بما اجترح من المعجزات التي كانت كلها لنفع البشر وخيرهم، وبما قدّم من النبوءات التي مزّقت حُجُب الغيب والمستقبلات ختم تلك التعاليم السامية التي كان في قداستها فقط ما يكفي لاثبات انها تعاليم إله. هو المثال الاعلى الذي ليس في اخلاقه واعماله واقواله أقلّ اثر للضعف او الخطإ، حتى انه تحدّى اعداءه قائلًا: «مَن منكم يُثبت عليّ خطيئة». وهو الشخص الوحيد الذي كلما ازددنا معرفة بهِ ازددنا تعظيماً له وشغَفاً بهِ ورغبة في الارتماء على قدميه. هو الاله المتخذ بشريّتنا برحمة تذهل العقول وقد شفّ كل ما في اقنومه القدوس عن لاهوته المعبود. هو المحسن العطوف الذي اشترانا بدمه الالهي وقاسى عنا مُرّ العذاب وعار الصليب. هو الحبر الابدي الذي جعل ذاته ذبيحة دائمة عنا وقوتاً سماويًّا لنفوسنا. هو الجبّار العظيم الذي بعد ما وُلد وعاش ومات عنا ختم اعمال فدائنا بقيامته المجيدة، فغلب الموت وسبى البشر الى العُلى. هذا هو المسيح

فهل يسعنا بعد كل الذي رأينا في هذا الفادي الالهي الآتي الى العالم ان نقف جامدين تجاهه؟ ألا فلنرفع رايته علينا جميعاً

ولننادِ به ملكاً على عقولنا وعلى قلوبنا وعلى نفوسنا، ملكاً على عيلاتنا وعلى اوطاننا : « هلمَّ نسجد ونركع للمسيح وملكنا والهنا »

ولكن متى قمنا بذلك فلا نحسبنَّ اننا نجري به على مثال ما يفعل المتحمسون نحو عظمائهم بعامل الاعجاب وقصد التفخيم، بل فلنفهمنَّ اننا بذلك انما نقوم بواجب مقدس، وننادي بحقٍّ صريح سامٍ للمسيح الملك . اجل انه لملكٌ بحقّ شخصيّ له . وها نحن نتوّج هذه المحاضرات بشرح هذا الموضوع الجليل تعزية للقلوب وبهجة للنفوس وافتخاراً بحظنا السعيد تحت رايته الظافرة . فنرى اولاً كيف المسيح هو ملك بحقٍّ ذاتيّ له، ثانياً ما هي واجباتنا نحو المسيح الملك

١ً كيف المسيح هو ملك بحقٍ ذاتي له

نعم ان المسيح ملك حقيقي ليس فقط لانه كلمة الله المساوي للآب في الجوهر، وهو بهذه الصفة خالق الجميع ورب الجميع بلا نزاع، بل هو ملك بناسوته ايضاً، والى هذا يشير دانيال النبي بقوله عنه : انه « أُوتي القوة والمجد والملك » (٧ : ١٣ و١٤) . ولا يكون هذا الاعطاء للمسيح الا بما انه انسان لانه من حيث هو اله لا محل لاعطائه ما هو حائزه بقوة كونه هو والآب جوهراً واحداً

أمّا اساس هذا الحق للمسيح الملك فيقوم اولاً بالاتحاد الاقنومي الفائق طور العقول الذي بهِ يُنسب كل ما يصدر عن المسيح في كل من طبيعتيه على السواء الى اقنوم واحد الهي . وهو بذلك ملك ليس على البشر فقط، بل على الملائكة ايضاً وعلى سائر المخلوقات

ويقوم هذا الحق ثانياً على سرّي التجسد والفداء الالهيين. فالمسيح بالتجسد قد حقّق بعقله وقلبه وارادته وسائر كمالاته غير المتناهية اسمى ما يطلب الله من مخلوق . فكان بذلك رأس البرايا وبكر الخلائق وممثلها الاكمل والاسمى امام الله . وهو بالفداء الالهي قد أصلح بين السماء والارض، واشترى البشر بدم ثمين، وأنقذهم بيدٍ جبّارية من الموت والشيطان والجحيم، وفتح بوجوههم ابواب السماء، وجعلهم شركاء في مجده وميراثه . فحقّ له من ثم ان يملك مُلكاً مطلقاً على البشرية كلها

فهو اذاً ملك باوسع معاني الكلمة، له السيادة المطلقة الكاملة على الافراد وعلى العيلات وعلى الامم جميعاً من مؤمنين وغير مؤمنين على السواء . له في ذلك حقّ التشريع وحقّ القضاء وحقّ الرئاسة . له هذا الحق في النظامين الروحي والزمني على السواء، وان يكن في النظام الزمني قد ترك مظهر المُلك لحكام هذا الدهر، واليه مآبهم ولديه حسابهم : «بي تملك الملوك» . وقد أوجز القديس بولس كل ذلك بقوله عن المسيح ان الله «أجلسه عن يمينه في السماويات فوق كل رئاسة وسلطان وقوة وسيادة ...

وأخضع كل شيء تحت قدميه وجعله رأساً فوق الجميع ... »
(أفسس ١: ٢٠ ـ ٢٢)

وها ان قداسة الحبر الاعظم البابا بيوس الحادي عشر المالك سعيداً قد رسم عيد المسيح الملك وأمر أن يُحتفَل بهِ في كلّ عام بأبهة وجلال يليقان بعظمة ملك الاجيال والدهور. وقصده بهذا التدبير أن يذكّر بهذه العقيدة، ويعزّزها في النفوس بطريقة عملية شائعة، وان يقدّم بها للبشرية أنجع الادوية لتلك الادواء الرهيبة التي جعلت تتفشى بين الشعوب والحكام، وهي خليط من روح الفوضى والضعف والاستبداد والتمرّد والظلم والالحاد والاضطهاد للمبادئ الدينية والادبية

اما كون المسيح ملكاً فليس حدثاً جديداً في الايمان، بل ان هذا اللقب هو من بعض اوصاف المسيح المألوفة، نراه في الانبياء، ونطالعه في الاناجيل، ونسمعه دائماً في طقوس الكنيسة، ونرى تأثيره في بنيها. واليك من ذلك بعض النصوص والوقائع الواضحة

ولنسمع بادئ بدء أشعيا يتكلم عن ملك المسيح فهو بعد ان ذكر العذراء التي ولدت ابناً يهتف (٩: ٦) : « قد وُلد لنا ولد أُعطي لنا ابن. فصارت الرئاسة على كتفه، ودُعي اسمه عجيباً مُشيراً، إلهاً جبّاراً، أبا الابد، رئيس السلام لنموّ الرئاسة ولسلام لا انقضاء له على عرش داود ومملكته، ليقرّها ويوطّدها بالانصاف والعدل من الآن الى الابد ». فمن الجالس على عرش داود ليُقرّ مملكته الى الابد الّا السيد المسيح ؟

ولنسمع الملاك جبرائيل يبشر هذه العذراء بالحبل الالهي (لوقا ١: ٣٠) فهو يقول لها عن يسوع : «وسيعطيه الرب الاله عرش داود أبيه ويملك على آل يعقوب الى الابد . ولا يكون لملكه انقضاء» . وهو كلامٌ عن مُلك السيد المسيح الابدي يسطع نورًا ووضوحاً

وقد كانت فكرة مُلك الماسيًّا المخلص سائدة في العالم من قبل مجيئه الى حدّ أن بعض الشعب الاسرائيلي قد توّهموا ان مُلكه سيكون زمنيًّا ويحرزون فيه ما شاءوا من ثروةٍ وسؤددٍ، والى حدّ ان المجوس لما أوحي اليهم عن ولادته لم يتمثلوه الّا ملكاً، فلما سألوا عنه هيرودس قالوا: «اين المولود ملك اليهود»، ولما سجدوا له طرحوا امام قدميه الهدايا التي تقدّم للملوك ذهباً ولُباناً ومُرًّا (متى ٢: ٢ و١١)

وهذا الحق في الملك قد طالب به السيد المسيح نفسهُ في اهمّ المواقف واحرج الظروف . فهو الذي لم يُرد المُلك الزمني لمّا عزم الشعب ان ينصبهُ ملكاً، قد دخل اورشليم باحتفال ملكي ليتمّ كلام النبي زكريا القائل (٩: ٩) «لا تخافي يا ابنة صهيون هوذا ملكك يأتيك على أتان وجحش ابن أتان» . وهتف له الشعب والاولاد قائلين : «هوشعنا . مبارك الآتي باسم الرب ملك اسرائيل» (يوحنا ١٢: ١٣) ولما اراد الكتبة والفريسيون إسكات الهاتفين زجرهم قائلًا : «ان سكت هولاء صرخت الحجارة» (لوقا ١٩ : ٤٠)

قد أظهر يسوع سلطته الملكية على كل المخلوقات : فكان يعلّم الناس بسلطانٍ، ويشفي المرضى بمشيئته، يأمر البحر الهائج ان يسكت فيسكت، ويقول للاعمى أبصر فيبصر، وللابرص قد شئت فاطهر فيطهر، ولشاب نائيم المائت : يا شاب لك اقول قم فيقوم، وللصبية المائتة : يا صبية قومي فتقوم، وللعازر المدفون منذ اربعة ايام في القبر: يا لعازر هلمَّ خارجاً فيخرج، ويداه ورجلاه مربوطات وهو ملفوف بلفائف

هذا المُلك اعلنهُ السيد المسيح ايضاً امام الآتين من قِبَل رؤساء الكهنة ليقبضوا عليه فقال لبطرس الذي رفع سيفه وقطع اذن خادم رئيس الكهنة : « اردد سيفك الى غمده ... أتظن اني لا استطيع ان اسأل ابي فيقيم لي في الحال اكثر من اثنتي عشرة جوقة من الملائكة » (متى ٢٦: ٥٣) . وقد ورد في سفر اخبار الايام الثاني (٣٢: ٢١) ان ملاكاً واحداً قتل من جيش سنحاريب كل جبّار بأسٍ وقائد ورئيس في محلَّة الملك، لان قائد سنحاريب جدَّف على الرب . فما عسى ان يكون الملك الذي تحت بنوده تسير كل اجواق الملائكة

وما هو جدير بالتأمّل والتروّي، وهو اعظم برهان على مُلك السيد المسيح ، انه لاسمه السجود، على ما فيه من التواضع، شهد لنفسه أنه ملك، وهذه الشهادة كانت سبب الحكم عليه بالموت، والعلَّة التي كُتبت على الصليب . ففي وقت المحاكمة عندما تردّد بيلاطس بالحكم على يسوع رأى رؤساء الكهنة

الفريسيون انهم اذا شكوه بانه ادّعى الملك ينجحون . فقالوا لبيلاطس : انه جعل نفسه ملكاً وكل من يجعل نفسه ملكاً يُقاوم قيصر . حينئذٍ خاف الوالي إذا لم يحامِ عن عرش قيصر، وقال ليسوع : « أأنت ملك ؟ » والسيد المسيح الذي لم يكن يجيب على باقي الاسئلة اجاب على هذا السؤال وقال : « أنت قلت، إني ملك، إني لهذا ولدت ولهذا اتيت الى العالم لاشهد للحق » (يوحنا ١٨ : ٣٧) . فكان هذا الجواب سبب الحكم على يسوع، ولذلك عندما صلبوه وضعوا فوق الصليب علّة الحكم بثلاث لغات: « يسوع الناصري ملك اليهود » . وكان هذا الجواب سبب سخرية وازدراء الجنود بيسوع فضفروا له اكليل شوك، وألبسوه ثوباً ارجوانياً، وجعلوا في يده قصبة وضربوا بها رأسه وهم يسجدون له ويقولون : « سلام يا ملك اليهود »

ومما يدعو الى اشدّ دهشة اننا نرى مُلك المسيح يبتدئ حيث ينتهي مُلك باقي الملوك . فالملك عندما يموت ينتهي مُلكه والمسيح ابتدأ يملك على العالم بأسره من ساعة موته . فبينما هو يقاسي غمرات الموت على صليب العار اذا باللص المصلوب عن يمينه يتوب اليه ويصرخ نحوه قائلًا : « اذكرني يا رب اذا اتيت في ملكوتك » . فما اعجب هذا الحادث المُذهل ! ومَن أنبأك ايها اللص السعيد ان المسيح، وأنت تراه على ذلك الهوان والعار، هو رب وملك ؟ إنّ هوان البشر لا يستطيع ان يحجب جلالة ملك المجد وسنا شمس البرّ . بل ان علامة الشك

والعار نفسها، التي جعلها الصالبون أداة عذابه وعاره، قد تحوّلت الى أريكة مُلكه العظيم، واصبح الصليب من ذاك العهد زينة لتيجان الملوك ورايات الشعوب، وسمة فخر للقوّاد والابطال. وهو الاداة التي دُحرت بهـا الجحيم، والراية التي رُفعت اشارةً الى مصالحة البشر مع الله

وبعد قيامة المسيح نسمعه يخاطب رسله مخاطبة المليك المُطلَق ويأمر قوّاده هولاء ان يقتسموا مملكته قائلًا: «اني قد أُعطيت كل سلطان في السماء والارض. اذهبوا الان وتلمذوا كل الامم... وعلّموهم ان يحفظوا جميع ما أوصيتكم به» (متى ٢٨: ١٨ـ٢٠). فامتثل هؤلاء الجنود البواسل أمر مليكهم وفتحوا الممالك بصليبه واخضعوا العروش لصولجانه، وماتوا كلهم شاهـدين ان المسيح ملك الدهور. وها ان عرش نائب المسيح قد حلّ حيث كانت أريكة القياصرة ملوك الدنيا واعداء المسيح في عصرهم

ومن بعـد الرسل انضوى تحت راية هذا الملك الأبوي جيوش لا تُحصَى من الشهـداء الذين اعترفوا بمجده وسلطانه واستعذبوا في سبيله كل عذاب، الى أن آبوا اليه حاملين سعف الانتصار ومُرتدين من دمهم بارجوان الشهادة

والكنيسة المقدسة لا تزال في كل صلواتها وطقوسها تُشيد بهذا المُلك السعيد. وحسبنا الآن ان نذكر من هذا القبيل مثالاً مما تقوله الكنيسة الشرقية في طقسنا الرومي الملكي، فضلًا عن باقي الطقوس الشرقية والغربية. فهي تبتدئ القداس

بهذه العبارة : « مباركة مملكة الآب والابن والروح القدس » . وفي الفرض الكنسي يردّد الكهنة والرهبان باقي النهار في كل ساعة من ساعاته : « هلمَّ نسجد ونركع للمسيح ملكنا والهنا » . وفي رتبة جناز المسيح تردّد الكنيسة متحسرة : « يا يسوع الملك . يا يسوع ملك الجميع » . وفي حفلة المعمودية تقتضي من كل معمَّد قبل ان يتلو قانون الايمان ان يُعلن ايمانه بيسوع الملك قائلًا : « اني اومن بان يسوع ملك واله » . بل ان هذا الايمان بالمسيح الملك قد جعلته الكنيسة عقيدة من عقائدها الدينية . فادرجت في قانون الايمان النيقاوي « وايضاً يأتي بمجد عظيم ليدين الاحياء والاموات الذي لا فناء لملكه » . بل ان الكنيسة تنبّه كل بنيها بطريقة مهيبة حافلة الى هذا الملك والى علاقتهم به وذلك عندما توزّع عليهم سر التثبيت المقدس . فهي بهذا السر تقلّد المؤمنين سيف الروح (افسس ٦ : ١٧) وتشعرهم انهم اصبحوا جنوداً للمسيح، عليهم ان يحملوا رايته ويحاربوا لاجله . وكم من جيوش تألفت من هولاء الجنود المثبَّتين البواسل، وكلهم يعترف بهذا الملك السعيد قائلًا مع الرسول : « اما انا فحاشى لي أن أفتخر الا بصليب المسيح » (غلاطية ٦ : ١٤)

فهناك مواكب الزهَّاد والرهبان والراهبات على اختلاف طرائقهم . وهناك جيوش المرسلين الافاضل وقد انبثّوا في كل الاقطار، لا يحملون الا صليب المسيح في يدهم وحبه في قلبهم، تاركين كل مالهم، مخاطرين بحياتهم لينشروا ملك المسيح وهم يردّدون باللسان

والقلب : « ليأتِ ملكوتك » . ومن شاهد معرض المرسلين في رومة سنة ١٩٢٥ فهِم بالاعجاب والإكبار كيف ينشر المرسلون مُلك المسيح متممين قول داود : « في كل الارض خرج منطقهم وفي اقطار المسكونة انبث كلامهم »

هناك ملايين من الصالحين والمعترفين من ابناء الكنيسة في كل امة ولسان . ان اولئك جميعاً قد حملوا صليبهم وتبعوا المسيح ملكهم لكي يسمعوه يوم الدينونة يقول لهم : « تعالوا يا مباركي ابي رثوا المُلك المعدّ لكم منذ انشاء العالم » (متى ٢٥ : ٣٤)

لقد اقرّ بهذا المُلك على مثال المجوس القديسين أشهر ملوك العالم فضيلةً ومجداً، من قسطنطين الكبير الى ثاودوسيوس ويوستنيانوس الى هرقل، الى كلوفيس وكارلس الكبير والقديس لويس التاسع، الى لويس الرابع عشر الى شارلكان وفرديناند ملك اسبانيا، الى كل الملوك الذين ملكوا ويملكون في ممالك مسيحية لا عداد لها، وهم بهذا الخضوع لملك الملوك يحكمون بعدله فيسعدون ورعاياهم

اما اولئك الحكام الذين على مثال هيرودس يقومون على الرب وعلى مسيحه كما وصفهم داود، فويلٌ لشعوبهم وويل لهم. لقد صنع هيرودس مذبحة هائلة وغرّق بيت لحم وجميع تخومها بدم الابرياء رجاء ان يقتل الطفل الملك . وهذا ما يفعله سائر الملوك الذين على شاكلته ينفرون من المسيح، فهم يفتكون

برعاياهم، ولكن ليت ظلمهم ينحصر في المذابح الجسدية والاذى الزمني . أفلا ترون تلك المذابح الادبية التي يقومون بها: فيقتلون النفوس ببث الكفر والشكوك، وينصبون الحيَل والدسائس على المسيح وعلى كنيسته، وهم طمعاً بالتملص من شريعته يلجأون الى اغواء الشعب بالمفاسد والضلال . ويسترون سلاح مكايدهم باسماء خدّاعة فيتغنّون تارةً باسماء حرية الفكر وحرية الاديان، وتارة بالعلمانية وترقية التعاليم، وتارة بفصل الكنيسة عن الحكومة وبهذه الحبائل وامثالها يصطادون النفوس ويقتلون الفضيلة وينشرون في شعوبهم روح الفوضى والشرّ والقلق . فيشقَون ورعاياهم، وينتهون جميعاً كهيرودس بالخيبة واليأس والانخذال

ان يوليانس الجاحد الذي قصر كل همهِ في عهد مُلكهِ على اضطهاد المسيح ومملكته، انتهى بهِ الامر الى أخزى الخيبة والانخذال . فانه اذ أصيب في معركة بسهمٍ قتّال تجلّت له ذلّته وعظمة المسيح . فاستشاط غيظاً وغمس سهماً بدمه ورشقه نحو السماء قائلًا بحرقة اليأس : « غلبتَ ياجليلي » . نعم ان الجليلي أي ملك الملوك الابدي غلب ويغلب الى الابد، وهو الذي قال لرسله واتّباعه : « اني قد غلبت العالم » (يوحنا ١٦ : ٣٣)

اننا نرتعد فرَقاً من حالة اولئك الاشقياء الذين يشاركون صالبي المسيح بصياحهم : لا نريد ان يملك هذا علينا . واننا لنرى اسمى شرف لنا ان نكون عبيداً وجنوداً للمسيح الملك ولكن الانتماء الى هذا الملك لا يقوم بان نثبت اسماءنا بين اسماء

عبيده، ونباهي باننا من رعايا ملكه. بل لا بُدَّ لنا ان نقيم الدليل على عبوديتنا، ونثبت امانتنا لعرشه واجلالنا لذاتهِ المقدسة. فما عسانا نقدّم؟ ان راهبات صهيون في بيت المقدِس قد ضفرنَ ليسوع في المحلّ الذي كُلِّل فيه باكليل الشوك اكليلًا رصّعنه بالحجارة الكريمة التي قد اهداها الملوك والعظماء من سائر اقطار العالم. ما اثمن هذه الهدية! ولكنّ كلًّا منّا يمكنه ان يقدّم اكليلًا اجمل واثمن اذا ضفرناه من الطاعة لشرائعه ورصّعناه بحجارة الفضائل المسيحية. وهذا ما نراه في القسم الثاني

٢ً ماهي واجباتنا نحو المسيح الملك

مَن تشرَّفوا بان يكونوا من رعايا المسيح الملك وجب عليهم، والامم على دين ملوكها، «ان يكون فيهم من الافكار والاخلاق ما هو في المسيح يسوع» (فيلبي ٢:٥) ملكهم. وذلك ما يطلبهُ هذا الملك الوديع نفسه، وهو الذي يقول لاتباعه: «تعلموا مني»، وهو نفسه القائل: «انا الطريق». فلننظر اذاً ونهتمّ ان نجعل تصرفنا نحو المسيح ملكنا كما كان تصرفه نحو ابيه سيد السماء والارض، اي فليقل كل منا ما كان هو يقول لابيه من حين دخل العالم الى نزاعه في بستان الزيتون، الى ان اسلم الروح على الصليب: «جئت لاعمل بمشيئتك» (عبر ١٠:٧). وفي العمل بهذه المشيئة القدوسة كمال قداستنا

وكمال سروره ومجده بنا . فما هي مشيئته تعالى حتى نعمل بها ؟ انه يريد ان يملك على نفسنا وجسدنا والاسرة والمجتمع البشري . فليكن اذاً رائد كل افكارنا وافعالنا واحوالنا هذه المشيئة القدوسة . ولنكن من جنوده البواسل لننشر مُلكه على كل البشر

يريد المسيح ان يملك على عقولنا، فعلينا ان نخضعها له ونقدّمها ذبيحة لمجده، وذلك باذعاننا للحقائق التي أوحى بها الينا، ولو عُرضت لنا فيها اسرار لا ندركها، فانه هو الحق الذي لا يَغُشّ ولا يُغَشّ . وحسبنا بكلمته ضمانة للحقيقة . وهل من عجب اذا كانت عقولنا قاصرة عن ادراك كل ما يوحي بهِ الينا الله، وهي عاجزة عن ادراك اسرار الطبيعة نفسها ؟ فيجب علينا من ثمَّ ان نقبل بشكر الحقائق التي يوحي بها الله الينا ليزيدنا بها نوراً على نور عقولنا، حتى نهتدي بها الى ميناء الخلاص كما يهتدي المسافرون بالمنارة . وإن عُرضت علينا تعاليم تنافي ايماننا فلنذكر كلام القديس بولس القائل : ان بشركم « ملاك من السماء بخلاف ما بشرناكم بهِ فليكن مُبسلاً » (غلاطية ١ : ٨) . فلنبسل اذاً اي فلنرفض ونحارب كل جريدة او مجلة او كتابة او جمعية تبثّ ما يخالف سلامة ايماننا . ولنهدم مع القديس بولس : كل علو يرتفع ضد معرفة ملكنا الالهي . ولتردّد عقولنا قولها له على الدوام : لتكن ارادتك ولينفُذ كلامك وتعليمك : « فان عندك كلمة الحياة »

ان السيد المسيح يريد ان يملك على ارادتنا، اي يريد ان

نتمّ الناموس كلهُ، وان يتناول خضوعنا جميع وصاياه . فلا يجوز لنا ان نتبع منها ما يوافق اهواءنا وننبذ ما لا يوافقها مدّعين ان الطبيعة لها مقتضيات لا بدّ من ارضائها، لانهُ جل جلاله لا يطلب منا ما هو فوق طاقتنا، بل يطلب منا الجهاد وهو القائل : « ان ملكوت السماوات يُغصَب والغاصبون يختطفونه »

وليكن هذا الخضوع منا مقروناً بالتواضع والصلاة لان السيد المسيح يقول لنا: « بدوني لا تستطيعون ان تعملوا شيئاً » ثم يقول القديس بولس: « اني اقدر على كل شيء بالذي يقوّيني »

ولا نكتفِ بان يكون خضوعنا لله في اوقات اليُسر، بل فليكن في ايام الشدة ايضاً، ذاكرين ان هذه الدنيا هي وادي الدموع . فان دهمتنا التجارب وصعب علينا احتمالها فلنكرر صلاة السيد المسيح وهو في بستان الزيتون : « يا أبتِ ان كان يستطاع فلتعبر عني هذه الكأس» . ولكن اذا رأينا ارادة الرب ان نشرب الكأس، فلنقبلها مع السيد المسيح قائلين : « لا ارادتي تكون بل ارادتك » . ولنطلب الى الله القوة على احتمال المحن، موقنين ان احتمالها بصبر يمجد ملكنا الالهي كما تمجَّد تعالى بصبر ايوب، ويطهّرنا من آثامنا، ويزيد مكافأتنا في السماء . فقد قال القديس بولس: « ان ضيقنا الحالي الخفيف ينشئ لنا ثقلَ مجدٍ ابديًّا لا حدّ لسموّه » (٢ كور ٤ : ١٧) . ولنذكر ايضاً ان العذاب الذي يشركنا بآلام المسيح يشركنا بافراحه . فلا يجوز لنا أن نرى ملكنا وقائدنا قد تكلل باكليل الشوك وقاسى كل انواع

العذاب، ونبقى نحن جنوده واعضاءه مترفهين، رافضين احتمال المشقّة والألم

ولنخضع لله بمن يمثلون بيننا سلطته، اي السلطة المدنية لان «لا سلطان الّا من الله»، والسلطة الكنسية اي سلطة الاحبار الرومانيين خلفاء القديس بطرس زعيم الرسل الذي تسلّم من المسيح لنفسه ولخلفائه سلطان الرعاية ومفاتيح ملكوت السماوات، وسلطة البطاركة والاساقفة المتحدين مع الكرسي الرسولي لرعاية قطيع المسيح . فقد اراد السيد المسيح ان نطيعهم بقوله لهم : «من سمع منكم فقد سمع مني ومن احتقركم فقد احتقرني» (لوقا١٠:١٦) . «من لم يسمع من البيعة فليكن عندك كوثني وعشار» (متى ١٨:١٧) . فنحن بهذه الطاعة نقدّم للمسيح ملكنا ذبيحة ارادتنا، كما أنّا بالايمان بكلامه قدّمنا له ذبيحة عقولنا

ويحقّ للمسيح ان يملك على قلوبنا بمحبته، بعد ما أحبّنا حتى بذل دمه لاجلنا، وهو يريد محبتنا كلها، ولا يقبل ان نسوّي بهِ احدًا: «من أحب أباً او أمًّا اكثر مني فلن يستحقني. ومن احب ابناً او بنتاً اكثر مني فلن يستحقني» (متى ١٠:٣٧) ويأبى كل الإباء ان نُدخل في قلبنا محبةً لا تتفق مع محبته، ولو كان من نحبه عزيزًا بمنزلة عيوننا : «فان شككتك عينك اليمنى فاقلعها» (متى ٥:٢٩)

يريد ان يملك على جسدنا الذي اصبح بالنعمة هيكل الروح القدس . فيقتضي ان نحافظ فيه على الطهارة والقناعة والعفاف

كل حياتنا، حتى تكون اجسادنا كما قال القديس بولس (رومة ١٢: ١): «ذبيحة حيَّة مقدسة» للمسيح ربّنا وملكنا

وكما يملك المسيح على الفرد يريد ان تعرف الاسرة سلطانه عليها، وهو القائل: «حيثما اجتمع اثنان او ثلاثة باسمي فانا اكون هناك فيما بينهم» (متى ١٨: ٢٠)، وهو الذي اعاد الى الاسرة نظامها وكرامتها وسعادتها بقوله: «ما جمعه الله فلا يفرّقه انسان» (متى ١٩: ٦). فلا بدَّ لتحقيق ملكه السعيد فيها من التقيُّد بالنظام الالهي الخاصّ بها: فلتخضع الزوجة لزوجها، وليتبادل كلاهما روح المحبة الخالصة وحفظ العهد والامانة. وليهتمَّا معاً بتربية البنين وتهذيب اخلاقهم قبل الاهتمام بدروسهم. ثم لا بدَّ من طاعة الاولاد لوالديهم مع الاحترام والمساعدة لهما في اوقات المرض والعجز

وما اجمل الاسرة التي تعرف ان تبرز ايمانها بمظاهر الاكرام والتقوى! فتزيّن منزلها بصورة المسيح الملك والمصلوب الالهي، والعذراء والقديسين، وتحافظ كآبائنا واجدادنا على حضورها القداس ايام الآحاد والاعياد لفيفاً صالحاً. وان ترتفع من موائد بيوتها مآكل الزفر يومَي الاربعاء والجمعة وسائر ايام الصيام المفروضة. وان تتلو صلاة الصبح والمساء، وربّ العيلة في مقدَّمتها قدوة للجميع. سقياً للاسرة التي تسير على هذه الخطة، فانها لمملكة صغيرة للمسيح الملك يغمرها ببركاته وتوفيقه حتى في هذه الدنيا

ثم ان المسيح يريد ان يملك على المجتمع البشري بأسره. ويكلُ الى كل اتباعه ان يفتتحوا له القلوب والبلدان. ولذلك

يقول لهم : « ليضئ نوركم قدام الناس ليروا اعمالكم الصالحة ويمجدوا اباكم الذي في السماوات » (متى٥:١٦) . فمن مميّزات اتباع يسوع الملك ان يغاروا على خلاص النفوس وخير القريب، ليزداد مُلك المسيح انتشاراً في المجتمع البشري، الى ان تتمّ الكرازة بالانجيل في العالم كله، وتصير الرعية واحدة لراعٍ واحد

نعم يريد المسيح الملك ان يملك على الجماعة البشرية لتستمدّ من روحه وتعاليمه ما يضمن لها حقيقة الرقي والسعادة تحت ظل النظام والسلام في هذه الدنيا، وتوحيد الاتجاه نحو الغاية الفائقة الطبيعة للافراد في الآخرة . والمسيح، الذي طلب أن تُراعى حقوق قيصر، يريد ان يراعي قيصر حقوق الله، ويحفظ شرائعه، ويعلم انه لا يحكم الا مستمدًّا سلطته من الله . فكما يجب على المرؤوسين ان يطيعوا رؤساءهم ويكرموهم ويحترموهم، كذلك يجب على الرؤساء ان يطيعوا رئيسهم الاعلى الذي هو المسيح رب الارباب وملك الملوك، ويعاملوا مرؤسيهم على مثاله بالرفق والمحبة

هذه هي اذًا ارادة المسيح الملك : خضوع عقلنا للايمان، وطاعة ارادتنا للشرائع، ومحبة قلبنا له . وهو لا يريد أن نخدمه مُكرَهين بل مختارين . فإما الانضواء السعيد الى راية المسيح ملكنا، وإمّا الخنوع بالعبودية تحت راية الشيطان عدوّه الألدّ . ان المسيح الملك لا يريد ان نعرّج على الجنبين، وهو القائل : « من ليس معي فهو علي، ومن لا يجمع معي فهو يفرّق » (متى ١٢:٣٠)

لا ريب ان الشيطان يدعونا الى اتباعه وهو يلوّح لنا، متضافراً مع العالم الشرير واميال جسدنا الضعيف، بالملذات المحرمة المتنوعة بواسطة الرقص الذميم العصري المختلط، والمسارح والروايات الخلاعية، وضروب الفساد العصرية. يعرض علينا اموالاً محرّمة بالغشّ والسرقة والربى الفاحش. ويقدّم لنا وظائف ورتباً اذا انضوينا الى احدى الشيع السرية الماسونية المحرمة. ولكن كل هذه الملذات خدّاعة زائلة لا يكاد القلب ينصرف اليها حتى يشعر بفراغ هائل من الراحة وامتلاء رهيب من القلق والكآبة. فلا المال المجموع ولا الوظائف تولي في حدّ ذاتها الراحة والسعادة، ولا هي تَقي من الموت، او تنفعنا وراء القبر شيئاً. والملذات الجسدية المحرّمة تنهك الجسم وتضنيه، ان لم تسبِّب له الموت قبل اوانه، وتفقد الشرف، وتذهب بالاموال، وتخرّب البيوت، وتذخر دينونة صارمة وراءها عذاب ابدي. وقانا الله شر ذلك كله. هذه نتيجة ما يُغرينا به الشيطان الذي سمّاه السيد المسيح كذّاباً وابا الكذب

واما اذا اخترنا راية الصليب، فانّا نمشي على آثار يسوع الملك الذي سفك دمه لاجلنا، ونحمل نيره اللين الخفيف الذي يلوح في اول الامر شاقاً، ولكنه يولي الضمير راحةً يسمّيها الكتاب المقدس «وليمة دائمة». ويجعل الحياة هادئة مطمئنة. ويكسبنا شرفاً واستقامة. ويجعلنا نحتمل التجارب بصبر، لا بل بفرح. وبعد ان نكون قضينا حياة حافلة بالاعمال الصالحة، يبقى لنا، على ما قال القديس بولس، اكليل العدل الذي يجزينا به الرب الديان العادل (٢تيمو٤: ٨)

فهو الذي وعدنا بالمكافأة على كأس ماء بارد نقدّمه باسمهِ، يشركنا في مُلكه السماوي حيث نكون متلألئين بانوار البرّ كالشموس. هناك يملأ كل رغائبنا، ويمسح كل دمعة من عيوننا، وقد اعدَّ لنا سعادة لا رأتها عين ولا سمعت بها اذن ولا خطرت على عقل بشر

فلم يبقَ لنا اذاً ايها المسيح ملكنا الّا ان نرتمي ساجدين على قدميك، واقفين على خدمتك حياتنا واسرتنا وحياتنا الاجتماعية. فنطلب اليك ان تنير عقولنا بنور تعاليمك، فتتجه كل عزائمنا نحو ارادتك المقدسة، ولا تهتزّ جارحة من جوارحنا الا لحبك. نريد ان نقف على خدمتك حياتنا العيلية ليسود فيها المحبة والوفاق تحت ادارتك. نتمنى ان تخضع لك كل شعوب الارض، وان تتعبد لك كل الامم التي لا تعرفك. نطلب ان يأتي ملكوتك، فحياتنا هي لك الى آخر رَمق. نطلب ان نعيش برضاك الى ان نستودع ارواحنا بين يديك، وان تسمعنا في اليوم الاخير، وانت جالس على عرشك، ذاك الكلام العذب الذي وعدت بهِ اصفياءَك: «تعالوا اليَّ يا مباركي ابي رثوا المُلك المعدَّ لكم منذ انشاء العالم». آمين

فهرس الكتاب

	صفحة
المقدمة	١
صحة الاناجيل وسلامتها من التحريف	١٠
الانجيليون الثلاثة الاولون متى ومرقس ولوقا	٢٤
انجيل القديس يوحنا ـ اتفاق الاناجيل وجمالها	٣٧
استعداد العالم لمجيء المسيح	٥٠
في دعوة الشعب الاسرائيلي	٦٠
حالة العالم الادبية قبل مجيء المسيح	٧١
نظرة الى يسوع المسيح	٨٢
ميلاد المسيح	٩٤
يسوع المسيح والعمل	١٠١
تعليم السيد المسيح	١١١
عجائب المسيح	١٢١
نبوءات السيد المسيح	١٣١
قداسة السيد المسيح	١٤٢
الوهية السيد المسيح	١٥٢
حب العالم للمسيح	١٦٤
آلام المسيح	١٧٤
قيامة المسيح	١٨٨
يسوع المسيح حياتنا في القربان الاقدس	١٩٩
يسوع المسيح قدوتنا ومثالنا الاسمى في ممارسة الفضائل	٢١٦
يسوع الملك	٢٣٢

232:Sh53yA:c.1
شار ،تيوفانس (الخورى)
يسوع الملك
AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES
01000498

232
Sh53yA

AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT
LIBRARY